
sharif mahmoud
كتاب
الهلال
هجرة
اليهود السوفييت
د. عبد الوهاب المسيري



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عباد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٨٠ ـ جمادى الاولى ـ ديسمبر ١٩٩٠ KITAB AL-HILAL

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ
تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.
فاكس : FAX 3625469
مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال ـ ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٥٠ قرشا

لبنان ٣٠٠٠ ليرة ، الاردن ١,٥ دينار ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريالات ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٣٠ درهما ، الكويت ١,٥ دينار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الامارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة والضفه والقدس ١,٥ دولار ، انجلترا ١,٧٥ جك .

الغلاف تصميم الفنان :
محمد ابو طالب

هجرة اليهود السوفييت

منهج فى الرصد وتحليل المعلومات

بقلم:
الدكتور/ عبد الوهاب المسيري

٥

دار الهلال

مقدمة

« فى المنهج والمصطلح »

١ - إعرف عدوك ولتشعر بالهزيمة

صاحب سقوط النظام الاشتراكى فى رومانيا اضطرابات كثيرة تناقلت الصحف أخبارها : عن المذابح التى وقعت ، وعن الآف الضحايا الذين سقطوا قتلى ، وعن الحرائق والخسائر . وعلى الرغم من أن هذه الأخبار كانت «أكيدة » إلا أنه بعد بضعه شهور بدأت تتكشف صورة مغايرة تماما لما ورد فى الصحف والاذاعات ، اذ تبين أن «ضحايا الثورة الرومانية أقل مائة مرة من الرقم الشائع » ، فهم ليسوا ٦٠ ألف قتيل ـ كما أذيع واشيع من قبل ـ وانما ٦٨٩ فقط ، وشتان بين الرقمين . بل وثبت أن مذبحة تيميشورا ، التى راقب العالم أحداثها بوجل وقلق على شاشات التليفزيون ، كانت محض افتراء ، كما تبين أن وكالتى الأنباء المجرية واليوغسلافية كانتا هما المصدر الرئيسى للأنباء وأن كلا من المجر ويوغسلافيا كانتا لهما مصلحة فى إسقاط النظام الرومانى . ولعل هذا هو الدافع وراء تسريب الأنباء الزائفة عن المذابح .

ولابد أن الصورة الجديدة التى تكشفت صدمت الذين يتلقون كل ما هو مطبوع وكأنه الحقيقة التى لا شبهة فيها ، والذين يواجهون الواقع وهم مستلبون تماما ، يسجلون كل شىء دون عناء أو نقد ثم يسمون هذا الاستلاب «موضوعية» . وهم بالفعل موضوعيون ، ولكن موضوعيتهم هذه موضوعية متلقية تكتفى بتسجيل الوقائع ومراكمتها ، بحيث تصبح القضية الاساسية هى : هل حدثت الواقعة فعلا أم لا ؟ وبعد الموضوعية المتلقية تأتى الموضوعية التوثيقية ، وإذا كانت الأولى تسجل المعلومات دون تساؤل عن المعنى أو الدلالة فإن الثانية « ترصدها » رصدا وتربط بين الواقعة والأخرى بشكل مباشر وعلى أساس تصنيفى سطحى بعد ذكر المصادر فى الهوامش أو فى قائمة المراجع ، ثم يسمى هذا الأرشيف بحثا ! وفى هذا الإطار تصبح القضية الأساسية هو كم المعلومات وعدد المراجع وما إذا كانت بينها آخر المراجع (عادة الغربية) أم لا ، كما تصبح آليات البحث أكثر أهميه من ثمرته العلمية ومقدرته التفسيرية .

وكل من الموضوعية المتلقية والتوثيقية لا علاقة لهما بأى فكر حقيقى أو ابداعى ، بل أنهما يحولان العقل المتسائل إلى آلة رصد ، وبدلا من محاولة تفسير الواقع فإنهما يكتفيان بتسجيله وأرشفته . والوهم الكامن وراءهما أن الحقائق المتناثرة هى الحقيقة ، وأن المعلومة فى حد ذاتها تنطق بالصدق ، وأنه يتم التوصل إلى المعرفة من خلال عملية تجميعية تراكميه خارجية ـ معلومة فوق معلومة (ذره فوق ذره) . وبالطبع تصبح المعلومة المجهولة أو غير المعروفة بالضرورة أكثر أهمية من المعلومة المعروفة ، ويتحول الباحث إلى شرلوك هولمز أو أرسين لوبين يفتش فى المصادر عن مثل هذه المعلومة (أو يخفيها خشية أن يسبقه أحد إليها !) فالمسكين لا يعرف أن كم المعلومات لا يحدد مدى صدقها أو أهميتها ، وأن نوعية المعلومات ، معلومة كانت أم

مجهولة ، لا يجعلها أكثر أو أقل دلاله ، فالصدق والدلالة والأهمية أمور يجردها عقل الانسان المبدع من كم المعلومات والوقائع والحقائق المطروح أمامه ، وهو كم هائل متضارب ، خاصة بعد ثورة المعلومات التى أصبحت تتهدد عقل الانسان .

وغنى عن القول إن مناهجنا التعليمية تصدر عن فلسفة تراكمية ذرية مماثلة فكتبنا الدراسية تركز على المعلومات وكمها ، لا على طريقة تصنيفها وتفسيرها ونقدها ، والهدف من العملية التربوية هو تلقين الطالب حشدا هائلا من المعلومات (معلومة بجوار معلومة ، درسا بعد درس) .إلى أن تضيع الحقيقة تماما ، ويبرز متوسطو الذكاء الذين لا يتمتعون إلا بموهبه الحفظ والتكرار والاجترار ، وتفقد الأجيال مقدرتها على التفسير والابداع والنقد .

ولا اعتقد اننى ابالغ كثيرا ان قلت ان الموضوعية المتلقية التوثيقية تسيطر على طريقة ادراكنا للواقع ورصده وان اعلامنا العربى يدور فى فلكه ويتحرك داخل اطاره . ولأضرب مثلا على عملية الرصد دون اجتهاد وبموضوعية متلقية توثيقية . فى عام ١٩٨٢ صرح متيتيا هو دروبلس (رئيس قسم الاستيطان السابق فى الوكالة اليهودية) ان عدد المستوطنين الصهاينة فى الضفة الغربية سيصل الى ١٠٠ الف عام ١٩٨٧ وانه بحلول عام ٢٠١٠ ستضم الضفة الغربية ١,٢٥٠,٠٠٠ يهودى ! ونشر الخبر بحذافيره فى كثير من الصحف العربية ، وزينت المعلومة صفحاتها وعناوينها الرئيسية . ولكن بحلول عام ١٩٨٧ لم يكن عدد المستوطنين قد تجاوز ٥٠ ـ ٦٠ الفا (انظر كتابنا «الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية») اى ان نبوءة دروبلس او مخططة فشل تماما ! ومع هذا صرح هذا المسئول الصهيونى نفسه فى ذلك العام (١٩٨٧) بأن هناك خطة مدروسة لزيادة عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد السكان العرب فى نهاية القرن الحالى اى ٦٠٠ الف مستوطن . ثم اشار الى ان هذه الخطة تفترض هجرة مليون ونصف مليون يهودى من الاتحاد السوفييتى .

وقد نشر الخبر بحذافيره مرة اخرى فى كثير من الصحف العربية ، كما زينت المعلومة الجديدة صفحاتها وعناوينها الرئيسية ، لم يكلف احد خاطره بان يذكر كذبة درويلس السابقة حتى نتحفظ تجاه تصريحاته الجديدة ، ولم يطرح احد احتمال انه قد يكون مثل سائر البشر يخلط الحقائق بالأماني والحقيقة بالوهم ، وانه قد لا يختلف كثيرا عن المخابرات الاسرائيلية التى استمرت فى انكار وجود الانتفاضة بعد شهر من اندلاعها ، والتى أعلنت انه تم اخمادها بشكل نهائى ـ عشر مرات حتى الآن !

ونفس الموضوعية المتلقية التوثيقية تظهر فى الحديث عن النبوءات الصهيونية التى تحققت ، ويشير «الخبرا» دائما الى نبوءة هرتزل أن الدولة الصهيونية ستحقق بعد خمسين عاما ، ثم يهزون رأسهم فى حكمة بالغة ويقولون أنها قد تحققت بالفعل فى ذلك التاريخ ، ثم يشفعون ذلك بالاشارة الحتمية الى دقة التخطيط الصهيونى ومقدرات الصهاينة الجائبية .

ولكن لعل كثيرا ممن يقال لهم بالموضوعيين هم فى واقع الأمر مهزومون مغرمون بجمع المعلومات والنبوءات التى تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه ، ولذا نجدهم يرصدون نوعا من القرائن ، دون غيره ـ اى أنهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية ، ولذا فهم لايذكرون النبوءات الصهيونية الكثيرة التى لم تتحقق (هل أحصى أحد عددها وقارنها بعدد تلك التى تحققت ؟) ماذا عن نبوءة الصهاينة ان العرب سيقبلون بالدولة الصهيونية وان الفلسطينيين سيرحبون بها ؟ وماذا عن نبوءتهم انها ستكون دولة ليبرالية لادينية ؟ وماذا عن نبوءة هرتزل بأن «المانيا العظيمة القوية » هى التى ستقوم برعاية المشروع الصهيونى وبحماية اليهود «ووضعهم تحت جناحيها» كما قال بالحرف الواحد؟ وكلنا يعرف ان المانيا العظيمة هذه وضعتهم فى افران الغاز وفتكت

بالملايين منهم وغيرهم بعد مرور حوالى ثلاثين عاما من نبوءته ـ لم لايذكر احد تلك النبوءات ؟

كما لايذكر احد نبوءات الصهاينة بخصوص الارجنتين التى تضم اكبر تجمع يهودى فى امريكا اللاتينية (يبلغ تعدادهم حوالى ٣٠٠ الف) . وامريكا اللاتينية تعتبر احدى مناطق النزوح ، أى انها بلد طاردة لليهود وليست جاذبة لهم . وهذا يعود لعدة أسباب ، من بينها رفض الحضارة اللاتينية لليهود ومقدرتها فى ذات الوقت على هضمهم ، ومن بينها أيضا تقاليد معاداة اليهود الراسخة ، وعدم الاستقرار السياسى أو الاقتصادى لبلاد القارة . وقد جاء انتخاب منعم رئيسا للأرجنتين ، بخلفيته الأثينه العربية ، فزاد من مخلوف اليهود فيها ، خاصة ان منافسه الفونسين كان متعاطفا مع اعضاء الجماعة لكل هذا اطلق الصهاينة النبوءات ان «هجرة جماعية» ستبدأ لامحالة من الارجنتين الى اسرائيل .

ولكن الذى حدث بالفعل خيب امل الصهاينة اذ لم يهاجر سوى بضع مئات ، عادوا بعدها الى بلادهم ، وتوجه بعضهم الى الولايات المتحدة ، البلد الذى يشكل نقطة الجذب الاساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من يهود العالم ، وصرح دوف شيكلانسكى ، المتحدث باسم الكنيست واحد زعماء الليكود ان يهود الأرجنتين لم يستمعوا الى نصائحه الصهيونية (ميامى جويش تلغراف ٣ اغسطس ١٩٨٩) . الا يحتاج هذا القول الى رصد ؟ أو ليس هذا أيضا جديرا بالدراسة ؟

وهناك نوع اخر من المهزومين ، قد يختلفون فى منهجهم عن الموضوعيين ، الا أن رؤيتهم تؤدى الى النتيجة نفسها واعنى اولئك الكتاب الذين يحرصون دائما على أن ينسبوا لليهود كل شرور العالم ، فهم وراء الانحلال الخلقى والماسونية والثورة الراسمالية والبلشفية والثورة المضادة وثورة الأجيال . وهؤلاء الكتاب يخدمون الصهيونية دون ان يدروا ، فمن ينسب كل الشرور

لليهود يجعل منهم قوة لاتهزم لها ذراع يصل الى أى مكان (وهذا بالمناسبة هو وصف الجيش الاسرائيلى لنفسه) . وأعتقد ان عملية التخويف من اليهود سواء بشكل «علمي» أم خرافى أصبحت ضرورة نفسية لدى بعض الكتاب والمواطنين العرب فهى تبرير ذكى غير واع للهزيمة ، اذ انه اذا كان العدو اخطبوطيا الى هذا الحد ، فما هى جدوى الحرب ضده ؟ الا يقف هذا شاهدا على أن هزيمتنا مسألة مفهومة ؟

وقد عبرت عملية التخويف عن نفسها ، وبشكل موضوعى ذكى من خلال سيل الكتب والدراسات التى نشرت تحت شعار «اعرف عدوك» والتى تتكون اساسا من كتب ترجمت عن العبرية أو غيرها من اللغات ومن دراسات هى فى واقع الأمر تجميع «وقص ولصق» لارقام واحصائيات وعبارات نقلت من مثل هذه الكتب والتى عادة ما تضم معلومات متناثرة موضوعية تبين قوة العدو وسطوته ـ ولا غرو فى هذا فهو الذى انتقى المعلومات من وجهة نظره ، وهو الذى قام بترتيبها حتى لاندرك مواطن الضعف فيه وحتى يولد فينا الرعب منه ، فيكسب الحرب دون ان يدخل المعركة . وتوازن الرعب أصبح مفهوما اساسيا فى ادارة الصراع ، وهو توازن يميل تماما لصالحه من خلال هذه الكتب التى نترجمها وننقل منها بدقة وامانة ، دون تفسيرا أو نقد أوتحليل ، وكأننا تلميذ فى احدى المدارس يحاول أن يرص المعلومة بجوار المعلومة فى ورقة الامتحانات بعد ان اثقل ذاكرته واتخمها بالمعلومات طيلة .. العام !

٢ ـ الخطر الصهيونى الجديد

كل هذا إن هو إلا على سبيل المقدمة لموضوع الساعة اى «الخطر الصهيونى الجديد » المتمثل فى هجرة اليهود السوفييت بأعداد لم يسبق لها مثيل ، وهو موضوع كتب عنه المعلقون

والصحافيون والاخباريون والاعلاميون . ويذهب معظم هؤلاء إلى القول ، بل وإلى التأكيد ، بأن هذه الهجرة ستحل مشكلات إسرائيل الاقتصادية والسكانيه والاستيطانية الخ .. عن طريق حقنه بمادة بشرية تتمتع بمستوى تعليمى راق وكفاءة عالية يمكنها أن تخلق حقائق جديدة فى اسرائيل الكبرى أى داخل فلسطين التى احتلت قبل وبعد عام ١٩٦٧ . وهذه المادة البشرية ستستوطن فى الأراضى العربية المحتلة وستزيد الكثافة البشرية اليهودية وستساهم فى التقدم العلمى والتكنولوجى لاسرائيل ، أى أنه بضربة واحدة ستحل اسرائيل مشكلاتها الاقتصادية والسكانية والاستيطانيه ، ومن ثم فإن البناء السياسى فيها سيتغير لصالح اليمين وستتمكن المؤسسة الحاكمة من ضرب كل القوى التى تطالب بالسلام فى مقابل الأرض . بل وسيمكنها أيضا ضرب كل من العنصر اليهودى الشرقى الذى بدأ يحقق مكاسب من خلال قوته العددية ، والعنصر اليهودى الدينى الذى يتمتع بنفوذ واسع لا يتناسب مع قوته العددية بسبب الموازنات السياسية . ويذهب البعض إلى أن هذه الهجرة ستؤدى إلى بعث مشروع البديل الأردنى لحل المشكلة الفلسطينية ، وإلى تطبيق سياسة التهجير (الترانسفير) ، وكل هذه العناصر ستؤدى فى نهاية الأمر إلى رضوخ العرب للوجود الاسرائيلى مما يعنى دعما لدورها الاستراتيجى الذى بدأ فى التآكل مؤخرا - أى ان الهجرة هى الصيغة السحرية التى ستحل كل مشكلات إسرائيل .

ولايمكن لاى دارس للظاهرة الصهيونية إلا ان يوافق على أن هجرة اليهود السوفييت تشكل لحظة فى غاية الاهمية - قد تصبح حاسمة ونهائية - فى تاريخ الصراع العربى - الصهيونى - الذى بدأ عام ١٨٨٢ حينما هاجر بعض يهود شرق أوربا الاشكناز من روسيا القيصرية إلى فلسطين . هذه المجموعة البشرية نطلق عليهم اصطلاح يهود اليديشيه ، نسبة إلى الرطانه الالمانية التى

كانوا يتحدثون بها . ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ومع تزايد اندماجهم الثقافي واللغوى ، ومع استقلال بولندا أصبحنا ننسبهم إلى بلادهم فنقول «اليهود السوفييت» ، أو « يهود بولندا » ، وهكذا .

هذه المجموعة البشرية كانت ، ولاتزال ، أهم مصادر المادة البشرية ، الاستيطانية والقتالية ، للكيان الصهيونى ، فقد نشأت الحركة الصهيونية بينهم ، ومن صفوفهم تم تجنيد غالبية المستوطنين الصهاينة حتى عام ١٩٤٨ . وهم المهيمنون على كل المؤسسات فى إسرائيل بما فى ذلك مؤسسات صنع القرار .

ولا يمكن لاى دارس للظاهرة الصهيونية إلا أن يوافق على أن هجرة اليهود السوفييت ستشكل ، خاصة إن تحققت على المستوى الكمى والكيفى الذى تتداوله الصحف ، دفعة حقيقية وتحولا نوعيا للتجميع الصهيونى ، فهو اولا واخيرا تجمع استيطانى يقوم على تجميع المادة البشرية اليهودية وتجنيدها وتدريبها لتقوم بالقتال دفاعا عن مجموعة من الاهداف أهمها المصالح الغربية فى المنطقة . وفشل التجمع الصهيونى فى جذب المادة البشرية سيشكل ولاشك ضربة فى الصميم له ولمقدرته على الاستمرار فى القتال . ولو وضعت مقدرته على القتال (وهى وظيفته الإساسية وربما الوحيدة) موضع التساؤل من قبل القوى الغربية التى تدعمه وتضمن وجوده وسلامته ، فإن شرعية وجوده ذاتها تصبح موضع تساؤل ، ومن هنا ياتى حرصه المحموم على الهجرة اليهودية .

ولكن ما قررناه مقولة عامة للغاية لا تساعد كثيرا على قراءة الواقع المتعين والمركب ، فالظاهرة الصهيونية ظاهرة سياسية اجتماعية تاريخية ، تخضع فى معظم جوانبها إلى القوانين العامة التى تتحكم فى الظواهر المشابهة لكنها أيضا ظاهرة مركبة الى اقصى درجة ، كما انها ـ شأنها شأن اى ظاهرة اخرى ـ لها خصوصيتها ، فهى التشكيل الاستعمارى الاستيطانى الاحلالى الوحيد الذى لايزال فى طور التشكل .

كما ان هجرة اليهود السوفييت الجديدة ، رغم انها تدخل ضمن نمط الهجرات اليهودية الاستيطانيه وغير الاستيطانية ، في العصر الحديث ، الا انها لها هي الأخرى خصوصيتها فهي هجرة تتم تحت ظروف خاصة للغاية (ازمة النظام الشيوعي ـ النظام الدولي الجديد) ، كما ان المادة البشرية التي تقذف بها هذه الموجة على شواطئنا العربية ذات نوعية مختلفة تماما عن المادة البشرية التي قذفت بها الموجات السابقة .

ومن ثم تكون الاستنامه للمقولات العامة عن خطر الهجرة اليهودية السوفييتية والاسراع بالكتابة عن القضية بموضوعية متلقية توثيقية سلبيه سطحيه هو تهرب من مسئولية التفسير والربط والتركيب ، وفي نهاية الأمر الفعل والحركة ، وكأن الواقع عنصر واحد بسيط ساكن لايتغير ،وكان ما يحدث اليوم حدث بالأمس وسيحدث غدا ، بالطريقة نفسها وعلى نفس المنوال ، وكأن الظاهرة الصهيونية ليست بظاهرة بشرية تحتوى داخلها مقومات القوة والضعف ، .والحياة والموت .

٣ ـ بين الحقائق والحقيقة والحق

ولكن ثمه مناهج أخرى لدراسة ظاهرة الهجرة اليهودية السوفييتية ، اذ يمكن تناولها بطريقة تتجاوز عملية التلقي والتوثيق التراكمي ورد الفعل المباشر . وابتداء يجب أن نقرر أن الحقائق رغم صلابتها ليست الحقيقة (تماما كما أن الحقيقة ليست بالضرورة الحق) . فإن قلت أن « زيدا ضرب عمروا » فهذه واقعة «والسلام » لا يمكن أن اقرر مدى صدقها أو أهميتها أو دلالتها ولا يمكن فهمها في حد ذاتها إذ انها مجرد حدث مادى فيزيقي ، كما لا يمكن التعميم منها ، فهي تكاد تكون دالا دون مدلول ـ كلام دون معنى أو له معنى خاص للغاية بحيث لا يعنيني على الاطلاق ، أو عام للغاية بحيث لا يضيف إلى معرفتي ، تماما كما لو قلت « فستان احمر وقطه زرقاء » . ولكن إن ربطنا بين هذه الواقعة ووقائع أخرى ـ قد تكون اكثر أو اقل صلابة ـ فإن المدلول الحقيقي والخاص

لواقعة الضرب يبدأ فى الاتضاح ، فإن عرفنا (من خلال كتب التاريخ) أن عمروا (الضحيه المباشرة) كان قد اغتصب أرض زيد وقتل أباه منذ أربعين عاما ، وإذا عرفنا أن زيدا حاول بشتى الطرق السلمية استعادة أرضه دون جدوى ـ أقول : إذا عرفنا ذلك أمكننا أن ندرك الدلالة الحقيقية لمواقة ، وبدل أن نقول « زيد شخص باطش وعمرو هو الضحية » فإننا سنعيد النظر لأننا وصلنا إلى حقيقة أكثر تركيبا من الاستجابة المباشرة ، ولرأينا أن زيدا هو الواقع الضحية ، بل لقلنا إنه لم يثأر بما فيه الكفاية لكرامته ، وأنه يتسم بكثير من التسامح تجاه أعدائه .

ولنفرض أننا سمعنا أن « زيدا الثاني ضرب عمروا الثانى » ، وأننا اكتشفنا من خلال ربط هذه الواقعة بتفاصيل اخرى أن زيدا الثاني هو أيضا الضحية الأصلية ، ولنفترض كذلك أننا فتحنا كتب التاريخ ووجدنا أنه كلما سرق أى عمرو أرض أى زيد وقتل أباه فإن زيدا المسروق يحاول أن يثأر لنفسه عن طريق الضرب أو القتل أو غيره ، إن فعلنا ذلك فإننا نكون قد اكتشفنا نمطا متكررا واستنتجنا منه أن الضرب هنا ليس إجراما وإنما فعل مشروع ، نحن قد وصلنا الى هذا النمط وجردناه من خلال عمليتي الملاحظة المتكررة والربط بين الوقائع المماثلة ، وبوسعنا أن نستخدم هذا النمط كنموذج تفسيرى للأحداث المماثلة التى تقع أمامنا ، بل إننا يمكننا الآن أن نصدر حكما أخلاقيا ونتحرك من عالم الحقيقة إلى عالم الحق ، وربما تحركنا منه إلى عالم الفعل الفاضل .

ولنلاحظ ما يلى :

١ ـ أن الوقائع أو الحقائق نطقت بالحقيقة وأصبح لها معنى خاص ومحدد من خلال عملية الربط ، إذ أصبح الضرب نتيجة لسبب لا مجرد فعل مادى فيزيقى .

٢ ـ ولنلاحظ أيضا أننا لم نرصد سلوك زيد وعمرو « من الخارج » وكأنهما حشرات أو حيوانات أو أشياء وإنما نظرنا لهما باعتبارهما بشرا على قدر كبير من التركيب لهما دوافع مركبة ، وأن سلوكهما لا يمكن فهمه إلا في إطار دوافعهما ، وفي إطار المعنى الذى ينسبه كل منهما إلى ما يقوم به من افعال ، وفي إطار إدراكهما لهذا المعنى . فحينما قام زيد بضرب عمرو فهو لم يفعل ذلك دونما سبب واضح أو ليشبع غريزة حيوانية ، وإنما ليدافع عن قيم إنسانية نبيلة ، ولابد أن عمرو كان يدرك ذلك وهو يتلقى اللكمات ، ولابد من أن ذلك إما زاده شراسة أو قوض من عزيمته .

٣ ـ ولنلاحظ أننا لم نكتف بالنظر إلى الواقعة وإنما عدنا إلى تاريخ زيد وعمرو ونظرنا إلى زيد الثانى وعمرو الثانى ، كما أننا ربطنا الواقعة التى عرفنا عنها بوقائع مماثلة فى أماكن وأزمنة مختلفة ؛ وقائع ظهرت دلالتها ومضامينها كواقعة لها ماض ولها مستقبل ، جزء من كل .

٤ ـ وأننا من خلال هذا كله اكتشفنا نمطا متكررا حولناه إلى نموذج قادر على تفسير جوانب كثيرة من الوقائع المماثلة .

والعمليات السابقة كلها عمليات عقلية ـ أى أنها لا تتم فى الواقع المادى وإنما تتم فى عقل الانسان ، إذ بدونه لا يمكن للنموذج التفسيرى أن يظهر ـ فالنموذج هو ثمرة الاجتهاد ، ثمرة الموضوعية الاجتهادية التفسيرية (فى الواقع أحاول قدر استطاعتى ألا استخدم اصطلاحى «موضوعى وذاتى » واستخدم بدلا من ذلك «أكثر تفسيريه وأقل تفسيرية » حتى ننقل بؤرة الاهتمام من الظاهرة المادية فى حد ذاتها إلى الظاهرة كبنيه مركبة وموضوع للتفسير) .

٤ ـ النموذج التفسيرى والمتتالية الاحتمالية

والنموذج التفسيرى الذى جردناه ليس قانونا عاما مثل القوانين الرياضية أو العلمية التى تسرى بشكل رتيب رهيب على كل الظواهر المماثلة فى كل زمان ومكان ، وانما هو أساسا فرضية منفتحة ، ذات مقدرة تفسيرية عالية اكتسبت قدرا من اليقينية ـ فرضية أصولها تجريبية ، ويتم اختبارها تجريبيا ، رغم أن صياغتها تتم من خلال عملية عقلية . ومن ثم فالنموذج التفسيرى ليس بموضوعى أو ذاتى ، بل إنه يتجاوز هذه الثنائية تماما فهو بمثابة الفلتر الذى ينظم عملية الادراك والرصد والملاحظة ، فلا يغرق العقل فى الذاتية ويعيد صياغة الواقع على هواه ، ولكنه لا يغرق أيضا فى المعطيات المادية المصمتة أو يخضع لها بل يتجاوزها ويتجه نحو تفسير الواقع بدلا من تسجيله ـ وهو وحده القادر على ذلك ، فهو هبة الله للإنسان ، وآية من آياته .

والنموذج التفسيرى يتسم بقدر عال من العمومية والتبسيط والخصوصية والتركيب ، إذ لابد وأن يكون من العمومية والتبسيط بحيث يمكنه التعامل مع المعطيات المختلفة باعتبارها أنساقا وظواهر خاضعة لقوانين عامة وإلا تحولت هذه المعطيات إلى وحدات جميلة فريدة بلا نظير لا يمكن فهمها أو التعميم منها . ولكنه فى ذات الوقت لا يهمل خصوصيتها أو تركيبيتها التى تعطيها هويتها الخاصة ومنحناها الخاص وتنقذها من السقوط فى بحر العمومية الأملس . فالنموذج التفسيرى يحاول أن يرى الظاهرة فى علاقتها الحية بالظواهر الاخرى ، مما يكسبها دلالتها العامة ، ولكنه لا يهمل استقلالها النسبى وشخصيتها المستقلة ، فهو يربط الخاص بالعام ، والجزء بالكل ، والواقعة بالنمط ، والنتيجة بالسبب ، والعنصر بالنسق ، دون أن يفقد أى منهما شخصيته وهويته واستقلاله (على العكس من العلوم الطبيعية حينما تصبح

الظاهرة الطبيعية مجرد تعبير رتيب عن قانون عام ، فلا يوجد مسافة بين الظاهرة الخاصة والقانون العام ـ أو هكذا كان التصور حتى عهد قريب) .

ويمكننا الآن أن نتحرك خطوة للأمام ، ونضيف اننا لا ندرك الواقع من خلال نماذج تفسيرية وحسب وانما ينبغى الاستعداد له من خلال مجموعة من المتتاليات الافتراضية الاحتمالية التى تأخذ الشكل التالى :

اذا حـدث أ اذن ب
واذا حدث جـ اذن د
واذا حدث أ و جـ اذن ب و د ،
أو قد يحدث شيء جديدة كل الجدة ، نظرا لامتزاج أ و جـ .

وهذه المتتاليات الافتراضية الاحتمالية لا تعنى ان كل شيء ممكن ومحتمل ، فهى ليست من « بنات أفكار » الباحث وانما هى فى واقع الأمر نماذج تفسيرية ، فرضية منفتحة لكنها لم تكتسب بعد قدرا معقولا من اليقينية . ومن ثم فصياغة هذه المتتاليات ذاتها لابد وأن يخضع لنفس القواعد التى تخضع لها صياغة النماذج التفسيرية مثل ملاحظة الواقع بدقة ، ورصد تكرار الوقائع المماثلة ، وترتيب العناصر المختلفة من منظور مدى أهميتها ومركزيتها ، ثم دراسة أشكال التفاعل بينها ، والنتائج المختلفة المتوقعة وغير المتوقعة الناجمة عنها . وبعد صياغة المتتاليات المختلفة يجب ترتيبها من منظور درجة احتماليتها ، ثم يتم مراكمة المعلومات فى اطار النموذج التفسيرى والمتتاليات الافتراضية ، فإما أن يزداد النموذج تفسيرية ويقينيه ، أو يتم تعديله عن طريق إعادة صياغته أو إحلال متتالية أخرى محله باعتبار أنها قد تكون أكثر تفسيرية .

ولنضرب مثلا على ما نود قوله ولنبدأ بقضية أعداد المهاجرين . إن قمنا برصدها بشكل موضوعى متلقى فاننا سنفاجيء بتضارب هائل بين الأرقام : فعدد المهاجرين المتوقع وصولهم هو تارة ٤٠٠

الف وتارة اخرى مليون او مليونين أو خمسة ملايين أو اثنى عشر مليون ! وتقوم صحفنا والصحف العالمية بنقل هذه الأرقام دون تفسير أو تحليل وكأن عقولنا فى آذاننا أو عيوننا أو حواسنا الخمس (وكأن الله لم ينفخ فينا من روحه) ، مع أن هذا التضارب هو ذاته دعوة للاجتهاد . ونحن لو أجتهدنا وربطنا الأرقام بأنماط وحقائق تاريخية ، أى لو استخدمنا أسلوب النماذج التفسيرية والمتتاليات الاحتمالية ، لاكتشفنا ان الرقم ٤٠٠ الف صادق وكاذب فى ذات الوقت ، وان الأرقام الضخمة هى الاخرى صادقة وكاذبة . فالرقم الأول صادق إن أخذنا فى الاعتبار الاحصائيات السوفييتية ، وهى احصائيات خاصة باليهود الذين سجلوا أنفسهم يهودا (وهم لا يزيد عددهم عن مليون ونصف) ، وكاذب إن أخذنا فى الاعتبار اليهود المتخفين والمواطنين غير اليهود وشبه اليهود الذين سيأتون مع المهاجرين ، إما باعتبارهم أعضاء فى الأسرة اليهودية (زوجات أو أزواج وابناء) أو متسللين . ونفس الشيء يسرى على الأرقام الضخمة ، فهى كاذبة تماما إن أخذنا فى الاعتبار عدد اليهود السوفييت الحالى ، وصادقة تماما إن أخذنا فى الاعتبار اليهود المتخفين واشباه اليهود وغير اليهود . وهكذا تحولت الأرقام من مجرد شيء مصمت عام (يُقبل ويُدوّن ويُرفض ويُشجب) إلى موضوع للتفسير ومجموعة عناصر مركبة ذات مستويات احتمالية ويقينية مختلفة .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لشيء كمى مثل أعداد المهاجرين فهو من باب أولى يسرى على شيء كيفى مثل دوافعهم ومطامعهم ونوعيتهم . فنحن لوقنعنا بالحديث عن المهاجرين بشكل عام (مستوطنين يطمعون فى الأرض) لغابت عنا جوانب كثيرة فى الواقع ولجابهنا الواقع كمعطى جاهز جامد . أما لو ادركناه فى عموميته وخصوصيته ، فى بساطته وتركيبيته من خلال نماذجنا التفسيرية ومتتالياتنا الاحتمالية فاننا سنتوصل الى حقيقة هويتهم ودوافعهم فى الهجرة ومن ثم سيمكننا أن نقرر احتمالات استمرار

تدفقهم من انعدامه ، وأن نعرف اثرهم المحدد على التجمع الصهيوني ، فإذا كانوا يهودا فهم سيحدثون أثرا مختلفا تماما عما لو كانوا غير يهود أو شبه يهود ، ولو كانوا صهاينة فأثرهم سيختلف نوعيا عما لو كانوا مجرد باحثين عن المنفعة الشخصية واللذة المباشرة . ومن ثم ستكون عملية التصدى لكل مختلفة ، وستتفتح أمامنا سبل للعمل والحركة ماكنا لندركها لو تلقينا الواقع بسلبية وبساطة وخنوع .

٥ ـ لا تهوين ولا تهويل

وهذه الدراسة التى تتناول « واقعة هجرة اليهود السوفييت » لاتهدف إلى توصيل حقائق وأرقام محددة للقارىء وحسب ، وانما تهدف أيضا إلى طرح منهج فى الرصد والتحليل والتفسير . وابتداء نظرنا للواقعة باعتبارها لحظة جذورها فى الماضى واستمرارها فى المستقبل ، وباعتبارها جزءا من نمط متكرر أوسع ، ولا يمكن فهم اللحظة الآنيه الا بفهم الماضى ، ولا يمكن ادراك الجزء الا بفهم الكل والنمط . ولذا تناولنا بشكل سريع أنماط تطور أفراد الجماعات اليهودية السكانى وتزايدهم وتناقصهم وكذلك انماط هجراتهم عبر التاريخ مع التركيز على العصر الحديث اذ تنتمى هجرة اليهود السوفييت الى هذا النمط . ثم تناولنا تاريخ أفراد الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى منذ بداية استقرارهم هناك حتى الوقت الحاضر ، وتطورهم السياسى والثقافى والمهنى ، وهوياتهم الدينية والإثنية والعقائدية المختلفة ، وتوزيعهم الجغرافى . وتعرضنا كذلك لموقف البلاشفة من المسألة اليهودية والدولة الصهيونية ، ومن هجرة يهود الاتحاد السوفييتى .

هذه الخلفية التاريخية تشكل ماضى اللحظة والكل الذى تنتمى له الواقعة ، أما القسم الثانى من الكتاب فيركز على الواقعة ذاتها ، فتناولنا قضية أعداد المهاجرين اليهود السوفييت ، وبواعث

هجرتهم ، وقضية اليهود المتخفين ، وعوامل الطرد والجذب فى كل من الاتحاد السوفييتى واسرائيل ، ومشكلات الاستيعاب المختلفة ، والنتائج المتوقعة وغير المتوقعة للهجرة ، بما فى ذلك عداء المستوطنين الصهاينة القدامى للوافدين الجدد . وفى ختام الدراسة طرحنا تصورا شاملا لكيفية التصدى لهذه الهجرة . وفي طى الدراسة حاولنا دائما ان نشير إلى بعض السمات الأساسية والبنيوية للتجمع الصهيونى ، ثم ربطنا بينها وبين القضايا والوقائع التى نتناولها ، حتى تزداد الوقائع دلالة وتركيبا .

ونحن لن نهون ولن نهول ، فالتهوين والتهويل ضاران معرفيا وعمليا ، أما من الناحية المعرفية فهما عملية تبسيط وتسطيح للواقع المركب وتشويه له بحجة اقناع الناس بوجهة نظر ما ، اما لادخال الطمأنينة على قلوبهم أو لشحذ هممهم . ونحن ان قمنا بالتهوين فاننا بذلك نكون قد اعطينا أنفسنا وسادة ننام عليها بينما يشحذ العدو سكينه - وهذه بديهية نتفق عليها ، أما التهويل فيبدو انه لا يوجد اجماع بشأنه ، اذ يظن البعض ان التهويل من قوة العدو يؤدى الى الاستنفار ، وهذا أمر مشكوك فيه - إذ لا أعتقد ان هناك علاقة طردية بين حجم الخطر الصهيونى (الحقيقى أو الوهمى) ودرجة استجابة العرب له ، فان قل الخطر نام العرب وان زاد تحركوا ، فالانسان ليس مخلوقا بسيطا الى هذا الحد ، ولا أعتقد اننا لو قلنا ان عدد اليهود السوفييت الذى سيحضرون هو ١٢ مليونا (كما يدعى شارانسكى) فاننا سنتحول الى مجاهدين فى التو واللحظة ، بل العكس قد يكون صحيحا إذ قد يؤدى التهويل الى توليد اليأس والهزيمة .

اننا نحاول رؤية الهجرة السوفييتية بطريقة تتجاوز مستوى الخبر المنشور والواقعة المكتوبة ومزاعم العدو واوهامه عن نفسه وعن الاخرين بحيث يمكن ادراك الواقع فى كليته وتركيبته . وهذا الادراك ليس عملية تأملية مجردة أو أكاديمية مسلية ، وانما هو فى

تصورى الطريقة الوحيدة للحركة الهادفة نحو تغيير الواقع وزيادة المقدرة العربية على التعامل معه وزيادة التحكم فيه ، فالرصد العام (المتلقى السلبى) يؤدى الى الكآبة ـ فهو ابن الهزيمة . أما الرصد الخاص الذى يلم بظاهر الموضوع وباطنه ، بسطحه وبنتوئه والذى يضع الظاهرة فى سياقها التاريخى يفتح أمامنا مجالات الحركة ، ومن ثم افاق الحرية والامل .

ولكن قبل ان نبدأ الدراسة قد يكون من الضرورى تفسير بعض المصطلحات التى نستخدمها مثل "مادة بشرية" و"الجماعات اليهودية" ، ومصطلح "مادة بشرية" ليس من صكنا فهو مصطلح يستخدم فى الأدبيات الصهيونية حتى الوقت الحاضر للاشارة للبشر بشكل عام ولأعضاء الجماعات اليهودية بشكل خاص ، وقد استخدمه هرتزل فى دولة اليهود وفى مذكراته وكذا ناحوم سوكولوف ، ولايزال المصطلح سائدا فى إسرائيل ، والعبارة تشبه عبارات اخرى مثل "فائض بشرى" أو "الفائض اليهودى" ، وكلها جزء من الخطاب السياسى الغربى النفعى ، وتصلح للاشارة للانسان لا كمطلق وانما كمادة استعمالية نسبية يمكن توظيفها ، وقد تبنى الصهاينة المصطلح لأنهم طرحوا المشروع الصهيونى باعتباره مشروعا يهدف الى تحويل الفائض البشرى اليهودى غير النافع الى مادة استيطانية نافعة توظف فى خدمة الاستعمار الغربى فى أى مكان فى العالم "ثم استقر الامر على فلسطين" ، وهذا المصطلح يتسق تماما مع الرؤية النفعية المتطرفة للانسان التى تنزع عنه اية قداسة وتنظر له بمقدار نفعه (او ضرره) ، وهو كذلك أكثر اتساقا مع الرؤية الامبريالية للعالم الذى تراه كله مسرحا لنشاط الانسان الغربى يهيمن عليه ويوظفه لصالحه ، والعبارة تصف وبدقة شديدة رؤية الانسان الغربى لأفراد الجماعات اليهودية ، فقد كان ينظر لهم ابتداء من القرن السابع عشر كأداة تستخدم ويحكم عليها بمقدار نفعها .

وسيلاحظ القارىء استخدامنا لكلمة "جماعات يهودية" بدلا من "يهود" ونحن نفضل استخدام المصطلح الأول لأن مشكلات الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من تواجدها فى مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف ، واستخدام اصطلاح يهود على "اطلاقه" لن يساعد كثيرا على التحليل والتفسير ، ونحن نذهب الى ان كلا من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية هما فى واقع الأمر عقائد وهويات متعددة تأخذ شكل تركيب جيولوجى يحتوى داخله طبقات غير متجانسة ولكنها تعيش الواحدة فوق الاخرى ، واذا ما اطلقنا على هذا التركيب يهود ويهودية فان فى هذا تعسفا ولويا لعنق الواقع ، ولذا فنحن نشير الى العقائد والجماعات اليهودية ، وكلمة "جماعات" تؤكد استقلال كل جماعة وخضوعها لحركيات تاريخية وحضارية مختلفة .

والمقدرة التفسيرية لمصطلح "الجماعة اليهودية" أعلى بكثير من مصطلح "اليهود" الذى يجعل الباحث يواجه اليهود وكأنهم كتلة واحدة متجانسة متماسكة لها قوانينها الخاصة ومنطقها الداخلى ، أما مصطلح أفراد الجماعات اليهودية فهو يؤكد عدم التجانس واستقلال كل جماعة عن اخرى ، وان هذه الجماعات قد تكون خاضعة لقوانينها الخاصة ومنطقها الداخلى (باعتبارها "يهودية") ولكنها خاضعة ايضا لقانون أكبر ومنطق أشمل باعتبارها "جماعات" تشكل جزءا من كل ، فهو مصطلح يعين الظاهرة كظاهرة يهودية ولكنه لا يجعل من يهوديتها النقطة المرجعية الأساسية وانما يجعلها نقطة فرعية ، اذ تظل الحقيقة الأساسية المرجعية أنها جماعة فى مجتمع الأغلبية وانها جزء من

كل تاريخى حضارى أكبر تستمد منه هويتها وحركيتها ـ ترقى برقيه وتنحدر وتهوى بانحداره وسقوطه .

وسيلاحظ القارىء أيضا اننا لا نستخدم اصطلاح "الهجرة اليهودية" قدر استطاعتنا وبدلا من ذلك نستخدم اصطلاح "هجرة افراد الجماعات اليهودية" ، فالعبارة الأولى تعنى ان ثمة حركية يهودية مستقلة هى التى تتحكم فى هجرة اليهود وتدفعهم لها دفعا ، بينما نذهب نحن في هذه الدراسة ، وفى غيرها ، الى ان أفراد الجماعات اليهودية المختلفة خاضعين الى حركيات اجتماعية وتاريخية عامة ، حركيات طرد وجذب لا تختلف ، الا فى حدتها ، عما يخضع له سائر أفراد المجتمع .

ومن المصطلحات التى حاولنا تحاشيها لأنها أعجميه مصطلح « أثينه » ، ومع هذا أخفقنا واضطررنا لاستخدامه ربما بسبب جهلنا بالمعجم العربى أو لأن المصطلح يعبر عن رؤى ليس لها نظير فى تشكلينا الحضارى .

وكلمة «إثنيه » مأخوذة من الكلمة اليونانية «إثنوس » بمعنى قوم أو جماعة لها صفات مشتركة . وتستخدم كلمة « إثنيه » للاشاره لجماعة انسانية لا يربطها بالضرورة رباط عرقى ومع هذا تعتبر نفسها جماعة وتشعر بذلك ولها هوية (إثنية) مشتركة تستند إلى التراث التاريخى المشترك ومعجم حضارى واحد .

وكلمة حضارة هنا تستخدم فى أوسع دلالاتها فهى تشير الى كل فعل انسانى وكل ما هو ليس بطبيعة ، مثل الازياء وطرق تصفيف الشعر وطريقة تنظيم المجتمع والرقص : ومن أهم العناصر الإثنية هى اللغة والأدب ، ويمكن للدين أن يكون عنصرا من ضمن هذه العناصر الإثنية ، فينظر المرء للشعائر الدينية باعتبارها تعبيرا عن

الهوية تماما مثل الرقص والطعام ، دون أن يؤمن بالضروره بالخالق . ويمكن للمرء أن يشير الى «طعام إثنى » بمعنى أنه يعبر عن هويته وليس مجرد طعام لسد حاجته الجسدية ، وبالتالى فالملوخية أو الكبسة طعام إثنى ، أما الهامبورجر فهو طعام ليس له مدلولات إثنية .

ويجب التفريق بين الإثنى والعرقى ، فالهوية التى تستند الى أساس عرقى تعنى وحدة الدم والجنس والأرض لا وحدة التراث والانتماء . والحركة الصهيونية كانت تعتبر اليهود شعبا بالمعنى العرقى ، ولكن بعد أن قام هتلر بإبادة الملايين باسم النظرية العرقية والتفاوت بين الأجناس ، تغيرت الديباجات الصهيونية وأصبح اليهود شعبا بالمعنى الإثنى .

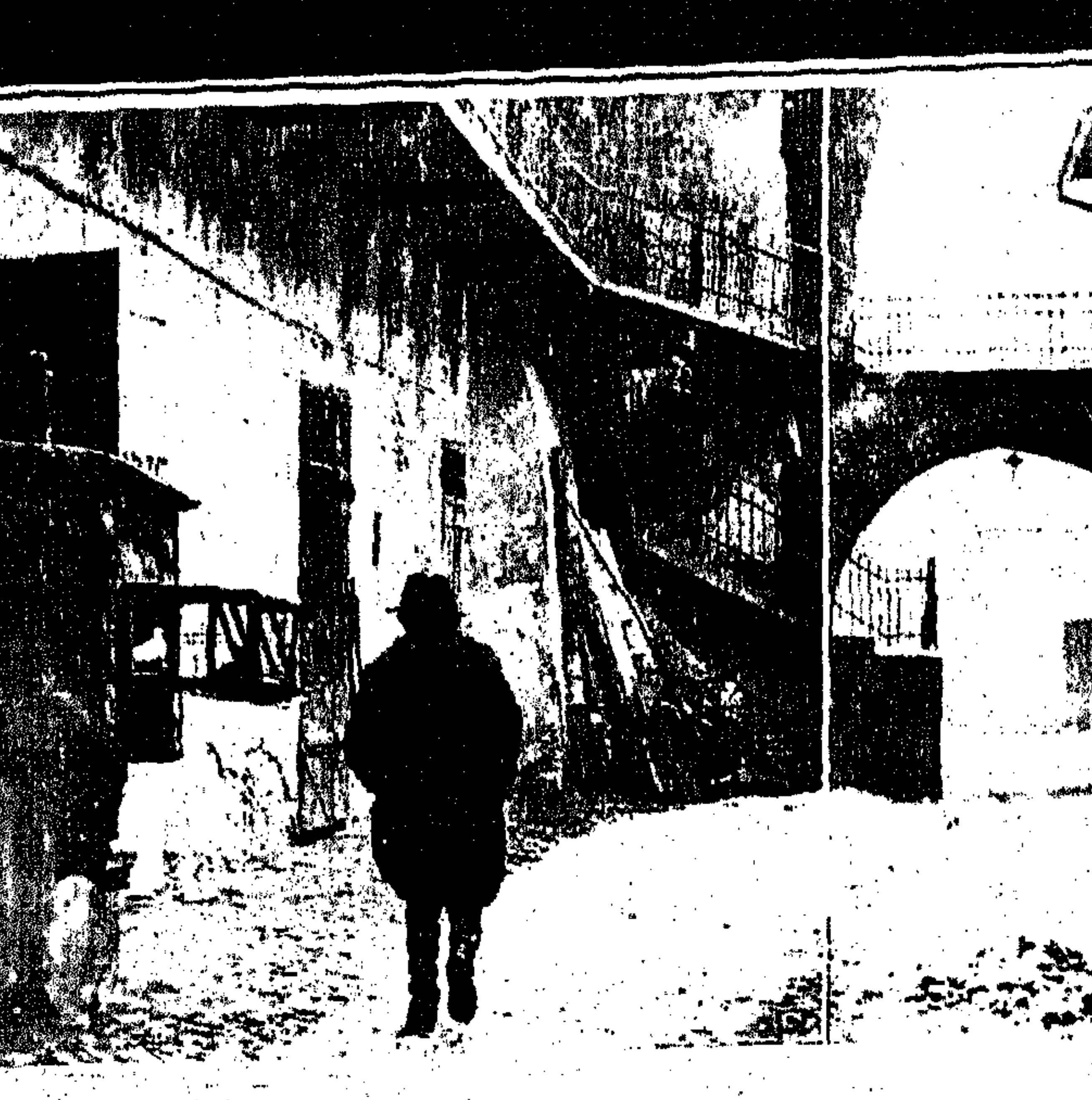
وبعد ـ أرجو الا يقال : « هذا كتاب جيد لأنه اعتمد على آخر المراجع والدراسات ويحوى معلومات قيمة وحقائق كثيرة عن هجرة اليهود السوفيت » ، أو : « هذا كتاب سيىء لأنه لم يعتمد على آخر المراجع والدراسات ولا يضم كل المعلومات والحقائق أو حتى معظمها » فالحاسوب ، هذه الآله المادية الصماء ، هو الذى يضم كل المعلومات والحقائق أو معظمها ، ولكنه مع هذا عاجز تماما عن ربطها أو تفسيرها أو صياغه نماذج تفسيريه ومتتاليات احتماليه ـ فعقل الانسان وحده هو القادر على ذلك . ونحن قد كتبنا هذه الدراسة آملين ألا نقدم الحقائق والمعلومات وحسب ، وانما لنطرح كذلك ، وبالدرجة الأولى ، منهجا فى رصد الواقع وطريقه فى التفكير ، إذ ما يهم ليس كم الحقائق الذى يحشد وانما طريقة النظر

فيها وتحليلها ، وعن طريق الاجتهاد والابداع والحركة يمكن أن تتحول هذه اللحظة التاريخية من لحظة تجديد لحيوية الجيب الصهيوني وشبابه ، عن طريق حقنه بالطاقة القتالية التى يحتاج إليها ، إلى لحظة النزال الأخير معه .

د . عبدالوهاب محمد المسيرى
دمنهور والقاهرة
نوفمبر ١٩٩٠ ـ جمادى الأول ١٤١١

الفصل الأول

الجماعات اليهودية فى التاريخ
اعـدادهم وانمـاط هجـراتهم



أولا : بين الزيادة والنقصان :

لاتوجد حسب معلوماتى دراسة احصائية واحدة باللغة العربية عن تطور عدد أفراد الجماعات اليهودية عبر التاريخ أو أنماط هجراتهم . ولملء هذا الفراغ سنقدم هذه الدراسة السريعة حتى تتحدد كلمة « يهود » فتصبح مصطلحا تاريخيا اجتماعيا لا مصطلحا عجائبيا تحيطه الأسرار ، وحتى نضع هجرة اليهود فى سياقها التاريخى العام . يقال ـ حسب بعض التقديرات التخمينية ـ إن عدد العبرانيين كان حوالى ١,٨٠٠,٠٠٠ ، وإن كان يقال إن هذا عدد مبالغ فيه . وقد تناقص عدد العبرانيين بعد سقوط الهيكل والتهجير ، ولكنه عاد إلى التزايد مرة أخرى حتى وصل (حسب بعض التقديرات) إلى ثمانية ملايين مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، كان يعيش حوالى ٢,٥ مليون منهم فى فلسطين ، و٣,١ ملايين فى كل من سوريا وآسيا الصغرى وبابل ، إذ كانت تضم كل بلد أكثر من مليون يهودى ، أما الباقون فكانوا يوجدون فى أماكن مختلفة . ويبدو أن هذه الأرقام هي الأخرى مبالغ فيها إذ أن ثمة تقدير تخميني يذهب إلى أن عدد اليهود لم يزد على خمسة ملايين ، ويبدو أن زيادة عدد اليهود يعود إلى حركات التبشير والتهويد التى قام بها بعض اليهود الذين رفضوا انغلاق اليهودية وتمركزها حول نفسها ، كما تفسر الزيادة على أساس « الباكس رومانا » أى السلام الرومانى الذى ساد فى المناطق التى تواجد فيها أفراد الجماعات اليهودية .

ولكن مع بداية العصور الوسطى فى الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق فإننا نلاحظ أن عدد يهود العالم انخفض إلى ما بين مليون أو مليونين ، أغلبهم (ما بين ٨٢ ـ ٩٠٪) كان متركزا فى العالم الإسلامى مع نهاية القرن الثانى عشر . ولكن تغيرت هذه الصورة بالتدريج وتناقص عدد اليهود فى الشرق وتزايد يهود العالم الغربى الذين تركزوا أساسا فى بولندا .

وكان عدد يهود أوربا عام ١٣٠٠ م لا يزيد على ما بين ١٠٠ ـ ٣٥٠ ألف (من واقع ٤٤ مليون) ثم تزايد العدد إلى ٦٠٠ ألف عام ١٤٩٠ (من مجموع ٥٣ مليون) . وكان عدد يهود العالم آنذاك يبلغ مليون ونصف ـ أى أن ثلث يهود العالم أصبحوا متركزين فى أوربا . وفى أواخر القرن السابع عشر أنقسم يهود العالم البالغ عددهم مليونين إلى نصفين : مليون سفاردى وشرقى ، ومليون اشكنازى غربى . ومع العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر (١٧٧٠) بلغ عدد يهود العالم ٢,٢٥ مليون غالبيتهم العظمى ـ ١,٧٥ مليون ـ فى أوربا ، منهم ١,٢ فى بولندا وحدها أى أن يهود أوربا أصبحوا أساسا يهود بولندا (ويرى آرثر كوستلر أن هذا يعود إلى هجرة يهود الخزر إليها بعد سقوط دولتهم) .

ولكن بعد انعقاد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ تبدأ فترة جديدة تماما ، إذ حدث انفجار سكانى بين اليهود . فإذا كان عدد اليهود عام ١٨٠٠ هو ٢,٢٥٠,٠٠٠ فقد وصل عشية الحرب العالمية الثانية إلى ١٦,٧٢٤,٠٠٠ وهذا يعنى أنهم زادوا ستة أضعاف فى أقل من ١٥٠ عاما . وفى الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٥ كان عدد اليهود ٣,٢٨٠,٠٠٠ زاد إلى ١٠,٦٠٢,٥٠٠ عام ١٩٠٠ فقد زادوا ثلاثة أضعاف فى خلال ٧٥ عاما .

ويلاحظ أن الزيادة كانت بين يهود العالم الغربى وحسب ، فعدد يهود الشرق لم يزد بل انكمش إلى ٩٠٠ ألف عام ١٨٤٠ و٨٠٠ ألف عام ١٨٦٠ ، ثم زاد إلى ٩٥٠ ألفا ربما بسبب هجرة بعض يهود اليديشية من الغرب أو بسبب تحسن الأحوال المعيشية فى الشرق بشكل عام .

ولكن لم تكن ظاهرة تزايد الأعداد مقصورة على أفراد الجماعات اليهودية ، ففى الفترة نفسها تقريبا من ١٨١٥ ـ ١٩١٤ زاد عدد سكان أوربا من ١٩٠ مليونا إلى ٤٠٠ مليون ، وزاد عدد سكان الولايات المتحدة من ٧,٢٤٠,٠٠٠ عام ١٨١٠ إلى ٩١,٩٧٢,٠٠٠ عام ١٩١٠ . وقد يكون من الممكن تفسير الزيادة فى الولايات المتحدة على أساس الهجرة فهذا هو عصر الهجرة الأوربية (اليهودية وغير اليهودية) الكبرى ، وقد استوعبت الولايات المتحدة حوالى ٨٥٪ من المهاجرين ، أما الزيادة فى أوربا فلا يمكن تفسيرها إلا على أساس زيادة نسبة المواليد وقلة نسبة الوفيات . ومع هذا يلاحظ أن نسبة أفراد الجماعات اليهودية كانت أعلى من النسبة العامة فى أوربا ، ولعل هذا يعود إلى أن أفراد الجماعات كانوا يعيشون تحت الظروف نفسها التى أدت إلى زيادة سكان أوربا ، ولكن كانت توجد ظروف أخرى خاصة بهم وحدهم ساهمت فى رفع نسبة الزيادة بينهم عن النسبة العامة فى أوربا . فعلى سبيل المثال يلاحظ أن تحسن الأحوال الصحية نتيجة للثورة الصناعية فى أوربا قد ترك أثره الايجابى على كل الشعوب والجماعات ، ولكن يبدو أن المستوى الصحى داخل الأحياء اليهودية كان أعلى من

المستوى الصحى العام بسبب الرقابة على اللحوم والأطعمة ويسبب تطبيق قوانين الطعام .

وفى شرق أوربا حيث تركز معظم اليهود كان دخل أفراد الجماعة اليهودية مرتفعا وأسلوب حياتهم أكثر راحة ووفرة من دخل وأسلوب حياة معظم الجماهير الفلاحية ، كما أن أفراد الجماعة كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى أعلى ، وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذى يستهلكونه ، كما أدى الى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية . وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية للغاية من التماسك الناجم عن التمسك بالقيم الدينية والتقليدية تفوق بمراحل تماسك الأسر غير اليهودية ، ويظهر هذا فى احصائيات الأطفال غير الشرعيين حيث كانت نسبتهم بين اليهود أقل من نسبتهم بين غير اليهود أحيانا بدرجة ملحوظة . والعنصران السابقان سويا يسهمان فى تخفيض نسبة الوفيات بين الأطفال كما يشجعان على الانجاب .

ومن أهم العناصر الأخرى التى ساعدت على هذه الانفجارة زواج اليهود فى سن مبكرة للغاية فقد كان من الشائع أن يتزوج الشبان من سن ١٥ ـ ١٨ بفتيات من سن ١٤ ـ ١٦ ، وقد كانت الحكومات القومية فى روسيا والنمسا تلجأ أحيانا الى تحديد سن الزواج وعدد المسموح لهم بالزواج . وحينما كانت تنطلق الشائعات بخصوص القوانين وشيكة الصدور كان يسرع اليهود بتزويج كل صغار السن بينهم قبل صدورها ، وفى احدى الاحصائيات البولندية من القرن الثامن عشر ورد ذكر لزوجة عمرها ثمانى سنوات ، وفى عام ١٧١٢ منعت السلطات فى امستردام زواج طفلين

يهوديين تحت سن الثانية عشرة . ومن العناصر الأساسية التى ساهمت فى تزايد عدد اليهود أنه فى الفترة من ١٨٠٠ ـ ١٩١٤ لم تقع أية حروب فى الأماكن التى يوجد فيها أغلبية يهود العالم ، وحتى معارك نابليون ، فقد وقعت بعيدا عن مراكز التجمع اليهودى . وعلاوة على كل هذا لم يقم الكثير من الدول بتجنيد اليهود ، فروسيا القيصرية لم تبدأ تجنيدهم إلا عام ١٨٢٧ ولم يجندوا فى بولندا حتى عام ١٨٤٥ ، ولا فى الدولة العثمانية حتى عام ١٩٠٨ . أما بخصوص المذابح التى تثرثر عنها المراجع الصهيونية فهى لم يقع ضحيتها سوى بضعة مئات طيلة هذه الفترة .

لكل هذه الأسباب حدثت الانفجارة السكانية ، التى أشرنا لها فى الفترة من ١٨٢٠ ـ ١٨٢٥ ، حيث بلغ عدد يهود العالم ٣,٢٨١,٠٠٠ كان يوجد ٢,٧٣٠,٠٠٠ منهم فى أوربا ، حوالى نصفهم فى روسيا وبولندا ـ أى أن أغلبية اليهود الساحقة كانت فى أوربا وأغلبية هؤلاء من يهود اليديشية .

وفى عام ١٨٥٠ بلغ عدد يهود العالم ٤,٧٥٠,٠٠٠ كان نصفهم تقريبا موجودا فى روسيا وبولندا . وقد قفز هذا العدد قفزة هائلة عام ١٨٨٠ (فترة ظهور الصهيونية بين اليهود) ليصبح ٧,٥٠٠,٠٠٠ أكثر من نصفهم (٥٦,٢٪) فى روسيا وبولندا .

ومما لاشك فيه أن زيادة حجم الكتلة البشرية اليهودية فى العالم الغربى ، وفى روسيا وبولندا على وجه التحديد ، ساهم فى تفاقم أوضاع اليهود الاجتماعية والاقتصادية وهو ما يطلق عليه المسألة اليهودية . وقد قفز عدد اليهود مرة أخرى عام

١٩٠٠ ليصبح ١٠,٦٠٢,٠٠٠ ، وبلغ عشية الحرب العالمية الأولى ١٣ مليونا ، ثم قفز قفزة أخرى وأخيرة ليصل إلى ١٦,٧٢٤,٠٠٠ يهودى عام ١٩٣٩ ، أى عشية الحرب العالمية الثانية ، وهو أكبر عدد بلغه اليهود عبر التاريخ .

ويلاحظ أن الولايات المتحدة ، التى كانت تضم ٤,٩٧٥,٠٠٠ يهودى ، أصبحت منذ ذلك التاريخ مركزا لأكبر جماعة يهودية فى العالم دون منازع . ورغم أن عدد يهود اليديشية كان لايزال ضخما إلا أنهم كانوا موزعين بين ثلاث دول : ٢,٨٢٥,٠٠٠ فى الاتحاد السوفييتى ، ٣,٥٥٠,٠٠٠ فى بولندا ، ٨٥٠,٠٠٠ فى رومانيا ، وقد ظهر الجيب الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين فى ذلك التاريخ . ليضم ٤٧٥,٠٠٠ يهودى فقط .

بعد أن عرضنا للاتجاهات السكانية بين أفراد الجماعات اليهودية ورصدنا أعدادهم المتزايدة التى وصلت إلى الذروة عشية الحرب العالمية الثانية ، يمكننا الآن أن نرصد الاتجاه المعاكس ، وهو تناقص عدد اليهود وهو اتجاه بدا مع نهاية القرن الماضى وإن لم تظهر معالمه إلا مع الحرب العالمية الأولى ، كما لم تتضح نتائجه إلا مع الحرب العالمية الثانية .

ويلاحظ أنه منذ منتصف القرن التاسع عشر واليهود يتحولون إلى جماعة بشرية حضرية تعيش أساسا فى المدن ، وقد هاجرت أعداد كبيرة منهم من المدن الصغيرة إلى المدن الكبيرة وتركزوا فى المراكز التجارية والصناعية فى العالم . ففى عام ١٩٢٥ كان ٢٥,٣٪ من كل يهود أوربا وأمريكا يعيشون فى المدن فى مقابل ٥,٧٪ وحسب من مجمل عدد

السكان . وقد تصاعد هذا الاتجاه فى الفترة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥ . فعشية الحرب العالمية الثانية كان حوالى نصف يهود العالم يعيشوون فى ٤٢ مدينة تضم كل منها حوالى ٥٠ ألف يهودى على الأقل . وإذا أخذنا ضعف هذا العدد ـ أى ١٠٠ ألف ـ أساسا للتصنيف فإننا سنجد أن ستة ملايين يهودى ـ أى ما بين ٣٥ ـ ٤٠٪ من مجمل يهود العالم كانوا مركزين فى عشرين مدينة وحسب .

ومن المعروف أن التركيز فى المدن لا يشجع على الانجاب وأن المدن لم تتمكن فى الماضى (فى روما واليونان القديمة) أن تحتفظ بالعدد المناسب من السكان من خلال التزايد الطبيعى .

وكنا قد أسلفنا أن المنطقة التى تركز فيها اليهود إبان القرن التاسع عشر كانت منطقة لم تدر فيها أية معارك كبرى أو حروب حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن مع الحرب العالمية الأولى تغير الموقف تماما حينما تحولت بولندا وجاليشيا وليتوانيا ورومانيا وسالونيكا إلى مسرح للعمليات العسكرية ، ولم يتوقف الأمر مع نهاية الحرب إذ أصبحت أوكرانيا مسرحا لعمليات عسكرية عديدة التحمت فيها القوات البلشفية مع قوات الروس البيض وانضم الأوكرانيون إلى الفريق المعادى للثورة . وتم الهجوم على أفراد الجماعة اليهودية الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم عملاء البلاشفة ، إذ أن هؤلاء كانوا قد قاموا بوضعهم تحت حمايتهم . وكانت عملية تجنيد اليهود فى القوات المسلحة قد أصبحت أمرا شائعا وقاعدة معمولا بها . وقد بلغ عدد المحاربين اليهود فى

الجيش الروسى والنمساوى والألمانى وقوات الحلفاء نصف مليون يهودى ، يشكلون نسبة مئوية ضخمة من أفراد الجماعات اليهودية ، وسقط منهم العديد من الضحايا فقد قتل ١٢ ألف جندى يهودى ألمانى ، ويمكن لنا أن نتخيل نسبة القتلى بين المقاتلين اليهود فى الجيوش الأخرى . ويجب أن نشير إلى أن هذا العنصر لا ينقص من عدد اليهود مباشرة من خلال الوفاة وحسب وإنما ينقص منه بشكل غير مباشر أيضا من خلال العزوف عن الإنجاب ، ففى مناطق وفترات الحروب والثورات يسود عدم الطمأنينة وتتزايد الحركة ويجد البشر أنه من السخف بمكان احضار طفل لهذه الدنيا .

ومن الظواهر الأخرى التى أدت إلى تناقص أعداد اليهود الزيجات المختلطة ، فبعد الحرب العالمية الأولى كانت ٥٠٪ من كل الزيجات اليهودية فى ألمانيا زيجات مختلطة زادت إلى ٦٠٪ عام ١٩٣٢ . وفى كوبنهاجن ووصلت نسبة الزيجات المختلطة فى الفترة من ١٨٨٠ ـ ١٩٠٥ إلى ٦٨٪ ، أما فى امستردام فقد وصلت النسبة إلى ٧٠٪ عام ١٩٣٠ ، وأدت معدلات الاندماج المرتفعة إلى تزايد الزواج المختلط .

ويلاحظ أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أخذت عملية الاندماج شكل التنصر وكانت نسبة التنصر تتفاوت من بلد إلى آخر ووصلت أعلى نسبة لها فى ألمانيا حيث حقق اليهود أعلى معدلات الاندماج الذى أدى إلى الانصهار .

ولكن فى العصر الحديث يمكن أن ينصهر اليهود دون أن يتنصروا بالضرورة ، ففى الماضى كان على اليهودى الذى يود الهرب من هويته أن يعتنق المسيحية ، أما فى المجتمعات

العلمانية فيمكن لليهودى أن ينكر هويته اليهودية ويتخلى عنها دون أن يضطر لتبنى هوية دينية أخرى . ولعل شيئا من هذا القبيل حدث بين أعداد من المهاجرين الروس إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد ، ونحن نعرف أن كثيرا من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد مزيفة أصدرها الفاتيكان لتسهيل عملية هربهم من الارهاب النازى آثروا أن يبقوا هويتهم المسيحية ولم يعيدوا تأكيد انتمائهم اليهودى حتى بعد أن زال الخطر .

لكل هذه الأسباب تناقص عدد اليهود وتناقص معدل الانجاب بينهم ، وقد بدأ الاتجاه نحو التناقص بين يهود غرب أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر ولكنهم كانوا يشكلون نسبة ضئيلة من يهود العالم ، ولذا لم يؤثر تناقصهم على عدد اليهود الكلى ، إذ أن التزايد بين يهود اليديشيه كان يفوق التناقص بين يهود غرب أوربا ويعوضه .

وكان يهود اليديشية مركزين فيما يسمى الجيب البولندى (الروسى) وهو منطقة أوكرانيا وحولها والتى ضمتها روسيا القيصرية فى بداية القرن التاسع عشر . وكان النازيون يسمون هذا الجيب البنية التحتية البيولوجية للشعب اليهودى إذ أن هذا الجيب هو الذى أفرز الملايين التى استوطنت فى عديد من بلاد أوربا وهاجرت واستقرت فى الولايات المتحدة ، ولذلك حينما ساد الاتجاه نحو التناقص بين يهود اليديشية فإن عدد اليهود الكلى تأثر سلبا بشكل واضح .

المعروف أن أفراد الجماعة اليهودية فى روسيا القيصرية كانوا يتمتعون بواحدة من أعلى نسب الخصوبة والتكاثر بين

شعوب الامبراطورية الروسية ولكن مع عام ١٩٢٦ (أى بعد تسع سنوات من نشوب الثورة) انخفضت هذه النسبة حتى اصبحت اقل الجماعات البشرية (الاثنية او الدينية أو القومية) فى الاتحاد السوفييتى خصوبة وتكاثرا واصبحت نسبة التزايد بينهم أقل النسب على الإطلاق ، إذ وصلت إلى ٢٤,٨ فى الألف بعد أن كانت ٣٥,٩ فى الألف ـ فى وقت ظلت نسبة التكاثر بين الجماعات القومية الأخرى عالية ووصلت إلى ٤٣,٦٥ فى الألف ـ مما يعنى أن هناك فارقا قدره ١٩,٥٧ بين نسبة زيادة شعوب الاتحاد السوفييتى وأفراد الجماعة اليهودية .

وقد ساد الاتجاه نفسه فى بولندا فنسبة المواليد فى وارسو انخفضت من ٢٨,٦ فى الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ عام ١٩٢٥ . وفى لودز انخفضت نسبة المواليد بين اليهود خلال سبعة أعوام إلى ١١,٦ فى الألف ، وفى جاليشيا كانت الاحصاءات درامية إذ كانت نسبة المواليد بينهم من أعلى النسب فى أوربا مع بداية القرن الحالى إذ وصلت إلى ٣٨,١٦ مالبثت أن انخفضت إلى ١٩,٣ عام ١٩٣٤ أى حوالى ٥٠٪ . وكانت نسبة المواليد بين يهود المجر ٣٣,٩١ فى الألف فى بداية القرن الحالى فانخفضت إلى ١٠,٥ فقط أى أنها انخفضت بنسبة ٢٣,٤ أى حوالى ٦٦٪ . وفى رومانيا كانت نسبة المواليد بين اليهود ٣٢,٦ فى الألف عام ١٩٠٠ ، ومع عام ١٩٣٤ انخفضت النسبة إلى ١٤,٨ فى الألف . وفى بروسيا كانت نسبة المواليد ١٩,٤٨ فى الألف انخفضت إلى ٥,٢ عام ١٩٣٥ أى بنسبة ١٤,٢٨ . وبلغت نسبة المواليد ٢ فى الألف فى لندن عام ١٩٣٢ .

وينظر آرثر روبين إلى ظاهرة تناقص المواليد من منظور عالمى ، أى ينظر إلى كل يهود العالم فيلاحظ أن نسبة المواليد بينهم عام ١٨٣٢ (ويبدو أن هذا هو عام الذروة للانفجار السكانى) كانت ٣٥,٥ فى الألف انخفضت إلى ٢٣,٧ بين عامى ١٨٨٨ ـ ١٨٩٢ ثم هبطت إلى ١٤,٦ فى الألف عام ١٩٢٤ لتصل إلى ٩,١ فى الألف عام ١٩٢٩ ـ أى أن نسبة المواليد بين اليهود عام ١٩٢٩ كانت أقل من ربع نسبتهم فى حوالى قرن .

ويلاحظ روبين كذلك أنه فى خلال خمسة وعشرين عاما (١٩٠٥ ـ ١٩٣٠) هبطت نسبة الزيادة من ١٨ إلى ٨ فى الألف ، وأن التقدم الذى أحرزه اليهود فى ١٥٠ عاما (١٧٥٠ ـ ١٩٠٥) فقد فى خلال خمسة وعشرين عاما .

وقد لاحظ يوريا انجلمان فى كتابه ظهور اليهود فى العالم الغربى ١٩٤٤ أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأنه فى شرق أوربا وجنوب شرق أوربا (دول البلقان وربما النمسا) وصلت معدلات المواليد بين اليهود خط الخطر قبل العدوان النازى . وقد حذر فيلكس ثايلهابر عام ١٩٠٨ من اختفاء اليهود الألمان ومما سماه الضعف السكانى ، وبين أنه إن لم يوقف هذا الاتجاه فإن يهود ألمانيا (دون هجرة من الخارج) سيختفون تماما .

وبالفعل نجد أن عدد الوفيات بين يهود بودابست (حيث كان يعيش نصف يهود المجر) زاد عن عدد المواليد بـ ١٥٠٧ عام ١٩٣١ و١٤٦٩ عام ١٩٣٢ . واستمر هذا النمط

حتى الحرب العالمية الثانية . والشىء نفسه فى بروسيا حيث فاق عدد الوفيات عدد المواليد بمقدار ٩٠٢ عام ١٩٣١ وزاد الفارق بينهما ٢٣٩٩ عام ١٩٣٢ و٣٤٨٠ عام ١٩٣٥ . وفى عام ١٩١٦ سجلت الجماعة اليهودية فى برلين ٤٩٤ مولودا فى مقابل ٢٤٨٣ حالة وفاة أى أن الوفيات بلغت خمسة أضعاف المواليد . وفى عام ١٩٣٩ كانت المسألة مخيفة ـ فمن مجموع سكان برلين البالغ عددهم ٩٠ ألفا سجل ستة مواليد وحسب طيلة العام فى مقابل ١٩٤٤ حالة وفاة ـ أى مولود واحد لكل ٣٢٤ حالة وفاة . ولم يكن الأمر مختلفا فى فيينا حيث كان يعيش ٩٢,٩٪ من يهود النمسا ، فمعدل المواليد كان آخذا فى الانخفاض لمدة عشرة أعوام . وفى عام ١٩٣٦ سجل فى فيينا ٦٧٣ مولودا يهوديا فى مقابل ٢٠٦١ حالة وفاة . ويقول يوريا انجلمان تعليقا على الاحصائيات السابقة « إن العملية ذات الأبعاد الثلاثة ـ تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج ـ إن لم توقف ستؤدى فى النهاية إلى التفسخ الكامل للسكان اليهود ، وأكبر دليل على أن هذا ليس مجرد افتراض هو تجربة السكان اليهود فى فيينا وبودابست وبرلين وهامبورج وباريس ولندن وبادوا وتريسته ومدن أخرى » .

وأبان الحرب العالمية الثانية وصلت هذه الاتجاهات إلى ذروتها إذ زادت حركة أفراد الجماعات اليهودية واضطر كثير منهم إلى اخفاء هويته اليهودية ، كما أن ظروف الحرب لم تشجع كثيرا على القيام بالأفعال الإنسانية العادية مثل الزواج والانجاب . كما أن عددا كبيرا من اليهود فقدوا حياتهم بسبب الجوع والمرض .

وقد استمر هذا الاتجاه نحو التناقص الأمر الذى حدا بعلم الاجتماع المعاصر أن يتحدث عن « موت الشعب اليهودى » . ولاتزال نسبة المواليد بين اليهود منخفضة للغاية وتصل إلى واحدة من أقل النسب فى العالم . فمعدل انجاب المرأة اليهودية فى الولايات المتحدة هو ١,٥ مولود ـ مما يعنى أن الجماعات اليهودية فى الغرب غير قادرة على إعادة إنتاج نفسها ، وليس من المتوقع أن يتغير هذا الاتجاه إذ من الملاحظ تزايد نسبة الزواج المختلط وتفسخ الأسر اليهودية وتزايد نسبة الطلاق . كما أن ارتفاع معدلات العلمنة يؤدى إلى تفشى قيم المنفعة واللذة وهى قيم تتناقض مع الانجاب ، بكل ما يتضمن ذلك من تقييد للحرية وتخل عن المتعة الحسية المباشرة . ومن أكبر المؤشرات على تفاقم هذا الاتجاه هو تزايد المسنين (فوق سن الستين) ليبلغ أحيانا حوالى ٢٦٪ . ورغم أن هذه ظواهر تسم كل المجتمعات التى يقال لها متقدمة ، إلا أنها أكثر حدة بين أفراد الجماعات اليهودية .

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت الصورة السكانية التى لاتزال سائدة حتى الآن ، فالولايات المتحدة أصبحت هى وطن اليهود بلا منازع (٥ ملايين يهودى عام ١٩٤٨ و٥,٨٧٠,٠٠٠ عام ١٩٦٧) من مجموع يهود العالم البالغ عددهم ١١,٣٧٣,٠٠٠ عام ١٩٤٨ ، و١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧ ـ أى أن نصف يهود العالم تقريبا يوجد فى الولايات المتحدة . وبلغ عدد اليهود فى البلاد الاستيطانية ٩,٥٨٣,٠٠٠ (٦,٩٥٢,٠٠٠ فى الأمريكتين و٢,٤٣٦,٠٠٠ فى فلسطين (إسرائيل) و١١٥ ألفا فى جنوب افريقيا

و٥٥٠٠ في روديسيا و٧٥ ألفا فى استراليا ونيوزيلندا) أى أن أعضاء الجماعات اليهودية انتقلوا من أوربا حيث كانوا متركزين حتى أواخر القرن التاسع عشر إلى الدول الاستيطانية خاصة الولايات المتحدة وإسرائيل ، مع احتلال الولايات المتحدة لمركز الصدارة . أما يهود اليديشية (الذين كانوا قد فقدوا شخصيتهم اليديشية ، ولذا فنحن نسميهم اليهود السوفييت ويهود بولندا وهكذا منذ الحرب العالمية الأولى) فقد إنكمش عددهم ولم يبق منهم إلا ٢ مليون (١٩٤٨) فى الاتحاد السوفييتى زاد عددهم إلى ٢,٦٥٠,٠٠٠ عام ١٩٥٩ وهم بذلك يكونون أكثر من نصف يهود أوربا فى ذلك الوقت . ولا توجد جماعات يهودية كبيرة إلا فى انجلترا ٤١٠ آلاف وفرنسا ٥٣٥ الفا (١٩٦٧) .

ويلاحظ أن معظم هذه الأرقام (حتى عام ١٨٠٠) تخمينية إلى حد كبير لتصبح تقريبية حتى عام ١٩٠٠ ، ولكنها بعد ذلك التاريخ أخذت تخضع للأهواء المذهبية ، ولعل هذا قد يفسر بعض التناقضات فى الأرقام التى أوردناها وبعض الفجوات . ومن أكبر الأمثلة على التحيز المذهبى فى المراجع الصهيونية هو اسقاطها الحديث عن يهود الخرز وعن هجرتهم لبولندا إذ أن هذا يثير قضايا عديدة عن مدى « سامية » اليهود وعن هويتهم العرقية والاثنية و« حقوقهم الأزلية » . كما أن المراجع التى نشرت حتى عام ١٩٤٣ قبل ظهور الرقم ٦ ملايين يهودى الذين راحوا ضحية الإبادة النازية ، تختلف فى تقديراتها عن تلك التى ظهرت فى الستينيات بعد ترسخ هذا الرقم السحرى .

وحتى تكتمل هذه الدراسة يمكننا أن نذكر عدد اليهود فى العالم فى الوقت الحالى .

فطبقا لاحصاءات عام ١٩٨٧ (Zionist Year Book 1987) يقدر عدد سكان العالم من اليهود بحوالى ١٣ مليون (١٢,٩٣٤,٦٠٠) وهو يقل حوالى مليون يهودى عن عددهم عام ١٩٦٧ (١٣,٨٣٧,٥٠٠) أى أن عدد اليهود نقص حوالى مليون نسمة فى عشرين عاما دون إبادة وإنما من خلال تناقص طبيعى .

ويلاحظ أن الجماعات اليهودية أصبحت مركزة فى بلاد استيطانية يتمتع أهلها بمستوى معيشى مرتفع وينتمون إلى الجنس الأبيض .

ويلاحظ أن عدد يهود الاتحاد السوفييتى حسب هذا المصدر الصهيونى هو ١,٦٣٠,٠٠٠ . وقد استشرت عدة مراجع أخرى من بينها الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica ، والمرجع السنوى الذى يصدره معهد الشئون اليهودية فى لندن بالاشتراك مع دار ماكميلان للنشر وعنوانه : The Jewish Communities of the World والذى قام أنتونى ليرمان بتحريره ورجعت لآخر طبعة وهى طبعة عام ١٩٨٩ ، وكل هذه المراجع تؤكد رقما قريبا من الرقم الذى ذكرناه (يذكر المرجع الأخير على سبيل المثال ١,٨١٠,٧٨٩) أما رقم ٢ مليون فلم يرد فى أى من المراجع التى اطلعت عليها .

كما يلاحظ أنه يوجد ثلاث دول فقط يزيد فيها عدد اليهود على مليون (الولايات المتحدة وإسرائيل والاتحاد السوفييتى) . ولا يوجد إلا فرنسا يزيد فيها عدد اليهود على نصف مليون . أما انجلترا وكندا والأرجنتين فالعدد يزيد قليلا عن ربع مليون . وتضم كل من البرازيل وجنوب أفريقيا حوالى

١٠٠ ألف ، أما بقية دول العالم فتضم جماعات يهوديه صغيرة للغاية (المكسيك ٣٥ ألف ، بلجيكا ٣٢,٥٠٠ ، ايطاليا ٣٢ ألف ، أورجواى ٣٠ ألف ، رومانيا ٣٠ ألف) . ولا يمكن أن نتحدث عن وجود يهودى فى الهند (٤٣٠٠) أو اليونان (٥ آلاف) أو النرويج (٩٥٠) أو بولندا (٤٨٠٠) أو حتى تشيكوسلوفاكيا (٦ أو ١٢ ألف) .

ثانيا : هجرات افراد الجماعات اليهودية

بعد هذا العرض التاريخى السريع للواقع السكانى للجماعات اليهودية فى العالم يمكننا أن نتناول موضوع هجرة أفراد هذه الجماعات .

وتصر التواريخ الصهيونية والمعادية لليهود ان تنسب لليهود صفة واحدة لاتتغير ، وكأنها نابعة من داخلهم ، وهى صفة الهجرة المستمرة . فتذهب هذه التواريخ إلى أن افراد الجماعات اليهودية لا يستقرون فى وطن واحد فهم دائمو التنقل والترحال والهجرة . وتجرد التواريخ الصهيونية هذه السمة وتعتبرها سمة مطلقة يتصف بها جميع اليهود . ولكننا لو درسنا سلوك أفراد الجماعات اليهودية الفعلى فإننا سنكتشف أن الهجرة ليست سمة مطلقة لهم ، بمعنى أنها لا تنطبق على « اليهود » اينما وحيثما وجدوا . فالجماعة اليهودية فى أثيوبيا المسماة بالفلاشاه مكثت مئات السنين فى موطنها لا تتحرك منه ولا تغادره ، ولم تهاجر منه إلا فى الثمانينيات حينما قامت الدولة الصهيونية بتهجير اعضائها (فى ظروف المجاعة فى افريقيا) لتحرز انتصارا مذهبيا أمام

يهود العالم وتظهر مرة أخرى بمظهر الدولة التى تنقذ اليهود . كما أن يهود بابل (العراق) ظلوا فى موطنهم منذ الألف الأولى قبل الميلاد حتى عام ١٩٥١ حينما قام العملاء الصهاينة المتخفون بإلقاء المتفجرات عليهم ليبثوا الرعب فى قلوبهم ولا يهامهم أن حياتهم تحفها المخاطر . أما اليهود الذين هجروا إلى أشور (أسباط إسرائيل العشرة المفقودة) فيبدو أنهم انصهروا تماما واختفوا .

ومع هذا يمكن القول إن سمة التنقل والهجرة تسم يهود الغرب منذ العصور الوسطى فهم الذين خضعوا لعمليات الطرد والتهجير والتوطين . ولعل عملية التنقل هذه تعد سببا ونتيجة فى ذات الوقت لارتباط اليهود بحرفتى التجارة والربا كجماعة وسيطة فى التشكيل الحضارى الغربى . فالجماعة الوسيطة جماعة لا جذور لها فى المجتمع تعيش فى مسامه ، وهى دائما على أهبة الرحيل لأن المجتمع يبقيها بمقدار نفعها وبمقدار اضطلاعها بوظيفتها . ولذا فأعضاء الجماعة الوسيطة دائمو التنقل لا يشتغلون بالأعمال الزراعية ولا بالأعمال الإنتاجية التى تتطلب الاستقرار ، ومع ظهور طبقات تجارية محلية والدولة القومية الحديثة ـ وكلاهما اضطلع بوظائف اليهود الوسيطة ـ زادت عمليات الطرد وبالتالى التنقل . ويمكن القول إن صورة « اليهودى التائه » ـ رغم ايحاءاتها الدينية والعنصرية المختلفة ـ تضرب بجذورها فى عملية التنقل هذه .

ويجب الإشارة إلى أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على اليهود وإنما تتسم بها كل الجماعات الوسيطة ، بل وكل

الجنس البشرى ، والتنقل مسألة إنسانية لها آلياتها وحركياتها التاريخية والإنسانية المفهومة .

وإذا نظرنا إلى أهم فترتين تنقلت فيهما أفراد الجماعات اليهودية ـ وهما المرحلة العبرانية ثم المرحلة الحديثة فى أوربا من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ـ فسنكتشف أن العبرانيين وأفراد الجماعات اليهودية كانوا يشكلون جزءا من كل أكبر . فالعبرانيون كانوا جزءا من جماعات سامية ضخمة كانت تتحرك فى الشرق الأوسط القديم ابتداء من الألف الثانية قبل الميلاد تضم الخابيرو والاخلامو والاراميين والهكسوس وغيرهم . ونحن نسمى هذه المرحلة بالمرحلة السديمية السامية لأن معالم الأشياء لم تكن واضحة ولأن القبائل والأقوام المهاجرة المتنقلة كانت متداخلة . كما شهدت مرحلة الامبراطوريات الكبرى (البابلية والآشورية ثم الفارسية واليونانية والرومانية) بدايات الهجرة التى تعاظمت بالتدريج مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد حتى زاد عدد اليهود خارج فلسطين عن عددهم داخلها . ويبدو أن الهجرة اليهودية تتعاظم داخل إطار الامبراطوريات التى تيسر لهم حرية الحركة .

وهجرة يهود شرق أوربا من يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة وكندا وفلسطين وغيرها من الدول الاستيطانية بأعداد هائلة هى أيضا هجرة تتم داخل إطار امبراطورى ، فهى هجرة تتم داخل التشكيل الاستعمارى الغربى وتجربته الاستيطانية فى أنحاء العالم والتى بدأت فى القرن السابع عشر وزادت حدتها فى أوائل القرن التاسع عشر ووصلت ذروتها فى أواخره . واستمرت بعد ذلك وبدأت تخبو بعد

الحرب العالمية الثانية (مع توقف الانفجارة السكانية فى الغرب) . وقد هاجر من سكان أوربا حوالى ٦٥ مليون فى قرن ونصف (١٨٠٠ ـ ١٩٥٠) من بينهم الايطاليون والايرلنديون والألمان وكثير من سكان شرق أوربا ومن بينهم أيضا أفراد الجماعات اليهودية . وقد هاجر إبان هذه الفترة ٤ ملايين يهودى أى ٦٪ من كل المهاجرين بينما كانوا لا يشكلون إلا ١,٥ و٢٪ من سكان أوربا أى أن معدل الهجرة بين اليهود كان أربعة أضعاف المعدل السائد فى العالم .

كانت الهجرة اليهودية فى الماضى تأخذ شكل التقهقر من المناطق المتقدمة إلى المناطق الأقل تقدما ، من الشرق القديم إلى أوربا باعتبار أنها كانت من أكثر المناطق تخلفا فى العالم . وفى أوربا نفسها فى العصور الوسطى أخذت الهجرة شكل التحرك من انجلترا وفرنسا إلى ألمانيا ومنها إلى شرق أوربا أكثر المناطق تخلفا . ولكن ابتداء من القرن السابع عشر أخذت الهجرة شكلا مغايرا وهو الهجرة من الأماكن الأقل تقدما إلى الأماكن الأكثر تقدما ، من شرق أوربا إلى وسطها وإلى انجلترا والولايات المتحدة . وإذا كان هذا هو نمط الهجرة فالولايات المتحدة تصبح منطقيا هى نقطة الجذب المطلقة وهذا هو الوضع القائم حتى الوقت الحالى .

وقد ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن للأسباب التالية :

١ ـ تشكل الولايات المتحدة أهم التجارب الاستيطانية

الغربية وأكثرها نجاحا ، وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوربا يبلغ أكثر من ٨٥٪ .

٢ ـ الولايات المتحدة قامت كدولة علمانية لم تلتزم قط بأى تقاليد أو حتى رموز دينية ، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين وأمركتهم وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها (على عكس أمريكا اللاتينية التجربة الاستيطانية الأخرى ، التى احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالى استبعدت البروتستانت واليهود) .

٣ ـ كان اليهود يشكلون جماعة وسيطة يعملون بالتجارة والمال وبالتالى لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين . والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ، ولذا فهو مجتمع له جاذبيه خاصة بالنسبة للمهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دوفنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون إلى الولايات المتحدة وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

وقد كان هناك موجات هجرة يهودية مختلفة خلال القرن التاسع عشر وقد أخذت اعداد المهاجرين تتزايد ووصلت الهجرة إلى قمتها فى مرحلة الهجرة اليهودية (وغير اليهودية) الكبرى والتى بدأت عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث فى روسيا وتزايد العنصرية فى كل أوربا وانتهت عام ١٩٣٩

بصدور القوانين التى حدث من هجرة يهود شرق أوربا ، عام ١٩٢٤ ، ثم الكساد الاقتصادى وإغلاق أبواب الهجرة تماما من روسيا .

وقد بلغ عدد المهاجرين فى هذه الفترة ٤ ملايين حسب الموسوعة اليهودية ، بينما يذهب آرثر روبين الى أن العدد أكبر من ذلك فهو يرى أنه فى الفترة من ١٨٨١ الى ١٩٣٠ هاجر حوالى ٣,٩٧٥,٠٠٠ . فإذا أضفنا رقم ٥٠٧,٨٤٥ وهو عدد المهاجرين من ٣١ ـ ١٩٣٩ حسب ليستشنكى فان العدد الكلى يصبح ٤,٤٨٢,٨٤٥ .

ولعل الدافع الأكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محاولات التحديث فى روسيا ، ثم توقفها تقريبا ، وهو تعثر عبر عن نفسه على شكل الاضطهاد الروسى القيصرى ضد جميع الأقليات فى الامبراطورية الروسية ولذا هاجرت أعداد كبيرة من يهود الامبراطورية الروسية خارجها بحثا عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعى وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية . كانت الغالبية الساحقة للمهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية (خاصة من روسيا) الذين كانوا يشكلون ما بين ٧٠ ـ ٨٠٪ من كل يهود العالم ، وقد كان عددهم ١٠ ملايين تقريبا مما يعنى أن نصفهم تقريبا أى واحدا من كل اثنين كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وهذه نسبة عالية للغاية ، ولاشك فى أنها ساهمت فى تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر .

وهاجر معظم اليهود فى الفترة الزمنية ١٨٨١ ـ ١٩١٤ (خاصة الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩١٤) حيث بلغ عدد المهاجرين

٢,٧٥٠,٠٠٠ حسب الموسوعة اليهودية ، فإن خصمنا ٣٥٠ ألفا هاجروا داخل أوربا نجد أن عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة وصل الى ٢,٤٠٠,٠٠٠ ، بمعدل هجرة سنوية تصل الى ١٣٥ ألفا . وتعد سنة الذروة هى ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ عندما هاجر ٢٠٠ ـ ٢٥٠ ألفا فى ذلك العام وحده . وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فان الولايات المتحدة كانت هى نقطة الجذب الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التي أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه ، وقد بدأت فى هذه الفترة تجربتها الامبريالية فى أمريكا اللاتينية والفلبين وكانت فى حاجة ماسة للأيدى العاملة التى لم يكن من الممكن تجنيدها خلال الزيادة الطبيعية (وبعد ابادة السكان الأصليين) . ولم تستوعب الولايات المتحدة ٨٥٪ من المهاجرين اليهود وحسب وانما استوعبت النسبة نفسها تقريبا من كل المهاجرين فى العالم ، ولا توجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود الى الولايات المتحدة الا ابتداء من عام ١٨٩٩ . وقد هاجر خلال ١٦ عاما (١٨٩٩ ـ ١٩١٤) حوالى ١,٥٠٠,٠٠٠ يهودى من روسيا .

توقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الأولى ولكن فتحت أبواب الهجرة مرة أخرى عام ١٩١٤ ، وكان عدد المهاجرين فى البداية ضئيلا ثم بدأ فى الازدياد الى أن وصل الى الذروة عام ١٩٢١ ثم انخفض فى عام ١٩٢٢/١٩٢٣/١٩٢٤ بسبب نظام النصاب .

ويجب التنبية الى أن الفترة هذه هى أيضا فترة ظهور

الصهيونية ونشاطها ، ولابد من أن ندرك أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة هذه كانت مصدر قلق لكل من الدول الغربية لخوفها على أمنها الداخلى وليهود الغرب المندمجين لاحساسهم أن وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية .

وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيونى من مخاوفهم هذه ومن هنا تبنيهم لما نسميه بالصهيونية التوطينية ، أى حينما يقرر أحد يهود العالم الغربى الا يهاجر من وطنه ، ومع هذا يسعى سعيا حثيثا لارسال اليهود الآخرين الى فلسطين . ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بانجلترا التى اتجه اليها حوالى ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود فى الفترة من ١٨٨١ ـ ١٩٣٥ . وقد كان لوصولهم أثره فى إثارة قلق السلطات البريطانية ، وظهرت المحاولات الرامية الى تحويل تيار الهجرة اليهودية عن انجلترا ابتداء بمشروع شرق افريقيا لانشاء دولة صهيونية هناك مرورا بقانون الأجانب عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود اليها (الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه) ، وانتهاء بوعد بلفور الذى حول فلسطين الى أرض يلقى فيها « بالفائض البشرى اليهودى » ، كما كان يطلق على المهاجرين اليهود آنذاك .

ونلاحظ أن عدد المهاجرين الى فلسطين فى بداية الفترة كان ١٨٠٦ ، ولكنه زاد إلى ٨١٧٥ عام ١٩٢٣ بعد فتح أبواب الهجرة وانشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية المختلفة . وقد قفز العدد الى ١٣,٨٩٢ عام ١٩٢٤ . وشهدت

الفترة من ١٩٢٥ ـ ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الراسمالية العالمية مما أدى الى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها ، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ماتسمح به مقدرتها الاستيعابية . ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب افريقيا واستراليا . وأدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين إلى الحد من الهجرة الاستيطانية ولكنها مع ذلك ظلت مفتوحة الأبواب ، ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية الحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التى أصدرت أولا قانون النصاب عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون عام ١٩٢٤ ، وحسب هذا القانون كان لا يسمح إلا بهجرة عدد يساوى نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى الولايات المتحدة حسب احصاء عام ١٨٩٠ . وقد عرفت المجموعة القومية بالنسبة للبلد الأم وليس بالنسبة للانتماء الدينى أو الاثنى ، وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠٣٤١ فى مقابل حوالى ٥٠ الفا فى عام ١٩٢٤ و١٥٣,٧٤٨ عام ١٩٠٦ . وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من كل المهاجرين اليهود (فى الفترة من ١٨٨١ ـ ١٩١٤) انخفضت النسبة الى ٢٥٪ فى الفترة ١٩٢٦ الى ١٩٣٠ . كما أغلقت كثير من البلاد أبوابها فى وجههم . وكما يقول روبين أصبحت كل البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٣ ، ولم تفتح أمامهم سوى فلسطين المستعمرة اى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية ، أى بنية قانونية وظروفا موضوعية تفرض على اليهود الهجرة الى فلسطين شاءوا أم أبوا (كما تفعل الولايات المتحدة مرة

أخرى في الوقت الحالي) . وبالفعل زادت الهجرة من ٤,٠٠٠ عام ١٩٣١ الى ١٢,٥٥٣ عام ١٩٣٢ الى ٣٧,٣٣٧ عام ١٩٣٣ فكأن عنصر الطرد من الولايات المتحدة لا الجذب الى أرض الميعاد هو الذى حدد مسار الهجرة . ومع هذا يلاحظ أنه في الفترة من ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ حينما كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحا هاجر ٧٢,٣٨٧ إليها من مجموع المهاجرين اليهود ١٧٢,٩٠٨ اى ٤٢٪ بينما لم يهاجر سوى ١٠,١٧٩ الى فلسطين فى الفترة نفسها .

ويمكن أن تسمى المرحلة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨ المرحلة النازية ، ورغم تباكى الدول الغربية على مصير اليهود فان معظمها أوصد بابه دونهم . كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من عقيدتها التى تدعو الى توطين اليهود فى فلسطين ، وفلسطين وحسب ، ومن هنا جهود الصهاينة المكثفة لافشال مؤتمر افيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورفض أى عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ما نسميه بالصهيونية البنيوية . وقد بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا النازية والبلاد المهيمن عليها من قبل النازيين ومن كل أوربا ٥٧٠ ألفا (لا يضم هذا العدد عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفييتى أبان الحرب لانقاذهم وعشرات الألوف الذين لجأوا للاتحاد السوفييتى فرارا من النازية) . وقد هاجر ٢٥٠ ألفا (أى ٤٦٪) منهم الى فلسطين بسبب سياسة اغلاق الأبواب ، وهاجر الباقون ٢٩٠ ألفا الى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة (١١٠ آلاف) أى ٢٠٪ . وهاجر فى الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٨ ٣٠٠ ألف يهودى هاجر ١٢٠ ألفا (أى ٤٠٪) منهم الى فلسطين والباقون ١٨٠ ألفا (أى ٦٠٪)

هاجروا الى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة اذ هاجر لها ١٢٥ ألفا أى ٤٢٪ . وهكذا أصبحت الولايات المتحدة مرة أخرى بلد الجذب الأكثر ، حتى أثناء سنى الحرب والابادة النازية .

ويمكننا القول إن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ ليهود أوربا ، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر ـ يمكن أن نضيف لهم مئات الألوف من المهاجرين الى الاتحاد السوفييتى ـ لم يهاجر الى فلسطين إلا ٣٧٠ الفا أى أنه رغم شراسة الصهيونية البنيوية ولا انسانيتها الا أن مسار الهجرة لم يتجه لفلسطين .

وبانتهاء الأربعينيات اصبحت الكتلة اليهودية الكبرى موجودة فى الولايات المتحدة ، وثمة كتلة أخرى فى أوربا ولكنها كانت آخذة فى التناقص ، مع وجود أقليات متناثرة فى أنحاء العالم ، اضافة الى الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين (اسرائيل) . وأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة افراد الجماعات اليهودية هما الولايات المتحدة واسرائيل (فلسطين) . وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلده . ومع هذا تشكل دول أخرى مثل استراليا وفرنسا جاذبيه خاصة بالنسبة لبعض المهاجرين اليهود .

ويمكن أن نضيف بعدا آخرا يساعد على توجيه هجرة أفراد الجماعات اليهودية أساسا للولايات المتحدة واسرائيل (فلسطين) وهو ميراث الجماعات اليهودية كجماعة وسيطة

وتركز أعضائها فى قطاعات المال والتجارة . فهذا يعنى تأثرهم السلبى بالثورات القومية والاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات فتؤممها أو تحاول صبغها بصبغة قومية وتتدخل فيها مما يقلل فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكننا فى واقع الأمر أن نفهم حركة هجرة أفراد الجماعات اليهودية فى العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين : الحراك الاجتماعى وميراث الجماعة الوسيطة ، باعتبارها هجرة الى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسى من بلاد الاقتصاد الاشتراكى والفقر والثورات القومية والاشتراكية .

١ ـ فمثلا يمكن فهم الهجرة من الاتحاد السوفييتى حتى عام ١٩٩٠ باعتبارها تعبيرا عن ضيق يهود الاتحاد السوفييتى بالنظام الاشتراكى الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى . كما يمكن تفسير ظاهرة التساقط بين اليهود السوفييت فى الاطار نفسه . والمتساقطون ، فى المصطلح الصهيونى ، هم هؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم سيذهبون إلى إسرائيل ، وطنهم القومى المزعوم ، ولكنهم بعد خروجهم يولون وجوههم شطر الولايات المتحدة . هؤلاء المتساقطون يفضلون الهجرة الى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى ، بينما لا تشكل اسرائيل (فلسطين) أى جاذبية بالنسبة لهم ، وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة الى اسرائيل فمثل هذه الهجرة حققت لهم قسطا من الحراك الاجتماعى ، خاصة وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل الى ٩٠٪ ـ لأن مستواهم المعيشى مرتفع .

٢ ـ ويمكن فهم هجرة يهود ايران وخروجهم بأعداد هائلة داخل اطار قيام الثورة الايرانية فيها ، فيهود ايران ظلوا يمارسون نشاطهم فيها تحت حكم الشاه وتم خروجهم بأعداد هائلة بقيام الثورة الايرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لا تتفق مع معايير الاقتصاد الحر . وفى كوبا كانت توجد جماعة يهودية ، ولكن حينما نشبت الثورة الاشتراكية هناك انخفض العدد الى العشر على الرغم من أن الحكومة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ولم تقف فى طريق النشاط الصهيونى ولم تسىء معاملة اليهود على الاطلاق (باعتراف المراجع الصهيونية) . والشىء نفسه بالنسبة ليهود شيلى الذين تركوها حينما وصل الليندى بتوجهه الاشتراكى الى الحكم ، وعادوا لها مع بينوشيه . فارتباط أفراد الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط انتاجى معين وبعقلية تجارية محددة جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد ، فهم « ضحايا التأميم » كما ورد فى « الموسوعة اليهودية » ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى أمريكا اللاتينية يلاحظ زيادة هجرة أفراد الجماعات . والوضع نفسه ينطبق على يهود جنوب افريقيا فمع تزايد ثورات السود يتجه أفراد الجماعة الى الولايات المتحدة .

٣ ـ ولعل أسباب هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات يعود الى مركب من الأسباب منها قيام الدولة الصهيونية وما خلقته من مشكلات لليهود العرب ، ومنها كذلك ارتباط عدد كبير من أفراد الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ، ولكن مما لا شك فيه أن التحول البنيوى الذى

خاضته بعض المجتمعات العربية مثل المجتمع المصرى والمجتمع السورى وقيام تجارب تنموية تحت اشراف الدولة قد ساهم بشكل عميق فى عملية خروج اليهود التى لا يمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن « خروج » جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الايطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطعوا التكيف مع اجراءات التمصير والتعريب والتأميم . الى فضل هذا تحقق اسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطا من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد العربية أقل منه فى اسرائيل ، كما أن يهود البلاد العربية لم يكن عندهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت الى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى اسرائيل والتى تتميز باقتصاد « متقدم » ومن ثم تحتاج لخبراتهم ورأسمالهم . ومع هذا هاجرت جماهير يهودية الى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة ، حيث هاجر معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب الى هناك .

٤ ـ فى داخل هذا الاطار يمكن فهم لماذا يهاجر يهود أمريكا اللاتينية وجنوب افريقيا الى الولايات المتحدة ، فاسرائيل بالنسبة لهم لا تعنى أى تحسن فى مستوى المعيشة .

٥ ـ ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لا يهاجرون قط الى اسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية . فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وإن

كان يلاحظ ايضا أن يهود انجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة الى الولايات المتحدة .

٦ ـ بل ويلاحظ أن هناك هجرة اسرائيلية متزايدة الى الولايات المتحدة شكلت ما يسمى بالدياسبورا الاسرائيلية (يبلغ عددها فى بعض الاحصائيات ٧٠٠ الف) ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا . ولاشك فى أن هؤلاء لا يبحثون عن الحراك الاجتماعى وحسب وانما يودون الهرب من الحياة المسلحة فى اسرائيل .

٧ ـ فى الاطار نفسه يمكن فهم هجرة (أو تهجير) يهود الفلاشاه تحت ظروف المجاعة فهى هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيرا .

ويمكن القول إن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية آخذه فى النضوب فأفراد أكبر جماعة يهودية فى العالم فى الولايات المتحدة لا يهاجرون ، ويهود العالم الغربى أن هاجروا فانهم يتجهون إلى الولايات المتحدة . ويتبع يهود امريكا اللاتينية وغيرها من البلاد النمط نفسه ، وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والاسلامى ولم يبق سوى بضعة مئات من الأفراد . وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط وعزوف اليهود عن الانجاب فى تناقص عدد اليهود الكلى وبالتالى فى تناقص عدد المهاجرين المحتمل .

يبقى بعد ذلك الاحتياطى البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفييتى وهو جوهر الصراع القائم الآن ، وسنتناول فى الفصل القادم تاريخ الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى .

الفصل الثانى

تاريخ الجماعات اليهودية فى روسيا القيصرية



يعود وجود الجماعات اليهودية فى روسيا الى القرن التاسع الميلادى حين توسعت مملكة الخزر اليهودية فى وادى الفولجا ومناطق روسية اخرى . وقد اشترك يهود الخزر ـ حسبما ورد فى الاساطير الروسية ـ فى المناظرة الدينية التى عقدت بين ممثلى الديانات التوحيدية الثلاث عام ٩٨٦ أمام امير كييف الذى اعتنق بعدها المسيحية. واصبحت الارثوذكسية هى دين روسيا الرسمى . وبعد ان استوطن اليهود فى المدينة باعتبارها مركزا تجاريا يربط بين منطقة البحر الأسود وآسيا وغرب اوربا ، قوبلوا بعداوة شديدة من بلد اعتنقت المسيحية لتوها وتضم طبقة تجار ضعيفة للغاية وبدائية . ومع هذا استمرت حركة اليهود التجارية ، وكان لهم الجيتو (أى الحىّ) الخاص بهم فى كييف وغيرها من المدن .

وبعد غزو التتار لروسيا فى القرن الثالث عشر وتدهور امارة كييف ، زاد نشاط اعضاء الجماعة اليهودية التجارى ، لان الامبراطورية التترية جمعت كافة الجماعات اليهودية داخل اطار سياسى واحد مما سهل عملية انتقالهم . كما يبدو ان التتار كانوا يعتبرون اليهود الخزر من ذوى قرباهم (باعتبار ان الجميع من أصل تركى) .

وفى القرن الخامس عشر ظهرت فرقة مسيحية متهودة بين الروس فى مدينة نوفوجورود . وعلى الرغم من انه تم القضاء عليها فانها عمقت مخاوف المؤسسة الدينية الارثوذكسية من اليهود ، إلا أن حركة اليهود التجارية استمرت من روسيا واليها .

وكان ايفان الرهيب (١٥٣٣ - ١٥٨٤) هو أول روسى قرر طرد اليهود من روسيا ، ويعود هذا الى رغبته فى استبعاد اية عناصر تجارية اجنبية . وبعد الفترة التى تعرف باسم « زمن المتاعب » فى التاريخ الروسى (١٥٩٨ - ١٦١٣) والتى شهدت اعتلاء امير بولندى للعرش الروسى ، ونشوب حرب أهلية زاد عمق الرفض الروسى لليهود باعتبار أن مغتصبى العرش من البولنديين أحضروا معهم كثيرا من صنائعهم اليهود . لكل هذا مُنع اليهود من دخول روسيا الا لأسباب خاصة مثل حضور سوق تجارى أو غيره من الأسباب . وقد ظل هذا الحظر هو أحد الثوابت فى السياسة الروسية حتى تقسيم بولندا فى أواخر القرن الثامن عشر .

ولعل خوف روسيا القيصرية من أعضاء الجماعات اليهودية هو خوف العناصر الزراعية التقليدية من عنصر غريب له علاقات دولية واسعة فى دولة جديدة لم تكن سلطتها قد تدعمت بعد ولم تتدعم لمدة طويلة نظرا لترامى اطرافها . كما انه عنصر تجارى له مصالحه المالية الخاصة التى لاتتفق بالضرورة مع مصالح الدولة . كما انه كان هناك قوى اجتماعية داخل روسيا لم يكن فى صالحها البتة السماح لليهود بالاستقرار ، من اهمها التجار الروس الذين كانوا

يرزحون تحت عبء الضرائب ، والذين كان عليهم أن يدخلوا فى منافسة غير متكافئة مع بعض اعضاء طبقة النبلاء الذين اشتغلوا بالتجارة وكانوا يتمعتون بمزايا عديدة وبمساندة البيروقراطية الحكومية . بل وكان هؤلاء التجار يجدون انفسهم أحيانا فى منافسة مع الفلاحين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والصناعات المنزلية ، وكل هذا داخل سوق محدود مكبل بالقوانين الاقطاعية الاستبدادية التى لاحصر لها . فاذا اضفنا الى كل هذا ان حجم التجار الروس المالى كان صغيرا فى معظم الاحوال لادركنا لماذا وقف التجار الروس ضد دخول العنصر اليهودى التجارى الحركى النشيط الذى لاتكبله القيم المسيحية او القوانين الطبقية ويتحكم فى رأسمال سائل لابأس به . وقد وجد هذا الموقف صدى فى نفس حكومة كانت تكتسب شيئا من شرعيتها من اعتناقها الارثوذكسية ، وعلى الرغم أن من الفكر المركنتالى وجد طريقة الى روسيا فى مرحلة لاحقة فأن قبضة الحكومة ظلت قوية ، وظل التجار يعارضون نشاط اليهود التجارى ويطالبون بالحد منه حتى اندلاع الثورة البلشفية .

ولعل من الثوابت الأخرى التى كانت عنصرا قويا ومحددا فى السياسة الروسية القيصرية هو ان اليهود كانوا عنصرا متحركا لايملك اى أرض تخصه كما هو الحال مع شعوب واقوام واقليات وطوائف الامبراطورية الأخرى مما خلق لهم وضعا ومشاكل خاصة .

وقد ضمت روسيا مقاطعة روسيا البيضاء فى أول تقسيم لبولندا عام ١٧٧٢ ، وضمت فى التقسيم الثانى منطقة منسك

وفولينيا (وهى جزء من مقاطعة كييف) ومنطقة بودوليا فى الجنوب اى انها ضمت كل اوكرانيا ، ثم ضمت فى التقسيم الثالث ليتوانيا ، وقد ضمت كل هذه المقاطعات (بما فى ذلك كورلاند وبيالستوك التى حصلت عليهما روسيا فيما بعد) الى روسيا ذاتها ، بينما اصبحت بولندا المركزية (التى كانت تضم حوالى ثلاثة ارباع دوقية وارسو النابلونية) تكون مايسمى ببولنذا المؤتمر Congress Poland أو بولندا الروسية وكان اسمها الرسمى مملكة بولندا حتى عام ١٨٣٠ وكان لها دستورها الخاص .

وهذه المقاطعات كانت تضم غالبية يهود شرق اوروبا ، او يهود اليديشية ، وقد انطلقوا من هذه المناطق بعد ضمها واستوطنوا المناطق الجنوبية من روسيا وساحل البحر الأسود ، ومقاطعة بيساربيا (مولدافيا) وهى مناطق تابعة للدولة العثمانية وقامت روسيا بضمها باسم روسيا الجديدة ، كما تسللت مجموعات صغيرة من اليهود الى وسط روسيا ذاتها .

وكان وضع اعضاء الجماعة اليهودية فى هذه المناطق متميزا تماما من الناحية الثقافية والاجتماعية والوظيفية ، فقد كانت اعداد كبيرة منهم تعمل بنظام الارندا (استئجار عوائد القرى بما فى ذلك الضرائب والمطاحن ، والغابات والحانات من النبلاء البولنديين الغائبين) كما كان بين اليهود تجار واصحاب حوانيت وباعة جائلون ، وكان الباقون حرفيين يعملون للنبيل الاقطاعى والفلاح . وحسب التقديرات كان التركيب الوظيفى لليهود على النحو التالى : ١٪ فقط كانوا

يعملون فى الزراعة و٣٪ فى الاعمال الدينية ، و٣٠٪ يعملون فى نظام الارندا و٣٠٪ يعملون فى التجارة والرهونات و١٥٪ فى الحرف المختلفة .

وكان من أهم الوظائف التى اضطلع بها اليهود والتى اصبحت جزءا اساسيا من مشكلتهم تقطير الخمور وبيعها فى الحانات التى استأجروها من النبلاء (كجزء من نظام الارندا) ، كما يلاحظ ان التجارة اليهودية كانت تجارة طفيلية وكان التجار اليهود يشتغلون بالتهريب ويقومون بالتهرب من الضرائب نظرا لوجودهم على المنطقة الحدودية وبسبب استخدامهم اليديشية كوسيلة للتفاهم الأمر الذى يسر لهم عمليات التهريب والتهرب والتلاعب بالاسعار . ومع هذا ظلت نسبة كبيرة من اعضاء الجماعة تعانى من الفاقة فكان هناك ٢١٪ منهم بدون وظيفة محددة .

ولكن لم يكن التميز وظيفيا أو طبقيا وحسب وإنما كان ثقافيا ولغويا أيضا ، فأفراد الجماعة اليهودية كانوا يشكلون جماعة وسيطة تدين باليهودية ويتحدث اعضاؤها اليديشية ويمثلون المصالح المالية للنبيل البولندى الذى يتحدث البولندية ويدين بالكاثوليكية لدى الفلاحين والاقنان الأوكرانيين الذين يتحدثون الأوكرانية ويدينون بالمسيحية الأرثوذكسية . كما ان اليهود كانوا عنصرا المانيا يعيش في وسط سلافى ويظهر تميزهم حتى فى الطريقة التى كانوا يحلقون بها رؤوسهم وفى ازيائهم المتميزة ، وفى اسمائهم . كما تظهر عزلتهم فى نظامهم التعليمى المقصور عليهم ، وفى الشتتلات التى أسسها لهم النبلاء الاقطاعيون البولنديون ،

وهى مدن صغيرة تضم التجار والوكلاء والحرفيين اليهود . وشكل اليهود أغلبية السكان فى هذه المدن الصغيرة مما كان يعنى عدم احتكاكهم بالسكان (كما كانت تعيش اعداد كبيرة منهم على مفترق الطرق ومنتشرين فى بعض القرى) . هذه الكتلة البشرية كانت على وشك الزيادة الهائلة إثر انفجار سكانى لم تعرف له مثيلا فى تاريخها . وهى رغم عزلتها لم تكن متماسكة ، فقد كانت الصراعات الاجتماعية قد بدأت تترك اثرها على مؤسسة القهال (مؤسسة الادارة الذاتية لليهود) وهو صراع عبر عن نفسه فى الصراع بين الحسيديين المتصوفين ومعارضيهم من أعضاء المؤسسة الحاخامية الذين اطلق عليهم المتنجديم . وكانت المنطقة التى ضمتها روسيا تضم أهم « البلاطات » الحسيدية وأهم يشيفات (المدارس التلمودية) المتنجديم فى ليتوانيا ، وكانت اليهودية الحاخامية فى هذه الفترة قد دخلت ازمتها الكبرى .

وفجأة وجدت هذه الكتلة البشرية نفسها تابعة لتشكيل اقتصادى ، سياسى ، حضارى جديد أى روسيا القيصرية التى رأت دائما ضرورة نبذهم والتلخص منهم ، وعلى رأسها حكومة استبدادية متخلفة لاتسمح بالتعددية الدينية او الفكرية او المهنية ، سياستها فى جوهرها سياسة الملوك المطلقين المستنيرين (كما كان الحال فى وسط أوروبا والنمسا والمانيا) أى التحديث بالقوة ومن فوق ، ولم يكن لدى هذه الحكومة اية خبرة باليهود او مشاكلهم ، كما أن روسيا نفسها كانت على عتبات انفجارات اجتماعية ضخمة نتيجة

لعملية التحديث والعلمنة التى كانت تخوضها ، وهى انفجارات أدت فى نهاية الأمر الى قيام الثورة البلشفية . وتاريخ المسألة اليهودية فى روسيا هو تاريخ الاحتكاك بين الكتلة البشرية اليهودية المنعزلة ، بكل تخلفها ومشاكلها وتميزها ، مع البيروقراطية القيصرية المتخلفة بكل وحشيتها وتعصبها وعدم كفاءتها .

وقد ظلت المشكلة قائمة دون حل وكلما كانت تحتدم الازمة كانت الحكومة الروسية تشكل لجنة لدراسة الموقف وترفع توصياتها للحكومة ، وقد كانت توصيات فى معظم الاحيان تستند الى فلسفات شمولية مطلقة ، وتنبع من جهل عميق بآليات الظواهر الاجتماعية . وكان يتولى تنفيذها جهاز تنفيذى متعصب جاهل يتسم بعدم الكفاءة . وقد ظل التناقض الاساسى فى سياسة الحكومة القيصرية بين رغبتها فى التحديث والتنمية الاقتصادية من جهة والشكل الاستبدادى السياسى القائم من جهة أخرى ، يفشل كل المحاولات نحو حل المسألة اليهودية إلى أن تعثر تحديث اليهود (والمجتمع ككل) تماما فى اواخر القرن التاسع عشر ، واحتدم التناقض بين الحقيقة الاجتماعية والشكل المتكلس مما نجم عنه مجموعة من الاضطرابات والثورات انتهت بالثورة البلشفية التى حلت المسألة اليهودية (والمسائل القومية الأخرى) بطريقة نوعية مختلفة .

ادى تقسيم بولندا كما أسلفنا إلى ضم أجزاء كبيرة منها إلى روسيا بمن عليها من يهود كانوا يضطلعون بوظيفة محددة هى وظيفة الجماعة الوسيطة لأن النبلاء البولنديين كان محرما عليهم التجارة (وتفرغوا للأعمال السياسية والحرب) . ويقف

هذا على طرف النقيض من الوضع فى روسيا إذ لم تكن التجارة هناك مهنة وضيعة ، وكانت الحكومة نفسها تقوم بالتجارة وتشجعها واضطلع بعض النبلاء بها .

وروسيا من الناحية الاقتصادية كانت مستعمرة انجليزية او منطقة نفوذ اقتصادية انجليزية ، ولكن بعد الحصار القارى الذى فرضه نابليون على انجلترا حدث تقدم صناعي وتجارى نظرا لاضطرار روسيا الى الاعتماد على نفسها ، وعلى سبيل المثال كانت روسيا تملك ١٩٩ مصنع قطن عام ١٨٠٤ زاد عددها الى ٤٢٣ عام ١٨١٤ ، وزادت واردات القطن من الولايات المتحدة من ٢٠٤ اطنان عام ١٨٠٩ الى ٣٧٨٧ طنا عام ١٨١١ .

من كل هذه الحقائق يمكن القول إن الاقتصاد الروسى لم يكن فى حاجة لليهود ، ومع هذا تم ضمهم فى محاولة بناء الدولة القيصرية ، ولم تكن المسألة اليهودية هى المسألة الوحيدة التي جابهتها الحكومة القيصرية ، فقد كان هناك « مسألة إسلامية » ومسألة « تترية » و« مسألة بولندية » و« مسألة أوكرانية » ، فالامبراطورية القيصرية مترامية الأطراف تضم مئات الاقليات والتشكيلات الحضارية المختلفة وكانت تحاول ان تفرض عليها ضربا من الوحدة حتي يمكن للحكومة المركزية التعامل معها . وقد قسمت الحكومة القيصرية هذه الأقليات إلى قسمين أساسيين الاقليات السلافية ، مثل اوكرانيا وبولندا ، والاقليات غير السلافية « الاينورودتسى » Inorodtsy وهى كلمة روسية كانت تشير فى بادىء الأمر للقبائل التى كانت تعيش فى سيبيريا ثم اتسع

نطاقها الدلالى واصبحت تشير لكل الشعوب غير السلافية ، وكانت السياسة العامة تهدف الى ترويسهم (أى صبغهم بالصبغة الروسية) . وغنى عن البيان أن اجراءات الترويس بالنسبة للاقليات غير السلافية كانت اكثر راديكالية وعنفا ؛ خاصة اذا كانت تلك الأقليات لاتدين بالمسيحية . وقد بدأت الحكومة القيصرية علاقتها بأفراد الجماعة اليهودية بالاعتراف بالقهال وبصلاحياته الدينية والقضائية ، كما تم الاعتراف بالجماعة اليهودية كجماعة مستقلة فى المدن والقرى . وفى عام ١٧٨٣ صنف اليهود على اساس إنهم من سكان المدن ، ولهم نفس الحقوق مثل غير اليهود فى انتخاب مجالس المدن والبلديات وحق التمثيل فيها .

وقد استقر بعض التجار اليهود فى موسكو وسمولنسك فدخلوا فى منافسة مع التجار المسيحيين بطرق شرعية وغير شرعية . وحينما تقدم تجار موسكو بشكوى ضد هذا الوضع صدر فرمان ١٧٩١ يحظر على اليهود الاتجار خارج روسيا البيضاء وفى بعض المقاطعات الاخرى مثل روسيا الجديدة ؛ ويعد هذا الفرمان الاساس القانونى لمنطقة الاستيطان الذى حدد اقامة اليهود داخل منطقة بعينها وقد سمح لمجالس القهال ان تستمر فى عملها بكل صلاحياتها .

وشهدت هذه المرحلة ضم روسيا لبعض الامارات الاسلامية التابعة لتركيا على ساحل البحر الاسود وسميت (هى ومناطق اخرى) بروسيا الجديدة . وحيث ان اليهود كان يتم النظر لهم فى التشكيل الحضارى الغربى باعتبارهم عنصرا رياديا حركيا يمكن استخدامه فى مثل هذه العملية

(كما فعل شارلمان من قبل ، وكما فعلت القوات المسيحية فى اسبانيا والنبلاء البولنديون فى أوكرانيا ، والاستعمار الغربى فى فلسطين فيما بعد) قامت الحكومة القيصرية بتشجيعهم على الاستيطان في المناطق الجديدة ، باللجوء لطريقة الطرد والجذب ، فضوعفت الضريبة المفروضة على التجار اليهود ، واعفى المستوطنون فى روسيا الجديدة تماما من كل الضرائب (وقد استثنى هذا المرسوم اليهود القرائين الذين عوملوا على قدم المساواة مع كل الروس ، وهذا ايضا هو احد ثوابت السياسة القيصرية تجاه اليهود) . وفى نفس الوقت تفاقمت مشكلة السُكرْ بين الفلاحين ، كما ساعدت احدى المجاعات التى وقعت عام ١٧٩٧ على تعميق المشكلة . وكان اليهود هم السبب الواضح المباشر للجميع ، (ولكنه فى واقع الأمر لم يكن السبب الحقيقى) لإدمان الفلاحين الروسيين للمشروبات الكحولية فغالبية صانعيها وبائعيها كانوا من اليهود وهم الذين كانوا يديرون معظم الحانات ، فشكلت لجنة لبحث المسألة اليهودية فى روسيا برئاسة السناتور جافريل ديرجافين (١٧٤٣ ـ ١٨١٦) الشاعر الروسى الذى رأى ان اليهود يستغلون الفلاحين الروس وان عزلتهم الطبقية والحضارية هى سبب العداء ضدهم ، وبناء عليه طالب بضرورة ترويسهم بالقوة والى تغيير بنائهم الاقتصادى والوظيفى حتى يتسنى استيعابهم « كيهود نافعين » فى المجتمع الروسى ، وقد وضع بذلك الاطار الاساسى لكافة المحاولات التى بذلتها الحكومة القيصرية لحل المسألة اليهودية .

وبعد اعتلاء الاسكندر الأول العرش (١٨٠١ ـ ١٨٢٥) شُكلت لجنة تدعى مجلس الشئون اليهودية واصدرت قراراتها

عام ١٨٠٤ ، والتى تسمى بالقانون الاساسى لليهود او دستور اليهود ، وجاء فى قرارات اللجنة ان اليهود يجب ان يُنقلوا خارج المناطق الزراعية بين عامى ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ ، كما أوصت بضرورة إبعاد اليهود عن استئجار الأراضى الزراعية بهدف الربح . ولتنفيذ هذا المخطط وضع تحت تصرفهم بعض أراضى القيصر وأعفى المزارعون اليهود من الضرائب لمدة تتراوح بين خمسة وعشرة أعوام ، كما أنهم لم يصنفوا على انهم اقنان مرتبطون بالأرض بل احتفظوا بحقوقهم فى حرية الحركة والسكن . وقد وعدت الحكومة كذلك بتقديم العون للمصانع التى تقوم باستئجار العمال والحرفيين اليهود ، وسمح للعاملين بالصناعة بين اليهود ان يستقروا داخل روسيا بما فى ذلك موسكو وسانت بطرسبرج . وحد القانون الاساسى من سلطة القهال واصبح تنظيم الامور الدينية والعبادات من اختصاص الحاخامات وحدهم الذين كان يتم اختيارهم دون العودة للقهال ، ولم تتجاوز صلاحيات القهال تحديد الضرائب وجمعها واحصاء عدد السكان اليهود . وتقرر الا يوجد سوى قهال واحد فى كل مدينة ، وسمح لكل فرقة دينية أن يكون لها معبدها اليهودى وحاخامها الخاص (مما ادى الى تحسين وضع الحسيديين) وفتحت أبواب المدارس الحكومية العلمانية أمام اليهود ، وتقرر أنه إذا لم يرسل اليهود بأولادهم فإنه سيتم فتح مدارس يهودية علمانية خاصة على حساب افراد الجماعة اليهودية، واصبح من شروط شغل وظيفة حاخام أو عضوية مجلس ادارة القهال أو البلدية معرفة الألمانية أو الروسية أو البولندية ، كما تقرر ان يكتب أفراد الجماعة كل وثائقهم واوراقهم باحدى اللغات الثلاث وحرم كتابتها بالعبرية او اليديشية . وقد اكد القانون حقوق اليهود

فى الاشتراك فى الانتخابات الخاصة بالحكومات المحلية ، ومنع ارتداء الازياء اليهودية التقليدية وقص الشعر على الطريقة اليهودية (وترك السوالف) واصبح توجيه تهمة الدم جريمة يعاقب عليها القانون (١٨١٨) . وكانت استجابة الجماعات اليهودية سلبية الى اقصى درجة وصاموا حدادا على صدور هذه القرارات بل واقترحت بعض القهالات تأجيل الاصلاحات الى فترة تتراوح بين ١٥ و٢٠ عاما !

ونتيجة لمقاومة أفراد الجماعة اليهودية ولعدم كفاءة البيروقراطية وفسادها (فكثيرا ما كان الموظفون القياصرة يتقاضون الرشاوى ويتغاضون عن تعليمات الحكومة) وبسبب عدم الثقة المتبادلة بين الحكومة واليهود وعدم واقعية القرارات باعتبار ان وجود اليهود فى القرى كان أمرا ليس من اختيارهم وانما واقع اجتماعى تفرضه عليهم ظروفهم والظروف الاقتصادية المحيطة بهم ، ونظرا لان أفراد الجماعة كانوا فى واقع الأمر يقومون بوظيفة مهمة بالنسبة للريف الروسى حتى ولو كان لها جوانب سلبية من الناحية الاجتماعية ، لكل هذا لم تنجح الحكومة القيصرية فى تنفيذ توصيات اللجنة . وعلى كل لم يتم اتخاذ خطوات تنفيذية نحو طرد اليهود من القرى الا عام ١٨٢٢ (خاصة فى مقاطعة بيلوروسيا أو روسيا البيضاء) ولكن كثيرا ما كان يتم طرد اليهود دون تأمين أرض زراعية لهم مما كان يعنى الفشل الأكيد لمحاولة تغيير وضع اليهود الوظيفى ، بل وأحيانا كان يتم تأمين الأرض ويصل المستوطنون ليكتشفوا انه لاتوجد تسهيلات للسكن أو الرى أو الصرف .

توقفت كثير من الاصلاحات أثناء الحرب الروسية ـ الفرنسية حين قام نابليون بغزو روسيا ، وقد وقف أفراد الجماعة اليهودية أثناء هذه الحرب إلى جانب الحكومة الروسية لان المؤسسة الحاخامية كانت تعتبر نابليون عدو اليهودية اللدود ، بل وقام اليهود بالتجسس لحساب الحكومة القيصرية على القوات الفرنسية (وان كان هذا لم يمنع وجود بعض حالات متفرقة قام فيها اليهود الروس بالتجسس على روسيا لحساب الفرنسيين) .

وفى أواخر حكم الاسكندر قامت محاولة لتنصير اليهود عن طريق الوعد بعتقهم واعطائهم حقوقهم السياسية . وكان العقل المدبر وراء هذه الفكرة هو لويس واى رئيس جمعية الكتاب المقدس فى انجلترا الذى اسس جمعية المسحيين الاسرائيليين عام ١٨١٧ تحت رعاية الامبراطور . ثم صدر قرار بمنع اليهود من استئجار خدم مسيحيين ومن السكن فى منطقة طولها خمسون فرسخا (حوالى ٣٣ ميلا) على الحدود ولم يستثن من ذلك سوى ملاك الأراضى .

وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الجماعة اليهودية بوصول نيقولا الثانى للعرش (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) وقد اعتلى العرش بعد اخماد الثورة المعروفة باسم ثورة الديسمبريين وهم مجموعة من النبلاء المتأثرين بالافكار الغربية التى كان من قادتها بول بستل (صاحب الافكار اليعقوبية ، وصاحب مشروع صهيونى لحل المسألة اليهودية) . وقد صعّد نيقولا من سياسة الترويس والدمج القسرية فصدر مرسوم عام ١٨٢٧ بفرض الخدمة العسكرية على يهود روسيا ، وكانوا قبل

ذلك يدفعون ما يشبه البدل النقدى ، وكانت فترة الخدمة فى الجيش الروسى تستمر لمدة خمسة وعشرين عاما ، وكان يتم تجنيد الفتيان والشبان بين ١٢ و٢٥ عاما ، وأوكل للجماعة اليهودية ذاتها ان تقوم باختيار الفتيان الذين يتم تجنيدهم . فعينت كل جماعة يهودية « خطافين » ليمسكوا بالفتيان (من ابناء الفقراء عادة) لتسليمهم للحكومة مما زاد من حدة الصراعات الاجتماعية . ويلاحظ ان هذا القانون لم يطبق على يهود بولندا وحسب وانما طبق على كل الروس مسيحيين وغيرهم ، وكان الاختلاف الوحيد فى عدد المجندين ، فبينما كانت النسبة ٧ فى الألف بين المسيحيين ، كانت فى ١٠ الألف بين غير المسيحيين . وقد أعفى المثقفون والتجار والحرفيون من الخدمة العسكرية (نظير الف روبل) كما اعفى العاملون فى القطاع الزراعى (فى مرحلة لاحقة) وكان هدف الخدمة العسكرية تحقيق مزيد من الدمج والترويس القسريين . ومع هذا كان نظام التجنيد قاسيا بل غير انسانى خاصة بسبب صغر سن المجندين . ولكن فى نهاية الأمر لم يُجنّد سوى عدد صغير من اليهود يتراوح بين ٢٦ و٦٠ الفا فى فترة ٢٨ سنة ، فاذا اخذنا بتقدير متوسط وهو ٤٥ الفا فهذا يعنى ان عدد المجندين سنويا لم يزد على الف وخمسمائة مجند من مجموع عدد اليهود البالغ انذاك ٣ ملايين . ثم صدر قرار عام ١٨٣٥ ، ولم يكن مختلفا فى جوهره عن قرار ١٨٠٤ فاعاد تحديد منطقة الاستيطان وحرم استئجار الخدم المسيحيين وحظر على اليهود الزواج المبكر وحدد السن الادنى للزواج بـ ١٨ سنة للذكور و١٦ سنة للاناث ، كما حظر استخدام اليديشية او العبرية فى الاعمال التجارية وغيرها من النشاطات ، وحدد المهن التى يمكن

لليهود ان يعملوا فيها ، كما حرم على اليهود دخول القرى (عام ١٨٢٥) .

وقد أبقى القانون على القهال ليقوم بجمع الضرائب وتطبيق القوانين الروسية ، وأصبح مسئولا عن الأمور الدينية والخيرية ، وصرح القانون ببناء المعابد شريطة أن تكون على مسافة معقولة من الكنائس ، واعتبر الحاخامات موظفين حكوميين لا تقتصر مهمتهم على الجوانب الدينية وانما اصبح من واجبهم الرقابة على الجوانب الاخلاقية العامة وعلى اداء اليهود لواجباتهم المدنية للدولة والمجتمع وفتحت امام اليهود أبواب المدارس العامة ، وفرضت الرقابة على كتب اليهود (عام ١٨٣٦) .

ويبدو انه فى هذه المرحلة بدأت الحكومة القيصرية تشعر ان ماسمته بالروح التلمودية وليس اليهودية ذاتها هى سبب عزلة اليهود ، ولذا قامت باستشارة اثرياء اليهود الروس باعتبارهم خبراء فى الشئون اليهودية ، كما طلبت العون من يهود الغرب الذين تم تحديثهم ومن دعاة التنوير اليهود . وقد كانت نتيجة المشاورات والمداولات مؤيدة لموقف الحكومة ، وكان اهم داعية لهذه السياسة وزير التعليم اوفاروف (وكان كثير من دعاة التنوير اليهود يتفقون معه ومن بينهم اسحق بير ليفينسون فى كتابه التعليم فى اسرائيل ١٨٢٨) . واغلقت كثير من المطابع العبرية بهدف الحرب ضد الخرافات الحسيدية و« التعصب الناجم عن دراسة التلمود » (ويلاحظ ان موقف الحكومة القيصرية من القرائين كان متسامحا للغاية لانهم لايؤمنون بالتلمود) .

واتجهت الحكومة الروسية أيضا نحو علمنة التعليم

اليهودى وحاولت تطبيق المشروع الذى طرحه ليفينسون فى كتابه . ولتحقيق هذا الهدف ، استدعى التربوى الالمانى اليهودى ماكس ليلينتال (١٨١٥ ـ ١٨٨٢) حتى يمكنه ان يقرب فكرة التعليم العلمانى ليهود روسيا وليؤكد لهم حسن نية الحكومة . وكان ليلينتال يعمل مدرسا فى احدى المدارس التى اسسها دعاة التنوير اليهود فى ريجا ، فقام برحلة استطلاعية ولكنه قوبل بعداوة شديدة من الجماهير اليهودية التى سمته « بالحليق » (أى الذى حلق لحيته وسوالفه على عكس عادة الارثوذكس) . وقد كان كثير من دعاة التنوير اليهود يرون انه لايمكن تحديث الجماهير اليهودية بطرق ديمقراطية وانه لابد من استخدام شىء من القسر والارهاب وايدهم فى ذلك اعضاء البيروقراطية ، وقد اوصى ليلينتال باغلاق المدارس الدينية التقليدية (الحيدر) وبمنع المدرسين التقليديين (الميلاميديم) من التدريس وباستجلاب مدرسين من الخارج . وقد تم بالفعل تأسيس مدارس علمانية يهودية تم تمويلها بضريبة الشموع (شموع السبت) وقام بالتدريس فى هذه المدارس مسيحيون ويهود من دعاة التنوير واسست مجموعة من المدارس لتدريب حاخامات ومدرسين يهود ، وكانت هذه المدارس هى الاطار الذى تم فيه تدريب وتعليم اعداد كبيرة من دعاة التنوير المتحدثين بالروسية والذين لعبوا دورا مهما فى الحركات الاندماجية والثورية والعلمية .

وقد تبع ذلك إلغاء القهال عام ١٨٤٤ وأبقى على اطار تنظيمى ادارى عام واستمر المسئولون عن التجنيد وجامعو الضرائب فى اداء عملهم . وابتداء من عام ١٨٥١ بدأت

الحكومة الروسية تنهج النهج الألمانى فى تقسيم اليهود الى يهود نافعين وغير نافعين ، والفريق الأول ويضم كبار التجار والحرفيين والمزارعين كانوا يتمتعون بمعظم حقوق المواطن الروسى . اما الفريق الثانى الذى كان يضم بقية اليهود من صغار التجار واعضاء الطبقات الفقيرة فالأمر كان مختلفا بالنسبة لهم ، اذ كان عليهم اداء الخدمة العسكرية ليكون بوسعهم ان يتعلموا بعض المهن النافعة فان تعلموها صنفوا على انهم من النافعين واعفوا من الخدمة العسكرية . وقد نجحت هذه السياسة بشكل محدد اذ قامت ١٤ مستوطنة زراعية فى خرسون وعدد مساو فى ايكاترينوسلاف و٤٥ مستوطنة فى كييف ، وعدة مستوطنات فى بيسارابيا ، وبلغ عدد سكانها ٦٥ الف يهودى . وقد زار فى هذه الفترة السير موسى مونتفيورى - الثرى الانجليزى اليهودى - روسيا كجزء من محاولة الحكومة القيصرية ان توسط يهود الغرب المندمجين فى اقناع يهود روسيا بتقبل عمليات الدمج والتحديث والترويس . ولكن يمكن القول ان هذه العمليات لم تحقق كثيرا من النجاح .

وقد تغيرت الصورة السياسية والاقتصادية فى روسيا القيصرية مع اعتلاء الاسكندر الثانى (١٨٥٥ - ١٨٨١) للعرش إذ تميز حكمه بأن جركة التحديث فى روسيا خطت خطوات واسعة واتخذت شكلا ليبرالياً (فى أعقاب هزيمة روسيًا فى حرب القرم) . فعلى سبيل المثال تم تحديث النظام القضائى (١٨٦٤) ، ونظام البلديات (١٨٧٠) ، ونظام التجنيد ، بل وبدأ الحديث عن قيام حكومة دستورية . ولعل اهم القرارات هو قرار الغاء نظام الاقنان عام ١٨٦١ الذى تم

نزولا على ضغوط من النبلاء الاقطاعيين الذين بدأت تظهر بينهم تطلعات نحو الانتقال إلى صفوف البورجوازية الكبيرة سواء من خلال اقامة المزارع الحديثة ورسملة الزراعة أو التوجه للعمل فى المجالات التجارية والصناعية .

ويشكل هذا القرار أخطر منعطف فى تاريخ المجتمع الروسى إذ شهدت الفترة زيادة معدلات التصنيع والتحديث بشكل كبير ، فمدت السكك الحديدية وفتحت فرص الحراك الاجتماعى أمام الكثيرين . ولكن بدأت أيضا بذور ازمة النظام القيصرى ، فالدولة الروسية حررت الاقنان ولم توفر لهم ارضا ، وبدأت القرى تقذف بالملايين الى المدن ليعيشوا تحت ظروف اقتصادية اشد واقسى مما كانت عليه فى عهد الاقطاع ، فلم تكن هناك اية مؤسسات وسيطة (الأسرة او الكنيسة) لتحميها وتوفر لها شيئا من الطمأنينة النفسية (الحقيقية أو الوهمية) . كما أنهم كانوا يتقاضون اجورا منخفضة لاتفى بحاجات المدينة تؤدى في الوقت ذاته الى التراكم السريع الراسمالى الذى كان يؤدى بدوره إلى تصاعد عملية التحديث وازدياد افقار الجماهير وانتشار الحركات الثورية وزيادة الأوتوقراطية من جانب النظام السياسى ، وهى الحلقة المفرغة التى ادت فى نهاية الأمر إلى الثورة البلشفية .

وقد تفتحت فرص الحراك الاجتماعى والاقتصادى أمام افراد الجماعة اليهودية وغيرهم من القطاعات والاقليات فى المجتمع . وربطت الحكومة عملية عتق اليهود بمدى تحولهم الى عنصر نافع . ولتشجيع أفراد الجماعة على تقبل التحديث

والترويس وُسّع نطاق حقوق اليهود « النافعين » مثل حق السكن فى روسيا بأكملها خارج منطقة الاستيطان بالنسبة للتجار الأثرياء (تجار من الدرجة الأولى) (١٨٥٩) ، وخريجى الجامعة (١٨٦١) والحرفيين (١٨٦٥) والجنود اليهود المسرحين (١٨٦٧) . ومن الأشياء المؤسفة أن العاهرات كن يعتبرن « نافعات » مما شجع كثيرا من الفتيات اليهوديات داخل منطقة الاستيطان على امتهان البغاء كوسيلة للحراك الاجتماعى والجغرافى (إلى أن تحولت هذه المنطقة إلى واحدة من أكبر المصادر للبغايا فى العالم بأسره من عام ١٨٨١ ـ حتى عام ١٩٣٥) وصرح ليهود منطقة الاستيطان بالسكن فى كل بولندا (١٨١٨) ، وأصبح من حق كل من يعمل بمهنة الطب السكن فى أى مكان (١٨٧٩) . ووسّع نطاق منطقة الاستيطان ذاته فأبطل العمل بالقانون الذى يحظر على اليهود السكن فى منطقة مساحتها ٥٠ فرسخا على الحدود .

وفى عام ١٨٥٦ الغيت القوانين الخاصة بتجنيد اليهود والعقوبات الخاصة التى كانت توقع عليهم ، وتم مساواتهم ببقية الشعب الروسى . وفى عام ١٨٤٧ اعتمد نظام التجنيد الاجبارى العام لمدة اربع سنوات ولم يعد مقصورا على الفقراء ، وانضم آلاف الشباب اليهودى إلى الجيش ومنحوا حقوقا ومزايا عديدة ، كما خفضت مدة خدمة المجندين الذين انهوا دراستهم من اربع سنوات إلى سنة واحدة . وفى حقل التعليم ، يعد فشل تجربة اوفاروف ، أغلقت المدارس اليهودية الحكومية عام ١٨٧٣ ، ماغدا مائة مدرسة ، وفتحت المدارس الحكومية العادية أمام أفراد الجماعة ، واعتبرت هذه الطريقة

هى الطريقة المثلى لعملية الترويس . وأخذ عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس فى التزايد ، كما فتحت الجامعات ابوابها لهم فزاد عدد الطلبة اليهود فى الجامعات بين عامى ١٨٥٣ و١٨٧٢ من ١,٢٥٪ من مجموع الطلبة الى ١٣,٢٪ . وظهر فكر حركة التنوير الذى كان من اقطابه ابراهام مابو ويهودا ليب جوردون وكانوا معارضين لليديشية فى البداية (على النمط الألمانى) إلا أن بعضهم تبناها كلغة قومية (لادينية) وظهر أدب يديشى من أعلامه منديل موخير سفاريم وغيره . وظهرت مطبوعات يهودية بالعبرية واليديشية والروسية وتركت الثقافة اليهودية الروسية العلمانية الجديدة أعمق الأثر على اليهود حتى وصلت إلى المدارس الدينية ذاتها .

وقد نشأ إحساس عام لدى اليهود بأن الحكومة تأخذ مسألة الدمج بشكل جدى ومعقول ، فاشترك اليهود فى الحياة الروسية العامة وظهر من بينهم عازفون موسيقيون ونشأت طبقة من التجار الأثرياء والمثقفين الداعين للدمج والترويس أسست جمعية تنمية الثقافة (الروسية) بين يهود روسيا (١٨١٣) . وقام كبار الممولين اليهود ببناء الطرق والقلاع والسكك الحديدية وبتزويد الجيش بالتموين والغذاء . وامتلكوا المناجم وصناعات الطعام والنسيج وتصدير الأخشاب وساهموا فى تأسيس المصارف الجديدة (وكانت هذه الطبقة تتركز فى سانت بطرسبرج وموسكو واوديسا ووارسو) . وكان من أقطابها اسرة جونزبرج وبولياكوف الذين اعتبروا أنفسهم قيادة الجماعة اليهودية . وقد ارتبطت هذه الطبقة بالمثقفين اليهود الروس من المشتغلين بالمهن

الحرة ومحررى الصحف والعلماء والكتاب ، وكانت ثقافة هذه الطبقة والشرائح المحيطة بها روسية تماما . ويلاحظ أن عددا كبيرا من الشباب اليهودى فى هذه المرحلة بدأوا يعملون كضباط فى الجيش الروسى .

وقد ساهمت هذه الجيوب الحديثة فى عملية تحديث بقية يهود روسيا فقد كانوا يرفضون الحديث باليديشية وكانوا يتعاونون مع الحكومة فى عملية التحديث ، ويساهمون فى نشر الثقافة الروسية بين اليهود . ومع هذا ونظرا لوضعهم الطبقى المتميز كانوا منعزلين عن بقية الجماهير اليهودية التى كانت تدفع وحدها ثمن التحديث ويجنون هم ثمراته .

ومما ساعد على ازدهار اليهود داخل منطقة الاستيطان أنه لم تحدث أى حروب فى هذه المنطقة فى الفترة من ١٨١٢ ـ ١٩١٤ ، كما أن وجود يهود روسيا داخل إمبراطورية واحدة سهل عملية الحركة بين الجماعات المختلفة وأكد تماسك الجماعة اليهودية . وقد تزايد عدد يهود روسيا بسرعة تفوق معدل زيادة السكان ، ففى عام ١٨٢٥ بلغ عددهم ١,٦٠٠,٠٠٠ (أى ٣٪ من كل سكان الإمبراطورية و١٢٪ من سكان المناطق التى تواجدوا فيها) وفى عام ١٨٥٠ بلغ عددهم ٢,٣٥٠ مليون . وفى عام ١٨٨٠ بلغ عددهم اربعة ملايين أى أن عددهم قد زاد حوالى ١٥٠٪ خلال حوالى ٥٠ عاما .

ولكن محاولات الدمج لم يقدر لها النجاح لأسباب عدة من أهمها مايلى :

١ ـ خلق الانفجار السكانى آنف الذكر فائضا بشريا

ضخما لم يكن من الممكن توفير فرص العمل والتعليم الكافية له . كما أن الانفجار السكانى كان يخلق تجمعات يهودية كثيفة يتعامل من خلالها أفراد الجماعة مع بعضهم البعض دون حاجة للعالم الخارجى الأمر الذى كان يقلل معدلات الاندماج .

٢ ـ كما يلاحظ أن عملية التحديث ذاتها كان لها جوانب سلبية عديدة ، فحظر الاتجار فى الخمور على اليهود كان يهدف إلى تقليل الاحتكاك بين اليهود والفلاحين ، ولكنه مع هذا حرم آلاف اليهود من مصادر الدخل الوحيدة المتاحة لهم ، فقد كان منهم الصناع والموزعون والتجار . كما أن إنشاء السكك الحديد (التى مولها كبار الرأسماليين اليهود كما تقدم) قضت على مصادر الدخل الأساسية لآلاف اليهود الذين كانوا يعملون فى صناعة وتجارة العربات التى تجرها الخيول .

٣ ـ ومما عقد الأمور أن عملية عتق اليهود تزامنت مع عتق الأقنان ، مما جعل رقعة الأرض المتاحة للزراعة ضيقة للغاية خاصة وأن التاجر والمرابى اليهودى لم يكن من السهل تحويله إلى مزارع . وادى عتق الاقنان ايضا الى وجود عمالة رخيصة فى السوق الأمر الذى أدى إلى طرد اليهود من كثير من وظائفهم التقليدية وإلى انحدارهم إلى مستوى الطبقة العاملة وتحولهم الى عمال (مع ملاحظة أن مستوى اليهود المعيشى حتى فى أكثر أيامهم فاقة وفقرا كان أعلى بكثير من مستوى القن الروسى أو القن البولندى) .

٤ ـ كلما كانت تزداد معدلات التحديث كانت عملية التكيف

مع الاقتصاد الجديد تزداد صعوبة ، الأمر الذى كان يزيد من ضحايا التقدم ـ ففى مرحلة ما قبل ١٨٨٠ خففت من آلام الانتقال إلى النمط الرأسمالى فى الانتاج ان هذا النمط فى مراحله الأولى كان يحتفظ بأشكال انتاج بسيطة (غير متقدمة) مما أتاح لعدد من اليهود أن يجدوا مجالا رحبا للعمل فى التجارة فى المدن الصناعية الجديدة وفى الحرف .

غير أن النمو الرأسمالى لم يتوقف عند هذه المرحلة بل اتسعت رقعة الصناعة لتشمل الصناعة الخفيفة أيضا ، فكان ذلك بمثابة ضربات قاضية دمرت الاقتصاد الاقطاعى ودمرت معه الفروع الرأسمالية الحرفية ، حيث كان اليهود يتركزون بنسبة مرتفعة ، ومن ثم تشابكت عملية تحويل التاجر اليهودى فيما قبل الرأسمالية إلى عامل حرفى أو تاجر رأسمالى مع عملية أخرى وهى القضاء على عمل اليهودى الحرفى . وحيثما كان يتحول اليهودى إلى عامل فإنه كان يواجه منافسة الفلاحين الروس المقتلعين الذين كانوا يقنعون بأجور منخفضة بسبب اسلوب حياتهم البسيط .

ومما زاد الأمور تشابكا وتعقدا أن الحرفى اليهودى كان يعمل فيما يمكن تسميته « بالحرف اليهودية » التى ولدت فى الظروف الخاصة بالمدينة اليهودية (الشتتل) . فالحرفى اليهودى لم يكن يعمل من أجل الفلاحين المنتجين بل من أجل التجار والصيارفة والوسطاء ، ولذلك نجد أن انتاج السلع الاستهلاكية هو الشاغل الرئيسى للحرفى اليهودى ، لكون زبائنه يتألفون من رجال متخصصين بتجارة الأموال والبضائع ، أى غير منتجين أساسا ، أما الحرفى غير

اليهودى فان ارتباطه بالاقتصاد الزراعى جعله لاينتج سلعا استهلاكية ، لأن الفلاح كان يكفى نفسه بنفسه ، وهكذا إلى جانب الفلاح كنا نجد الحرفى غير اليهودى (الحداد) وإلى جانب رجال المال اليهودى كنا نجد الحرفى اليهودى (الخياط) . وقد ساعد على تطور الحرفى غير اليهودى ارتباطه بالتاجر المسيحى الذى كان يوظف أمواله فى حرف متخصصة غير مرتبطة بالنظام الاقطاعى مثل نسيج الأصواف ، وهى حرف كان الغرض منها الانتاج للتصدير وليس للاستهلاك المباشر ، أى أنها حرف كانت تقع خارج نطاق النظام الاقطاعى وتمثل نواة الاقتصاد الجديد ، وبالتالى لم تسقط مع الاقتصاد القديم . وقد انعكس هذا الوضع على أعضاء الطبقة العاملة من اليهود ، فالحرف الأقل قابلية للتطور إلى صناعة كانت محصورة فى أيدى الحرفيين اليهود . على حين انحصرت المهن الأكثر قابلية لهذا التطور فى ايدى الحرفيين غير اليهود .

٥ ـ وقد قويت شوكة الطبقة الوسطى الروسية ، خاصة بعد تدفق رؤوس الأموال الأوربية الغربية على روسيا ، بحيث فتحت آفاقا جديدة أمامها ، وأصبحت قوة اقتصادية لها وزنها ، يمكنها التفاهم مع البيروقراطية الحكومية التى كانت تحابيها وتعطيها الأولوية والأفضلية . وقد تسبب كل هذا فى إضعاف الطبقة الوسطى اليهودية الروسية وصغار الممولين اليهود .

٦ ـ أدى القضاء على ثورة بولندا عام ١٨٦٣ إلى حرمان آلاف اليهود ممن كانوا يعملون فى نظام الأرندا كوكلاء للنبلاء البولنديين (الشلاختا) من وظائفهم .

٧ ـ وفى الحالات القليلة التى كان يحقق فيها بعض اعضاء الجماعة مكانة مرموقة أو حراكا اجتماعيا كانوا يصبحون محط الحقد الطبقى في وقت كانت الضائقة الاجتماعية آخذة فى التزايد . ومن هنا اتهام اليهود بالسيطرة الاقتصادية واستغلال غير اليهود ومن هنا صورة اليهودى كرأسمالى جشع .

٨ ـ ولكن من المفارقات أيضا أن عددا كبيرا من اليهود سقطوا ضحية التقدم وتحولوا إلى أعضاء فى الطبقة العاملة الحضرية التى فقدت جذورها الثقافية ونمط حياتها وانتماءها الدينى ومصدر حياتها ، وقد بلغ الفقر درجة أن ثلث يهود روسيا كانوا يعيشون على معونات المنظمات اليهودية الغربية . وكل هذا يعنى أن الجماهير الفقيرة لم تكن مستفيدة تماما من عمليات التحديث ولم تكن ترى فيه حلا لمشاكلها الحضارية ، ولذا التفت قطاعات كبيرة منهم (خاصة صغار التجار) حول القيادات الحسيدية التى منحتها شيئا من الطمأنينة فى عالم لم تكن تفهمه ، ويميد من تحت اقدامها .

٩ ـ أما بالنسبة للعمال اليهود الروس وللمثقفين العلمانيين فقد أدى تردى وضعهم إلى انخراطهم بمعدلات كبيرة فى صفوف الحركات الثورية خاصة وأن مستواهم الثقافى كما تقدم كان أعلى من مستوى الاقنان . ففى عام ١٨٩٩ كانت نسبة اليهود فى الحركات الثورية تبلغ ٢٤,٨٪ وأحيانا ٣٠٪ فى وقت كانت نسبتهم إلى عدد السكان ٤,١٪ .

١٠ ـ ويمكن أن نضيف بعض العناصر الثقافية التى أدت إلى فشل عملية التحديث من بينها انها كانت تتم رغم انف

اليهود ، وقد بدأت هذه العملية بقضها وقضيضها من داخل المجتمع الروسى ، لا من داخل الجماعة اليهودية ، التى ظلت رافضة لها ولحركياتها . وقد لاقت مقاومة شديدة من جانب الجماهير اليهودية المختلفة التى رفضت ارسال اطفالها للمدارس الروسية العلمانية ، خاصة وأن عملية التحديث ، كما تقدم ، كانت تخسيرها اقتصاديا فى كثير من الأحوال وتحولها إلى طبقة عاملة حضرية مفتقدة المعنى الذى كانت تجده فى وجودها التقليدى .

١١ -- قامت الدولة الروسية الاستبدادية الملتصقة بالكنيسة الأرثوذكسية المتعصبة ، بالاشراف على عملية التحديث ، وقام بتنفيذها بيروقراطية روسية ضيقة الأفق ، مرتشية ، ليس لها خبرة كبيرة باليهود وبأمورهم فامبراطورية القياصرة كانت تحظر على اليهود دخولها ، وكانت عملية التحديث تتم داخل اطار فكرة القومية السلافية (الروسية) التى كانت تصدر عن منطلقات عضوية ضيقة تفترض التفاوت بين الناس وأن السلافية (أو الروسية) خاصية لا يكتسبها المرء وانما يولد بها (على عكس فكرة القومية الليبرالية فى بلاد غرب أوروبا) . وقد تمت عملية التحديث هذه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الذى شهد انتكاسة الفكر الليبرالى فى أوروبا بشكل عام وظهور الفكر السياسى الرجعى بشكله الرومانسى .

وقد نجم عن ذلك تصاعد معاداة اليهود الذين اصبحوا بؤرة تصب فيها احقاد ضحايا التحديث من راسماليين روس يخافون منافسة الراسماليين اليهود إلى طبقة عاملة روسية

يرى أعضاؤها « الرأسمالية اليهودية » واقفة ضدهم ، اما اليهود من ابناء الطبقة العاملة فقد وجدوا أنفسهم فى عزلة عن الطبقة العاملة الروسية . وكان أعضاء النخبة الروسية الثقافية ينقسمون الى قسمين : ثوريين يرون الانعزالية اليهودية كشكل من اشكال الرجعية المعادية للثورة ومحافظين (من بنيهم دوستويفسكى) يرون اليهودى رمزا لاقتحام الغرب والافكار الغربية لامهم روسيا السلافية . ووجد اليهود أنفسهم فى مجابهة كنيسة ارثوذكسية تخشى العلمانية التى كان اليهود اهم دعاتها كما تخشاهم باعتبارهم اعداء المسيح ، وحكومة روسية رجعية وجدت أن الثوريين الروس فى كل مكان يضمون أعدادا متزايدة من اليهود ، وظهرت كتابات معادية لليهود من اهمها كتاب جيكوب برفمان (يهودى متنصر) اسمه كتاب القهال (١٨٦٩) وظهرت فكرة الحكومة اليهودية العالمية ومنشورات اخرى عن التلمود وتهمة الدم (أى إتهام اليهود بأنهم يذبحون طفلا مسيحيا ويخبزون فطير عيد الفصح بدمه) . وعلى الرغم من أن هذه الأفكار ظلت على السطح دون تأثير قوى إلا أنها بدأت تؤثر فى تفكير اعضاء البيروقراطية ثم اخذت شكل مذبحة ضد اليهود فى اوديسا ١٨٧١ ، ووجهت تهمة دم عام ١٨٧٨ (ولكن المتهم برىء بعد محاكمته) .

ويجب أن نبين أن الجماعة اليهودية لم تكن وحدها هى المستهدفة وإنما كانت عنصرا واحدا فى بانوراما اجتماعية اقتصادية ، فقد بدأ المناخ العام فى روسيا يتغير ومع تصاعد عملية التحديث (وتعثرها) ، زاد ضحايا التقدم وزادت معها الهجمات علي كل الغرباء من أعضاء الاقليات سواء من

الأرمن أو المسلمين أو اليهود أو حتى المسيحيين من غير الارثوذكس والاوكرانيين . فالتحولات الاقتصادية كانت ذات طابع بنيوى عميق ، لم يواكبها أى تحديث فى الأشكال السياسية للمجتمع . ومن الواضح أنه مع نهاية السبعينيات من القرن الماضى كان المجتمع الروسى قد وصل الى طريق مسدود لم يكن من الممكن له تجاوزه ولم يكن من الممكن استئناف التحديث إلا عن طريق ثورة اجتماعية .

ولعل أكبر دليل على تعثر محاولات الدمج والتحديث انه على الرغم من تصاعد معدلات التحديث الاقتصادى ، كان الهرم الوظيفي لأفراد الجماعة لايزال دون تغير كبير إذ كان ٣٨٪ من أفراد الجماعة يعملون بالتجارة و٣٥٪ يعملون بالحرف (اليهودية) والصناعات المرتبطة بها و٣٪ فقط يعملون بالزراعة ، ولذلك كانت عملية اغتيال القيصر الاسكندر الثانى عام ١٨٨١ - على يد مجموعة من الشباب الروسى الثورى من بينهم يهودية ملحدة - تعبيرا عن المشاكل البنيوية العميقة التى يواجهها المجتمع الروسى ، خاصة مشكلة التناقض بين البنية الاقتصادية المتطورة والأشكال السياسية والاجتماعية المتحجرة ، فشكلت لجنة لاعادة النظر فى المسألة اليهودية ، أعلنت فشل السياسة التسامحية ، أى فشل عملية التحديث القيصرية .

لم تقدم الحكومة القيصرية أية صيغ عقائدية تساهم فى تقليل آلام الانتقال وفى توسيع نطاق المشاركة فى تسيير دفة الحكم . بل إنه مع اعتلاء الاسكندر الثالث الحكم (١٨٨١ - ١٨٩٤) ازداد التشدد والاوتوقراطية خاصة تحت تأثير

بوبيدونستسيف الذى كان يرفض المثل الديمقراطية تماما ، وقد تلقى القيصر نفسه تعليما دينيا تقليديا، كما ظهر عديد من المفكرين الرجعيين مثل كاتكوف وليونتييف الذين طالبوا بضرورة وضع حدود صارمة على الشعب الروسى وضرورة الحد من حرياته من جديد ، فقد نمت روسيا وتطورت ـ فى رأيهم ـ مع نمو التفاوت بين الطبقات فى المجتمع الروسى ، ومع تأسيس نظام الاقنان وتطور الوظائف التى تشغل بالوراثة . وسيطرت تلك الروح الرجعية على جميع مجالات الحياة فى روسيا ووصل أثرها لحياة كل الفئات والطبقات والطوائف ، فأعيدت التشريعات التى تحدد التعليم على أساس طبقى ، واصبح من العسير على أبناء الطبقات الفقيرة أن يلتحقوا بالمدارس . وفى منشور صادر من وزارة التربية معروف باسم منشور « أبناء الطباخين » جاء انه من الواجب عدم قبول ابناء « قائدى العربات والخدم والطباخين واصحاب الحوانيت الصغيرة والغسالات ومن شابههم » . كما زيدت مصاريف الجامعات حتى تقلل من فرص الالتحاق بها امام الفقراء ، وألغى الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية فعين بدلا من القضاه فى الريف « رؤساء قرويون » عادة من طبقة النبلاء يقومون باصدار الاحكام وتنفيذها . وتم تقييد حرية الصحافة تماما ، وطورد اعضاء الطوائف المسيحية التى لاتدين بالارثوذكسية ، وفى كثير من الأحيان كانوا يمنعون تماما من اقامة شعائرهم ، بل وكان يتم خطف اطفالهم منهم . واتضحت السياسة القومية الرجعية فى القيود الشديدة التى فرضت على كل الجماعات غير الروسية ، السلافية منها وغير السلافية الموجودة على الحدود مثل البولنديين ، اذ فرض عليهم برنامج قاس للترويس . وقد

انتهى عصر القيصر بمجاعة وقعت عام ١٨٩١ زادت من بؤس الجماهير .

ولم يكن أفراد الجماعة اليهودية سوى أحد القطاعات البشرية المنكوبة التي وقعت ضحية لعملية القمع الرجعية هذه ، فبدأ عهد الأسكندر الثالث بسلسلة من الهجمات على كثير من مراكز اليهود السكانية واستمرت حوالى ثلاثة أعوام وتأثر بها حوالى ٦٠ ألف يهودى . وقد وقعت الهجمات بعد أن قامت بعض الصحف الروسية الرسمية بشحن الجو ضدهم باعتبارهم مستغلي الفلاحين ، ثم تشكلت لجنة للتحقيق فى الحوادث فتوصلت الى أن نشاط اليهود الاقتصادى هو السبب فى هذه الهجمات ، ولكن لاحظت اللجنة أن سلوك الشرطة والجيش لم يكن فوق الشبهات . ثم شكلت لجنة أخرى لإعادة النظر فى المسألة اليهودية طرحت اقتراحات لاتختلف كثيرا عن اقتراحات وتوصيات اللجان السابقة ، وبناء عليه أصدر وزير الداخلية الكونت إجناتييف قوانين مايو (١٨٨٢) المؤقتة باعتبارها اجراءات استثنائية تنطبق على منطقة الاستيطان تهدف لحماية المواطنين الروس من اليهود باعتبارهم عنصرا اجنبيا غريبا . ولكن ظهرت صعوبات كثيرة عند تطبيق القوانين ، فشكلت لجنة أخرى عام ١٨٨٣ لمناقشتها واستمرت اللجنة الجديدة فى اجتماعاتها لمدة خمسة أعوام وأوصت عام ١٨٨٨ بضرورة رفع القيود عن اليهود وعتقهم ، ولكن البيروقراطية تجاهلت تلك التوصيات وقامت بعملية طرد اليهود من موسكو عام ١٨٩١ وبتحديد عددهم فى المدارس الثانوية والجامعات مما أدى الى سفر

أعداد متزايدة من الشباب اليهودى إلى الخارج حيث تمت عملية تسييسهم وتثويرهم .

ولم يتغير الوضع كثيرا فى حكم نيقولا الثانى (١٨٩٤ ـ ١٩١٨) أخر قياصرة آل رومانوف . وقد شهدت هذه المرحلة تصاعدا فى عملية التحديث والتصنيع لم يواكبها تحديث فى النظام . فشهد عام ١٨٩٢ تصاعدا فى تطور الصناعة الرأسمالية على مستوى لم يسبق له نظير وتضاعف أعضاء الطبقة العاملة . وقد زاد انتاج الفولاذ والبترول ثلاثة أضعاف ، وزاد طول السكك الحديدية من ٢٨ ألفا إلى ٤٩ ألف فرسخ . ورغم السياسة التى اتبعتها الحكومة والتى تهدف الى التقليل من فرص التعليم أمام الفقراء زاد عدد الطلبة فى المدارس وقلت نسبة الأمية ، ففى بلد كانت الأمية كاملة فيها تقريبا فى بداية القرن ، وصل عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة الى ٢٧,٨٪ عام ١٨٩٧ ، وزاد حجم الطبقة العاملة ، فكانت الألوف تهجر القرى وتنضم للطبقة الحضرية .

ولكن من أهم نتائج قوانين مايو أن تدفق يهود روسيا على العالم تزايد بشكل ملحوظ الأمر الذى طرح المسألة اليهودية على العالم الغربى ، وأعطى الفكر الصهيونى دفعة حقيقية ، فهرتزل مؤسس الحركة الصهيونية كان يهوديا مندمجا تماما لا يكترث باليهودية ، ولكن وصول يهود اليديشية (خاصة من جاليشيا) الى فيينا حيث كان يقيم جعله يشعر بالخطر ، فاهتدى إلى أن الصهيونية ستساهم فى تحويل سيل الهجرة

بعيدا عن موطنه النمسا ، حيث يتمتع بالمستوى المعيشى المرتفع والمكانة المرموقة .

فى عام ١٩٠٥ وصل النظام القيصرى إلى قمة أزمته ، وكرد فعل لذلك الوضع زادت النزعات القومية السلافية الروسية وزاد قمع الأقليات والشعوب التابعة ، خاصة غير السلافية ، فتم قمع الأوكرانيين والبولنديين والمسلمين (فى الامارات الإسلامية السابقة) وكذلك أفراد الجماعات اليهودية . ومن أشهر الأحداث التى شهدتها الفترة يوم الأحد الأسود فى ٩ يناير ١٩٠٥ حين قام ٢٠٠ ألف عامل (من الرجال والنساء والأطفال) ويقودهم الاب جابون بالسير إلى قصر الشتاء ليقدموا شكواهم « لأبيهم القيصر » . ولكن بدلا من أن يقابلهم أنهالت عليهم رصاصات الحرس الملكى فحصدت حوالى سبعين منهم وجرحت ما يزيد على الألف .

واستمر الفوران فشهد أكتوبر ١٩٠٥ اضرابا عاما شل الحياة ، فاضطر القيصر إلى أن يمنح الحريات البزلمانية للشعب بعد هزيمة القوات الروسية على يد اليابان ، ولكنه ظل يماطل ويعدل فى القوانين الى أن تم تعديلها بحيث فقدت كثيرا من فعاليتها وظهرت جماعات ارهابية مثل جماعة المائة السود التى قامت باغتيال زعماء المعارضة وبالهجوم على تجمعات اليهود .

وقد بلغ النظام القيصرى نهايته مع ظهور راسبوتين عام ١٩١٢ ومع سيطرته على زوجة القيصر ثم على القيصر نفسه . وراسبوتين ، كما يقول آرون سيمانوفيتش ، سكرتيره اليهودى ، كان شخصية كاريزميه جاء من صفوف الفلاحين

وكان يتلذذ بإذلال أعضاء الطبقة الارستقراطية (خاصة النساء) ولا يعين منهم الا من يروق له أو من يدفع له الثمن . وقد اغتيل عام ١٩١٦ بعد أن قضى على كل العناصر التى كان بإمكانها أن تعالج الأزمة وتتصدى للعاصفة المقبلة .

وقد كان اليهود جزءا من هذه العملية الانقلابية ، فوقعت مذبحة كيشينيف عام ١٩٠٣ (يقال بتحريض من وزير الداخلية فون بليفيه ، وهو أمر غير مستبعد تماما ، فالحكومة القيصرية كانت تلجأ إلى مثل هذه الأساليب فى قمع معارضيها) ، وكانت مذبحة كيشينيف جزءا من سلسلة من الهجمات دبرت ضد أفراد الجماعة وغيرهم ، كما وجهت تهمة الدم الشهيرة لبيليس (١٩١١) ولكن العناصر الليبرالية دافعت عنه ، وتمت تبرئته تماما .

وحينما عقدت الانتخابات تم اختيار ١٢ مندوبا من اليهود فى الدوما (البرلمان) ، كما كان هناك عدد كبير من النواب الليبراليين الذين دافعوا عن حقوق اليهود . ولكن التشكيل السياسى الروسى ذاته كان محافظا ، وكانت أكبر الكتل السياسية داخل الدوما ـ اتحاد الشعب الروسى ـ معادية لليهود ، ولذا حين طرح اقتراح بخصوص الغاء منطقة الاستيطان أجل بحثه ، ثم حل الدوما ذاته فى العام نفسه ، وعدلت القوانين الانتخابية ذاتها بحيث تم القضاء تماما على العناصر الليبرالية فى الدوما الذى انتخب عام ١٩٠٧ .

كان تركيب اليهود الوظيفى فى نهاية القرن الماضى (احصاء ١٨٩٧) كما يلى : ٢١,٦٪ يشتغلون بالتجارة ، ٣٧,٩٠٪ يشتغلون بالحرف والصناعات اليدوية (نصفهم

يعمل بالخياطة) و٦,٦١٪ يشتغلون كخدم منازل وعمال يومية ، و٥٪ فى المهن الحرة والادارة ، و٣,٢٪ فى النقل مما يعنى أن عدد اليهود العاملين فى التجارة كان لايزال مرتفعا . وقد سيطر التجار اليهود على تجارة الحبوب داخل منطقة الاستيطان ، كما سيطروا على تجارة السكر والفرو والجلود والماشية ، ومختلف المنتجات الزراعية . وقد ارتفع بعض التجار اليهود الى مصاف كبار الرأسماليين كأصحاب المصارف والوظائف العامة ، واستثمر هؤلاء التجار فى المشاريع الصناعية ، غير أن هذه المشاريع اتسمت بالطابع الاستهلاكى كالنسيج والتبغ ودبغ الجلود والصابون والمطاط وأعمال التقطير وهى كلها بقايا نظام الأرندا البولندى . وكانت هذه المشاريع الصناعية داخل مناطق الاستيطان ، وكثيرا ما كان العمال اليهود ينظمون الاضرابات ضد الرأسماليين اليهود ، كما أنهم هم أنفسهم كانوا فى كثير من الأحيان يفضلون العمال غير اليهود بسبب أنخفاض أجورهم وبسبب عدم وجود ضغوط اجتماعية عليهم من قبل الجماعة اليهودية .

ومن الملاحظ أن تركيز اليهود فى مهن مثل التجارة والصناعة يعنى أنهم كانوا مركزين تماما فى المدن اذ لم يكن يشتغل منهم الا ١,٧٪ فى الزراعة ، وكان هناك ٥,٤٩٪ بدون وظيفة محددة ، وقد وصلت نسبة اليهود الذين يقطنون المدن الى ٨٠٪ .

تركت كل هذه التحولات أعمق الأثر على أفراد الجماعة واستجابوا لها استجابات متباينة حسب وضعهم الطبقى أو مدى استفادتهم من عملية التحول أو مدى تركزهم فى المدن

أو خارجها ، وأولى الاستجابات كانت الاستجابة الثورية اذ انخرط الشباب اليهودى فى صفوف الحركات الثورية بنسبة تفوق بمراحل نسبتهم الى عدد السكان .

ويلاحظ أن الشباب اليهودى كان من أكثر العناصر ثورية بسبب أن ثقافتهم التقليدية كان قد تم القضاء عليها إلى حد كبير ، كما تم اقتلاعهم من بيئتهم التقليدية وألقى بهم فى عالم حديث رموزه القومية مسيحية ، الأمر الذى زاد من غربتهم وحداثتهم ، وعلى عكس الشباب الروسى الذى كان يجد شيئا من الخصوصية ويمارس نوعا من التجذر من خلال القومية السلافية ذات البعد الأرثوذكسى القوى . وعلى الرغم من أن الشباب اليهودى كان قد فقد جذوره الثقافية الروسية ، إلا أنه لم يكن قد استقر بعد في التقاليد الثقافية الروسية . ومما زاد من نسبة الثوريين فى صفوف اليهود تزايد معدلات التحديث الذى حول صغار التجار والحرفيين (الذين كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى لا بأس به) الى بروليتاريا صناعية حضرية تشعر بالهبوط فى السلم الاجتماعى وتمارس احساسا بالاضطهاد الواقع عليها الأمر الذى حولها الى تربة خصبة للأفكار الثورية .

أما الاستجابة الثانية فهى الهجرة ، وقد شهدت هذه المرحلة هجرة على نطاق واسع لم يشهد اليهود مثلها من قبل اذ ترك روسيا فى الفترة من ١٨٨١ الى ١٩١٤ مليونى يهودى (٢,٧٥٠٠٠٠ من كل شرق أوربا) . وقد نتج عن ذلك تحسن نسبى فى مستوى المعيشة ، لأن المهاجرين كانوا يرسلون لأقاربهم وأسرهم بمعونات مالية كما أنه حل مشكلة الانفجار السكانى حلا مؤقتا .

وقد قامت مؤسسات يهودية خيرية فى الغرب بالمساهمة فى تسهيل عملية الهجرة ، فعرض البارون هيرش نقل ٣ ملايين يهودى الى الأرجنتين على أن تقوم بذلك شركة ايكا . ولقد بلغ عدد اليهود الناطقين باليديشية (وفق احصاء ١٨٩٧) ٥,٠٥٤,٣٠٠ ، وكان معظم اليهود مركزا فى منطقة الاستيطان (٤,٨٩٩,٤٢٧) ويشكلون ١١,٦٪ من سكانها . ويلاحظ كذلك وجود ١٠٩,٥٠٠ يهودى غير ناطقين باليديشية من يهود الجبال ويهود جورجيا ويهود بخارى والكرمشاكى .

أما الاستجابة الثالثة ، فهى ظهور الصهيونية بين اليهود بشقيها الشرقى (الاستيطانى) والغربى (التوطينى) . ففى الشرق توقف الحراك الاجتماعى بالنسبة لبعض قطاعات البورجوازية الصغيرة المتعلمة وغيرها من القطاعات اليهودية الأمر الذى أدى إلى إحساسها بالاحباط وبعبث محاولة تحقيق نفسها اثنيا وطبقيا داخل التشكيل السياسى الروسى ، فبدأت فى التفكير فى أشكال أخرى مثل الهجرة إلى الولايات المتحدة (وهو النمط السائد) أو الاستيطان الصهيونى . وقد أدت الهجرة اليهودية (المكثفة) إلى غرب أوربا والولايات المتحدة إلى فزع قطاعات كبيرة من يهود الغرب ، فتبنوا الحل الصهيونى كوسيلة لاغاثة يهود الشرق ولتحويل طوفان الهجرة عن بلادهم أى أنهم تبنوا الصهيونية التوطينية .

ومن أهم الاستجابات الأخرى ظهور اتجاه قومية الدياسبورا (الجماعات) التى كان سيمون دوفنوف أهم مفكريها ، وقد تبنى حزب البوند ، الذى ظهر فى هذه المرحلة ، هذا الاتجاه الذى ينظر لأفراد الجماعة فى شرق

أوربا باعتبارهم قومية لا بالمعنى العالمي العام الذى يضم اليهود فى كل مكان وزمان وإنما بمعنى جماعة قومية شرق أوربية تتحدث اليديشية وتحدد هويتها على هذا الأساس الإثني لا على أى أساس ديني .

والاستجابات الواعية أو النظرية السابقة كان يتم طرحها بينما كانت عملية الدمج اليومية تتم على قدم وساق على مستوى كامن بنيوى ، على الرغم من تعثرها على المستوى الواضح الشكلى .

ولكن ما حدد تاريخ الجماعات اليهودية فى روسيا لم يكن الاستجابات المختلفة لأفراد الجماعات بقدر ما كان تحول ضخم فى تاريخ الأمة الروسية ، وهو الثورة البلشفية .

الفصل الثالث

الدولة السوفيتية والجماعات اليهودية



كان لاندلاع الثورة البلشفية أعمق الأثر على أفراد الجماعات اليهودية على عدة مستويات ، فبعد أن أخذت حدود الاتحاد السوفييتى شكلها النهائى عام ١٩٢٠ كان هذا يعنى أن عدد يهود روسيا الذين كانوا يعيشون داخل مناطق تابعة لدول حصلت على استقلالها من روسيا (بولندا وليتوانيا ولاتفيا وايستونيا وبيساربيا التى ضمت إلى رومانيا) أصبحوا تابعين لهذه الدول . فلم يبق سوى ٢,٦٨٠,٠٠٠ يهودى داخل الاتحاد السوفييتى ، فى مقابل ما يزيد على خمسة ملايين قبل الحرب ، كان ٨٠٪ منهم يعيش فى أوكرانيا وروسيا البيضاء . وقد تركز ٨٧٪ من كل اليهود فى المدن (وتركز ٤٠٪ منهم فى ست مدن على وجه التحديد) . وكان أفراد الجماعة يعملون أساسا بالتجارة . أما بالنسبة لتوزيعهم الجغرافى فيلاحظ أن أوكرانيا كانت تضم ١,٥٧٤,٤٧٨ (٥,٤٪ من عدد السكان) ، وروسيا البيضاء ٤٠٧,٤٢٨ (٨,٢٪ من مجموع السكان) ، والجمهوريات الآسيوية ١٠٩,٨٥ (٠,٤٠٪ من مجموع السكان) . وقد زاد عدد اليهود إلى ما يزيد على ٣ ملايين يهودى عشية الحرب العالمية الثانية .

وكانت من أولى الخطوات التى اتخذتها الحكومة البلشفية عتق اليهود واعطاءهم كل حقوقهم السياسية فأصبحت معاداة

اليهود جريمة تصل عقوبتها إلى الاعدام وحدد الإنتماء العرقى على أساس اختيار المواطن ووفق ما يدلى به كل فرد باختياره المحض ، كما تم الاستناد فى تحديد الانتماء القومى أيضا إلى اللغة التى يدلى بها الفرد بأنها لغته القومية . ولكن الحكومة البلشفية مع هذا أهملت الجوانب الخاصة للمسألة اليهودية فى روسيا وقللت من شأن سماتها المحددة ربما بسبب رؤيتها الثورية الأممية . فلينين ومن بعده ستالين تأثرا بتجربة ماركس الألمانية وبطرحه العالمى للمسألة اليهودية الذى يرى أن ثمة ظاهرة يهودية عالمية واحدة ، وأن ثمة حلا واحدا وهو الثورة الاجتماعية ودمج اليهود ، ففى ألمانيا التى كان يعرفها ماركس لم يكن هناك كتلة بشرية يهودية ضخمة غير متجانسة ، تم كل الطبقات ، وإنما كانت هناك أقلية صغيرة معظم أفرادها من البورجوازية موزعون داخل دولة تسودها أغلبية متجانسة عرقيا ، ولذا كان الاندماج هو الحل الذى تبناه لينين والبلاشفة مع إدخال بعض التعديلات لينطبق على وضع مختلف تماما . فنادى بأنه لا أساس لوجود « أمة يهودية » مستقلة وأن « شعار الثقافة اليهودية هو شعار الحاخامات والبورجوازية ، شعار أعدائنا » . وطرح القضية فى الإطار الألمانى أو غرب الأوربى فوجد أن القضية هى قضية الانعزال والاندماج خاصة بعد تحقيق الثورة الاجتماعية ، وطرح ستالين تعريفه الشهير للأمة ، وقال إن اليهود أمة على ورق . ويلاحظ أن لينين وستالين استخدما اصطلاح أمة « بالمعنى العام للكلمة » تماما مثلما فعل ماركس . ولكن حيث أن التشكيل السياسى الروسى مختلف تماما عن التشكيل السياسى الألمانى وحيث أن وضع الجماعات اليهودية داخله كان متميزا ، فإن تاريخ السياسة

السوفييتية تجاه المسألة اليهودية فى روسيا هو تاريخ التناقض بين الرؤية الماركسية الأممية (الألمانية) والواقع الروسى الخاص .

ولعل أولى القضايا التى أفلتت من يد البلاشفة هى أن لفظة « يهودى » فى الاتحاد السوفييتى كانت تشير إلى عدة مجموعات حضارية ودينية واجتماعية علاقتها بعضها بالبعض واهية . فكانت لفظة « يهودى » تشير إلى :

١ ـ يهود روسيا الذين يتحدثون اليديشية فى المقام الأول ، وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عمال وتجار صغار ورأسماليين كبار وفلاحين . ويلاحظ أن عمر الثقافة اليديشية كان قصيرا للغاية ، فلم يظهر الأدب اليديشى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ولذا لم تثبت اليديشية كثيرا أمام تيارات التحديث وبدأت تظهر عليها أعراض الشيخوخة .

٢ ـ قطاعات من يهود روسيا تتحدث اليديشية ولكنها تكتب مؤلفاتها بالعبرية باعتبارها لغة العبادة فى الماضى واللغة القومية فى المستقبل ، وهؤلاء كانوا أساسا من الصهاينة الذين بدأوا يؤسسون أدبا مكتوبا بالعبرية .

٣ ـ اليهود الذين تم علمنتهم ودمجهم فى المجتمع الروسى ولا يتحدثون سوى الروسية .

٤ ـ يهود من أصل ألمانى يتحدثون الألمانية .

٥ ـ اليهود القراؤون (لايؤمنون بالتلمود) وكانت أعداد

كبيرة منهم تتحدث التركية والتترية إذ يبدو أن هؤلاء هم بقايا يهود الخزر .

٦ ـ يهود جورجيا ويتحدثون اللغة الجورجية وهم مندمجون تماما فى مجتمعهم ولا يمارسون كثيرا من شعائر اليهودية ، ولذا كان يشير لهم جيرانهم اليهود بأنهم « الكنعانيون » .

٧ ـ يهود الجبال ويعيشون فى مقاطعة داغستان السوفييتية يتحدثون لغة التات وهى مشتقة أساسا من اللغة الفارسية وهم مندمجون فى الحضارة الشركسية وتشبه معابدهم المساجد من الخارج .

٨ ـ يهود بخارى ويتحدثون الطاجيكية وهى لهجة فارسية ، وهم متأثرون تماما بالتشكيل الحضارى الاسلامى الذى عاشوا بين ظهرانيه . (انظر الصورة فى بداية الفصل) .

٩ ـ يهود الكرمشاكى الذين يتحدثون اللغة التترية وهى لغة تركية ويبدو أن هؤلاء أيضا من نسل يهود الخزر .

١٠ ـ وكانت لفظة يهودى بطبيعة الحال تشير أيضا إلى كل يهود العالم خاصة يهود ألمانيا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة .

لهذا كان من الصعب بطبيعة الحال إطلاق لفظة « قومية » على كل هذه الجماعات اليهودية التى تتحدث بعدة لغات وتعيش داخل مناطق مختلفة وليس لها أرض مقصورة عليها ربما باستثناء يهود الجبال والمجموعات القبلية الصغيرة الأخرى ، لأنه من الناحية المنطقية المجردة إذا كانوا كلهم لا

يشكلون قومية واحدة ، فهم ليسوا بأمة على الاطلاق . ومع هذا كان من الممكن اعتبارهم جماعات يهودية مختلفة بعضها ليس له هوية اثنية خاصة (مثل يهود انجلترا وألمانيا) والبعض الآخر يتمتع بمثل هذه الهوية بدرجات متفاوتة من الاستقلال . وبدلا من التفكير فى اطار القومية العالمية أو الجماعة الواحدة كان من الممكن التفكير فى إطار الجماعات القومية وغير القومية داخل التشكيل السياسى الروسى ، وكان من الممكن طرح سياسات مختلفة تختلف باختلاف الأوضاع الثقافية للجماعات اليهودية المختلفة ، وهو مالم يفعله السوفييت فى بادىء الأمر ، وان كان الواقع قد فرض عليهم تعددية الحلول بعد أن ظلوا يتخبطون بين طرح القضية أولا فى إطار الاندماج والانعزال ، ثم فى إطار الهوية الثقافية اليهودية الشرق أوربية المستقلة داخل الإطار الاشتراكى .

شهدت الشهور الأولى للثورة اندلاع الحرب الأهلية فى عدة مناطق من أهمها منطقة أوكرانيا الحدودية التى كانت تحارب فيها عدة جيوش من بينها الجيش الأوكرانى القومى تحت قيادة بتليورا وعصابات الفلاحين التابعين له والجيش الأحمر الذى كان يضم وحدات أوكرانية وجيوش صغيرة وقوات أخرى . وقد لجأت القوات السوفييتية لإستخدام العنف ضد الفلاحين خاصة وأن سياسة مصادرة الحبوب ادت الى تمرد العناصر الفلاحية الأوكرانية التى رأت فى اليهود عناصر مقترنة بالنظام السوفييتى الجديد وبالسلطة الحاكمة فهاجمتها كما هاجمتها قوات بتليورا . وقد أدى كل هذا إلى التفاف اليهود حول الثورة (وقد حلت تنظيمات يهودية اشتراكية كثيرة نفسها وانضمت للثورة بينما تعاون الزعيم الصهيونى جابوتنسكى مع بتليورا وعصاباته) .

وانضم الشباب اليهودى فى أوكرانيا وغيرها من المناطق للجيش الأحمر الذى أسسه ليون تروتسكى وكان من قادته البارزين زينوفييف وسفيردلوف فى عام ١٩٢٦ . وكان عدد الضباط اليهود ٤,٤٪ من مجموع ضباط الجيش الأحمر ولعب اليهود دوراً مهما فى اعادة بناء الهيكل الأدارى للدولة الجديدة بعد أن هاجرت أعداد كبيرة من المثقفين والموظفين الروس البيض الى الخارج .

ولكن وعلى الرغم من عتق اليهود سياسيا فإن سياسة النظام السوفييتى الاقتصادية قد تسببت موضوعيا فى اقتلاع كثير من أفراد الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى وتغيير نمط حياتهم . فالثورة البلشفية ـ كما كانت تطلق على نفسها ـ ثورة عمال وفلاحين ، واليهود لم يكونوا لا عمالا ولا فلاحين ، وحتى أعضاء الطبقة العاملة من اليهود كانت نسبتهم صغيرة ولم يكونوا مرتبطين بالطبقة العاملة الروسية ارتباطا حضاريا ولا حتى اقتصاديا اذ تركزوا فى المصانع الصغيرة والحرف اليدوية وقطاعات معينة من الصناعات الاستهلاكية ، كما أن الظروف فرضت عليهم الارتباط الى حد كبير بالرأسماليين اليهود الصغار . أما بقية اليهود من اعضاء البورجوازية الصغيرة والكبيرة فهؤلاء اما يمتلكون صناعات استهلاكية او يضطلعون بدور الوسيط التجارى (فى المدن الصغيرة) .

وقد أدت الممارسات البلشفية الاقتصادية الى اكتساح الاساس الاقتصادى لوجود الكتلة البشرية اليهودية وتركزها فى مناطق معينة فانفرط عقدها وبدأت عملية ذوبانها

التدريجى وهى عملية استمرت حتى صفيت معظم التجمعات السكانية اليهودية داخل منطقة الاستيطان .

وقد شهدت مرحلة شيوعية الحرب (١٩١٨ ـ ١٩٢١) العديد من القرارات الاقتصادية ذات الطابع الثورى مثل تحويل أجور المستخدمين إلى أجور عينية وإجبار المزارعين على تسليم منتجاتهم من المواد الغذائية ، كما اتخذت قرارات آخرى كان لها تأثير مباشر على اليهود مثل تأميم الصناعة والتجارة وفرض العمل الاجبارى على البورجوازية .

ثم عدلت الحكومة السوفييتية مؤقتا عن سياسة شيوعية الحرب وتبنت السياسة الاقتصادية الجديدة المعروفة بالنيب NEP (١٩٢١ ـ ١٩٢٧) التى سمحت باشكال من الاستثمار الخاص والنشاط التجارى والمصانع الصغيرة وكان اليهود من كبار المستفيدين من هذه السياسة الجديدة . أما توزيعهم الوظيفى لعام ١٩٢٦ فكان كما يلى :

١٩,١٪ فى التجارة (كان ثلث المحلات فى موسكو عام ١٩٢٤ يملكها يهود) ، ٣٤,٣٪ فى الصناعة والحرف و٩,٢٪ فى الزراعة و١٠,٢٪ وظائف ادارية ومهنية . وعلى الرغم من أن عدد العاملين بالزراعة قد وصل الى ٩,٢٪ (بالقياس الى ٢,٦٪ حسب احصاء عام ١٨٩٧) فإن نسبة المشتغلين بالتجارة كانت مرتفعة . كما يلاحظ أن حوالى ٢٧٪ من العاملين اليهود كانوا غير مصنفين وظيفيا ويرجع ذلك إلى أن غالبية هؤلاء كانوا يمارسون التجارة والمضاربات سرا وتحت ستار أعمال آخرى .

أدى كل ذلك إلي ظهور طبقة رجال النيب فى المدينة (والكولاك فى القرية) مما كان يهدد الأساس الاقتصادى للنظام الجديد ، وعلي الرغم من أن التجارة كانت مهنة مشروعة فإن الدولة البلشفية الجديدة لم تكن سعيدة بهذا التطور ، اذ كانت تنظر بعين الشك لكل القطاعات الاقتصادية المستفيدة مثل رجال النيب .

ومع بدء تطبيق الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٧ - ١٩٣٢) تم التراجع عن هذه السياسة التى تشكل بداية عملية التذويب الحقيقية لأفراد الجماعة ، فحسب احصائيات العشرينيات كان ثلث اليهود الذين ينتمون لطبقات اقتصادية مثل طبقة صغار التجار محكوما غليها بالاختفاء نتيجة لاعادة صياغة الاقتصاد السوفييتى . ويقال إن خوالى ١,١٢٠,٠٠٠ يهودي اضطروا إلى إغلاق تجاراتهم الصغيرة فزاد عدد العاطلين عن العمل عن مليون نسمة إتجهت أعداد منهم إلى التعامل فى السوق السوداء .

وقد قرر الاتحاد السوفييتى حل مسألته اليهودية عن طريق عمليتين مختلفتين متناقضتين وان أدت كل واحدة منهما ، على طريقتها ، إلى دمج أعضاء الجماعة .

اما الأولى فهى سياسة توجيه اليهود نحو الزراعة والاستيطان الزراعى وهى استمرار لمحاولات الحكومة القيصرية تحويل اليهود لعنصر منتج . وأسست لجنة توطين اليهود فى الأراضى الزراعية (كومزيت) وتم اختيار بعض مراكز الاستيطان الزراعى السابقة حيث كان يوجد ٤٠ ألف فلاح يهودى (فى جنوب روسيا او روسيا الجديدة) .

واختيرت شبه جزيرة القرم حيث كانت توجد مناطق صالحة للاستيطان الزراعى . وقد ساهمت المنظمات الغربية الامريكية الاستيطانية مثل ايكا ولجنة التوزيع المشتركة فى هذه العملية ، فزاد عدد المزارعين اليهود زيادة هائلة ، وزادت الرقعة الزراعية التى يشغلونها أربعة أضعاف ، وبلغ عدد المزارع التعاونية اليهودية ٥٠٠ مزرعة حتى أواسط الثلاثينيات ، وهى الفترة التى وصلت فيها التجربة إلى قمة ازدهارها . ووصل عدد اليهود العاملين بالزراعة الى ١٥٥ الف مزارع يهودى عام ١٩٢٦ (٦٪ من العاملين اليهود) ثم زاد الى ٢٢٠ الف عام ١٩٢٨ (أى ٨,٥٪) ثم إلى حوالى ٣٠٠ الف فى اوائل الثلاثينيات اى حوالى ١٠,١٪ (ويلاحظ ان اضطلاع اليهود بالعمل فى الزراعة لايعنى بالضرورة العمل اليدوى وانما يعنى فى الواقع قطاع الزراعة ككل بما فى ذلك الاعمال الكتابية والادارية التى كان يتركز فيها أفراد الجماعة اليهودية) . ولكن بعد فترة توصل المسئولون السوفييت إلى أن شبه جزيرة القرم لاتوجد فيها أرض زراعية كافية كما ان التوطين الزراعى يؤدى الى زيادة التماسك العائلى مما يدعم من عملية الانفصال اليهودى ، ويقال أيضا إن القيادة السوفييتية وجدت ان شبه جزيرة القرم منطقة مهمة من الناحية الاستراتيجية تقع على مقربة من غرب اوروبا وقد يؤدى تركيز العنصر اليهودى فيها إلى خلق مشاكل ذات طابع أمنى فى المستقبل . وقد شهدت الثلاثينيات بداية عملية الزراعة الجماعية والتى كانت أيضا عملية تذويب ، اذ تم ضم عناصر غير يهودية الى الكولخوزات (المزارع الجماعية) اليهودية . وقد أدت كل العناصر السابقة الى القضاء على تجربة الزراعة اليهودية .

وفى عام ١٩٢٨ تقرر أن تكون بيروبيجان هى منطقة الاستيطان الزراعى اليهودى وإحدى وسائل دمج اليهود فى المجتمع السوفييتى على المستويين الاقتصادى والثقافى ، ولكن لم يقدر لهذه التجربة أى نجاح وأدى الغزو النازى إلى تدمير كل المستوطنات الزراعية فى اوكرانيا والقرم ولم يتم تشييدها بعد الحرب .

فشلت تجربة بيروبيجان ، كما فشلت محاولة توجيه اليهود من المدن والتجارة إلى قطاع الزراعة لابسبب طبيعة اليهود التجارية وانعزاليتهم (كما ادعى خروتشوف) وإنما بسبب التحول العميق فى الاقتصاد السوفييتى من الزراعة الى الصناعة وهى إحدى ثمرات مشروع السنوات الخمس الأولى (١٩٢١ ـ ١٩٣٤) وهى عملية متناقضة مع عملية التوطين الزراعى ، ولكنها مع هذا أدت إلى دمج اليهود وتذويبهم ربما بمعدلات أكثر من تلك التى خطط لها السوفييت ، ولأن مشروع السنوات الخمس أكد على أهمية التنمية الصناعية وخصص لها الاعتمادات الضخمة زاد الطلب على الأيدى العاملة وفتحت الفرص امام اليهود أن يتحولوا لعنصر منتج من خلال الصناعة . وقامت المنظمات اليهودية مثل ايكا وامرت (جمعية تشجيع الحرف اليدوية) ولجنة التوزيع المشتركة بفتح مدارس لتدريب اليهود على الحرف . كما قامت حكومات اوكرانيا وروسيا البيضاء بوضع خطط لتدريب الشباب اليهودى على الصناعة . ونجحت هذه الخطط فى توفير اعمال فى القطاع الصناعى والحكومى لآلاف اليهود خارج منطقة الاستيطان ، ولم يكن هناك اى بطالة بين اليهود بحلول عام ١٩٣٠ ونشأت من صفوف اليهود طبقات جديدة من موظفى ...

الحكومة والعاملين فى المشاريع الصناعية . ونتيجة لهذه التحولات تزايدت هجرة اليهود الى داخل روسيا والى المدن ، وكانت هذه هى أكبر هجرة يهودية منذ التدفق اليهودى اليديشى الى امريكا فى نهاية القرن السابق . وقد أدت هذه الهجرة ، مثل الهجرة الى الولايات المتحدة ، إلى دمج اليهود واستيعابهم وحل المسألة اليهودية . ويظهر مدى راديكالية هذه العملية فى الزيادة الملحوظة فى عدد اليهود فى اكبر مدينتين روسيتين ـ موسكو ولنينجراد ـ اللتين كانتا تضمان ٢٦,٠٢٤ يهوديا وحسب عام ١٨٩٧ ، اصبح عدد اليهود فيهما بعد حوالى ٤٠ عاما ٥٧٥ ألفا .

وكل هذا يعنى فى واقع الأمر زيادة تحلل المراكز السكانية الضخمة اليهودية ، وتوزيع سكانها ، وكان ٧٦٪ من يهود روسيا فى أوكرانيا عام ١٩٢٦ انخفض الى ٦٢٪ عام ١٩٣٩ وهو اتجاه استمر حتى العصر الحديث ، وقد تغير وضع اليهود الوظيفى اذ اصبح عدد العمال ٣٠,٦٪ والحرفيين ١٠,١٪ والفلاحين فى الكولخوزات ٥,٨٪ و٤٠,٦٪ فى أعمال كتابية ، ٢,٩٪ وظائف أخرى (عام ١٩٣٩) . ويلاحظ ان الوظائف الكتابية حلت محل التجارة كأهم وظيفة يضطلع بها اليهود، وتضم الوظائف الكتابية فى الاتحاد السوفييتى المؤلفين والعلماء والمثقفين والموظفين الحكوميين ، وكان عدد اليهود العاملين فى تلك الوظائف ٣٦٤,٠٠٠ منهم ١٢٥ الف محاسب .

اما من الناحية الثقافية ، فقد كان الاتجاه العام نحو الدمج الثقافى أو تأكيد الثقافة اليديشية العلمانية اللادينية التى لاعلاقة لها بالثقافة الدينية التقليدية . وقد انشأت الحكومة

السوفييتية عام ١٩١٨ قسما خاصا للشئون اليهودية يسمى القسم اليهودى (يفيسكتسيا) (حل عام ١٩٣٠) . وحيث أن أعضاء الحزب اليهود كانوا من دعاة الاندماج فان هدف القسم اليهودى كان « فرض ديكتاتورية البروليتاريا بين الجماهير اليهودية » . وقد انضم لهم قطاعات من البوند وعمال صهيون وحزب العمال اليهودى المتحد الذين طالبوا بتشجيع اليديشية كوسيلة للتعبير عن ثقافة يهودية علمانية معادية للدين اليهودى وللعبرية وللتوراة (وقد قام القسم اليهودى بتصفية اطر تعليمية تقليدية متبقية بين اليهود من مدارس وخلافه ، ومنع تدريس العبرية وجرم النشاط الصهيونى) . وتم الاعتراف باليديشية كلغة رسمية وأصبحت إحدى اللغات المعترف بها فى المحاكم وتدار بها المحاكمات ، وشجع الادب اليديشى خاصة المسرح اليديشى وشهدت الفترة بشكل عام ازدهارا حقيقيا لهذا الأدب ، وأسست شبكة من المدارس الابتدائية والثانوية لغة التدريس فيها اليديشية ، وكليات تربوية لاعداد مدرسين لليديشية . وقد وصل عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس الى ٥١٪ من مجموع كل الطلاب اليهود عام ١٩٢٦ ، ولكن العدد بدأ فى الانخفاض التدريجى مما يبين أن الانصراف عن اليديشية وتقبل الترويس (وهى العملية التى بدأت فى حكم القياصرة) اصبحت عملية تلقائية تنبع من الحركيات الداخلية لأفراد الجماعة ، الذين كانوا يفضلون ارسال اطفالهم للمدارس الحكومية الروسية ، لأن ذلك كان يعنى زيادة فرص الحراك امامهم . ولذا نجد أن أعداد الطلبة اليهود فى مدارس أوكرانيا وروسيا البيضاء أخذت فى التزايد ، واخذت الثقافة اليديشية فى الاختفاء التدريجى خاصة مع تغير وضع اليهود

الوظيفى وهجرتهم من مراكز التجمع التقليدية إلى المدن وابتعادهم عن مراكز الثقافة اليديشية أو التقليدية .

ولذا انصرف كثير من اليهود عن التحدث باليديشية أو دراستها وانصرف كثير من الكتاب اليهود الروس عن الكتابة بهذه اللغة وبدأوا يكتبون بالروسية . وتناقص عدد الطلبة اليهود الذين يدرسون في المدارس اليديشية الى ٣٣٪ عام ١٩٣١ ثم الى الى ٢٠٪ عام ١٩٣٩ ، واغلقت عدة مدارس يديشية ابوابها لعدم وجود طلبة . وعبر الاندماج عن نفسه فى زيادة نسبة الزواج المختلط فى الثلاثينيات الى ٢٥٪ من مجموع الزيجات اليهودية . ويلاحظ ان معدلات الاندماج بين الشباب كانت اعلى بكثير من مثيلتها بين المتقدمين فى السن . ويمكن القول إن العقيدة اليهودية لم تعد احد اشكال التضامن بين أفراد الجماعة الذين بدأت عملية علمنتهم فى منتصف القرن الماضى ثم تصاعدت مع نهاية القرن ، ثم أخذت شكلا عقائديا واعيا وحادا مع ظهور الدولة السوفييتية .

وقد بلغ عدد اليهود عام ١٩٣٢ حوالى ٢,٨٧٠,٠٠٠ بزيادة قليلة نسبيا عن عام ١٩٢٦ ، نتيجة تسارع تدفق اليهود نحو المدن وعدم توافر الزمن الكافى للاستقرار والزواج ، إضافة الى ماتحمله الحياة في المدينة من تعقيدات حياتية تقلل من فرص الانجاب . وقد بلغت الزيادة الطبيعية بين اليهود ١٪ في مدن روسيا بينما وصلت ٢,٥٪ فى الجمهوريات الاسيوية . وحسب إحصاء عام ١٩٣٩ ، بلغ عدد اليهود نحو ٣,٠٤٠.٠٠٠ أى بزيادة مقدارها ٣٠٠ الف . وقد لاحظ سيمون دفنوف عام ١٩٣٥ (عشية الحرب العالمية

الثانية) أن أفراد الجماعة قد انفصلوا تماما عن تاريخهم ، وتنبأ بأنهم سيصبحون مواطنين سوفييت ، وليسوا يهودا ، الأمر الذى اثبتته التطورات التاريخية اللاحقة . ولم تترك حملة التطهير التى شنها ستالين بين عامى ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ ضد كوادر الحزب الشيوعى وقياداته ، والتى شملت العديد من أفراد الجماعة اليهودية مثل زينوفييف وكامينيف وراديك وغيرهم ، لم تترك أثرا ملحوظا على غالبية اليهود الذين كانوا ينظرون الى مايجرى بانه صراع بين ستالين ومعارضيه ، وبين الستاليتية والترتسكية ، وهو الأمر الذى كان لايعنيهم كثيرا .

ضمت روسيا عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ أراضى تضم اعدادا كبيرة من اليهود (جاليشيا الشرقية وليتوانيا وبيساربيا وبوكوفينا وغيرها) . وقد رحبت الجماهير اليهودية بالضم السوفييتى إذ وجدت فيه حماية لها من الغزو النازى الوشيك . ولكن مع عام ١٩٤١ قامت القوات النازية بطرد الاتحاد السوفييتى ذاته من هذه المناطق ثم ضمتها لألمانيا ، فهرب ما يزيد على مليون يهودى منها وبذلت الحكومة السوفييتية مجهودا غير عادى لنقل اليهود وأعطت الأولوية لهذه العملية (وقد ساهم ذلك بدوره فى عملية اقتلاع اليهود من مناطق تجمعهم التقليدية) . أما بقية أفراد الجماعة فقد سقطوا فى يد النازى ـ حيث تم ابادتهم باعتبارهم « اوست يودين » (يهود شرق أوروبا) الذين يمثلون « القاعدة البيولوجية » للشعب اليهودى فى كل العالم . كما تمت ابادة أعضاء بعض الطوائف والأقليات الأخرى . وقد شهدت السنون التى تلت

الحرب مباشرة ، فترة الارهاب الستالينى ، الذى يقال إنه كان له نبرات عنصرية واضحة ومعادية لليهود .

ومع هذا يمكن القول إن عملية الدمج والترويس قد اصبحت حركياتها داخلية تنبع من داخل الجماعة ذاتها وليست مفروضة عليها من قبل الحكومة من الخارج ومن ثم أخذت فى التسارع واصبح الدمج اندماجا . ولايزال أعضاء الجماعة مركزين أساسا فى المدن الكبرى ، ويلاحظ أن عدد اليهود المشتغلين بالزراعة قد تناقض وحتى اولئك الذين يعملون فى الريف فمعظمهم يقوم بأعمال كتابية ، ويلعب أفراد الجماعة دورا متميزا فى المؤسسات التجارية السوفييتية ، كما يلاحظ أيضا أنه فى أواخر الخمسينيات بلغ عدد اليهود العاملين فى التجارة الحرة نصف مليون فرد (من مجموع عدد العاملين فى التجارة من عموم المواطنين السوفييت البالغ عددهم نحو خمسة ملايين) . وهكذا شكل التجار اليهود نسبة ٢٠٪ من كل العاملين بين أفراد الجماعة ونسبة ١٩٪ من مجموع التجار ، بينما لم تزد نسبة اليهود لعدد السكان عن ١٪ . وقد قامت الحكومة السوفييتية فى أوائل الستينيات بحملة ضد النشاطات الاقتصادية غير المشروعة ، وسنت قانونا بمعاقبة مرتكبى الجرائم الاقتصادية بالاعدام ، وتم تنفيذ العقوبة فى عدد من المتهمين بلغ عددهم حوالى ١١٢ تاجرا من تجار السوق السوداء ، كان نصفهم من اليهود .

وقد شهدت أواسط الخمسينيات والسنوات التى تلتها ارتفاعا بالغا فى عدد الطلاب اليهود فى المعاهد العليا

والجامعات مما نتج عنه زيادة عدد المشتغلين من اليهود بالمهن الحرة .

وبصفة عامة يتمتع يهود الاتحاد السوفييتى بأعلى مستوى تعليمى بالمقارنة بسائر القوميات السوفييتية . وتشير احصاءات تعداد عام ١٩٥٩ أن نسبة اليهود الحاصلين على ٧ سنوات من التعليم أو اكثر هى ٦١٣ لكل ١٠٠٠ وهى نسبة فاقت مثليتها بين القوميات الأخرى . كما نجد أن نسبة اليهود الحاصلين على تعليم عالى عام ١٩٥٩ كانت ١٧٩ لكل ١٠٠٠ شخص فوق ١٠ سنوات ، زادت الى ٢٣٩ عام ١٩٧٠ بالمقارنة لـ ٦٢ لكل ١٠٠٠ على مستوى اجمالى السكان السوفييت .

وقد شكل اليهود عام ٥٦ ـ ١٩٥٧ ٤,٢٪ من طلبة الجامعات والمعاهد العليا إلا أن هذه النسبة انخفضت الى ١,٢٪ عام ١٩٧٨ حيث شهدت فترة ٦٥ ـ ١٩٧٨ انخفاضا كبيرا فى أعداد الطلاب اليهود بنسبة ٤٦,٧٪ نتيجة الهجرة الى الخارج وارتفاع متوسط أعمار السكان اليهود وما ترتب عليه من تقلص فى حجم من هم فى السن الجامعى .

ويذكر أيضا أن عدد الطلاب اليهود فى الجامعات والمعاهد العليا السوفييتية جاوز فى أواخر الستينيات ١١٠ آلاف طالب (بينما لم يكن عدد الطلاب اليهود فى الجامعات والمعاهد العليا الاسرائيلية قد جاوز ٣٥ الفا رغم أن العدد الكلى لليهود السوفييت يقل عن عدد اليهود فى إسرائيل) .

ولايوجد اليهود كعمال سواء فى الصناعة او الاعمال الزراعية إلا بشكل هامشى يكاد لا يذكر ، حتى أن

الاحصائيات فى العقدين الاخيرين لاتورد أية احصائيات عن عدد اليهود فى المعامل والمصانع الثقيلة أو الزراعية .

ونجد أن ٣/٤ العاملين من اليهود حاصلين على تعليم عالى ويتجهون الى التمركز فى مهن معينة ، خاصة وأن بعض المهن مثل الجيش والأجهزة الأمنية والخارجية وغيرها مغلقة تقريبا أمامهم .

وقد كانت هناك نسبة عالية من اليهود فى القيادة العليا للجيش السوفييتى خلال الحرب العالمية الثانية إلا أنه خلال أعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ تم تقاعد ٣٢٣ من القيادات العليا من اليهود ، ولم يتبق يهودى واحد عام ١٩٥٣ بين صفوف كبار الضباط .

وقد اتجه اليهود إلى التمركز فى المهن العلمية والحرة مثل الهندسة والطب والعلوم . ففى عام ١٩٦٢ من عام ١٩٦٤ شكل اليهود ١٤,٧٪ من اجمالى الأطباء فى الاتحاد السوفييتى و٨,٥٪ من اجمالى الكتاب والصحفيين و١٩٪ من الموسيقيين و١١٪ من العاملين فى مجالات البحث العلمى . وتدل هذه النسب على أن اليهود اصبحوا يتمتعون بأوضاع اقتصادية متميزة عن بقية شعوب الاتحاد السوفييتى وبشكل أدى الى منح أبناء الفئة التجارية بشكل خاص فرص دخول الجامعات والمعاهد العليا بدلا من أن تضطرهم الحاجة الاقتصادية للتوجه نحو العمل فى المعامل والمصانع ، كما تدل من جهة ثانية على تمتعهم بالمساواة التامة فى الحقوق ، وعلى أنه لم يتم فرض أى قيود للحد من ارتفاع نسبتهم فى الجامعات والمعاهد العليا .

أما فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات فقد انخفضت هذه النسبة حيث شكل اليهود ٤,٥٪ من العاملين فى مجال البحث العلمى و٦٪ من الفن والثقافة والأدب والصحافة ، ٣,٤٪ فى الطب و٦٪ فى القانون و٧,٦٪ من اجمالى العلماء (الحاصلين على درجات علمية عليا) ، ونجد انه كلما زادت الدرجة والمرتبة العلمية كلما زادت نسبة اليهود .

وبالرغم من أن هذه النسب تعرضت للانخفاض فإنه لازال اليهود يشكلون نسبة عالية من المتخصصين فى الاقتصاد القومى والعاملين فى المجالات العلمية إلا أن هذه النسبة تتعرض للتدهور التدريجى وخاصة فى مجال البحث العلمى الذى انخفضت نسبة اليهود العالمين فيه من ١٧٪ عام ١٩٤٧ الى ٤,٥٪ عام ١٩٨٢ . وأسباب هذا الانخفاض هو ارتفاع متوسط أعمار اليهود العاملين عن متوسط أعمار العاملين من السكان السوفييت ، واقتراب الكثير منهم من سن التقاعد وانخفاض أعداد طلبة الجامعة من اليهود الذين يشكلون المصدر الرئيسى لهذه الاختصاصات . وبالتالى يلعب اليهود دورا أقل فى مجال العلوم والبحوث ويتركز غالبيتهم فى المراكز ذات المكانة المتوسطة والدنيا .

أما نسبة اليهود فى الحزب الشيوعى فقد شكلت فى أوائل الستينيات إحدى أعلى نسب القوميات المختلفة فى الحزب . فقد قدرت النسبة بنحو ٣,٥٪ عام ١٩٦١ ، وقد بلغت نسبتهم عام ١٩٨٢ نحو ١,٥٪ وذلك استنادا الى تقدير عدد الاعضاء اليهود بنحو ٢٦٠ الفا وذلك من مجموع أعضاء الحزب البالغ

فى ذلك الحين نحو ١٤ مليون عضوا . ويلاحظ ان دخل اليهودى السوفييتى اعلى من دخل المواطن الروسى .

يلاحظ ان عدد اليهود الكلى أخذ فى التناقص ولعل تركزهم فى المدن وفى المهن الحرة يفسر سر تناقصهم وذوبانهم (كما هو الحال فى الولايات المتحدة حيث تؤدى السمات نفسها الى النتائج نفسها) . واليهود هم « القومية » الوحيدة فى الاتحاد السوفييتى التى تناقص عددها ، فقد قدر عدد اليهود السوفييت بثلاثة ملايين عشية الحرب العالمية الثانية ، ونقص عددهم الى ٢,٢٦٨,٠٠٠ عام ١٩٥٩ (١,١٪ من السكان فى مقابل ٢,٥٪ عام ١٩٤٠) (على الرغم من ضم بضعة آلاف من المناطق التى ضمت من رومانيا وبولندا) . وقد اصبح يهود الاتحاد السوفييتى اقلية حضرية، اذ يوجد ٢,١٦١,٧٠٢ يهودى فى المدن ، ولايوجد سوى مائة ألف يهودى تقريبا فى الريف ، وبعضهم مندوبون للحزب ويعملون بالوظائف الكتابية الحسابية . وقد تناقص عدد أفراد الجماعة عام ١٩٧٠ إلى ٢,١٥١,٠٠٠ أى أقل من الاحصاء السابق بحوالى مائة ألف نسمة ، فإذا اضفنا إلى ذلك مجمل نسبة الزيادة الطبيعية لليهود وهى ٢٥٠ ألفا سيتضح أن نحو ٣٥٠ ألف يهودى قد ذابوا فى المجتمع خلال الستينيات . وحسب احصاء عام ١٩٧٩ بلغ عدد يهود الاتحاد السوفييتى ١,٨١٠,٨٧٦ أى ٠,٦٩٪ من مجموع السكان مما يعنى انه قد نقص عددهم ٣٤٠ ألفا ، هاجر منهم ١٧٧ ألفا (وفى احصائيات أخرى ٢٠٠ الى ٣٠٠ الف) أى انهم تناقصوا حوال ١٦٣ ألفا بفعل العناصر السكانية والاندماج . ويمكن أن نضم الزيادة الطبيعية المحتملة والتى يمكن أن نقدرها

على أنها حوالى ١٥٠ الفا إلى ١٦٣ الفا ، وهذا يعنى أنه قد ذاب حوالى ٣٠٠ ألف يهودى فى حوالى تسعة أعوام .

وفى عام ١٩٨٥ بلغ مجموع اليهود السوفييت ١,٦٠٠,٠٠٠ ثم هبط عددهم عام ١٩٨٩ إلى ١,٤٥٠,٠٠٠ أى أنهم تناقصوا حوالى ٤٠٠ ألف أو أكثر خلال عشرة أعوام . ويقال إن معدل تناقصهم السنوى هو ٣٠ ألف وإن كان حسب هذه الاحصائية يكون معدل التناقص هو ٤٠ ألف سنويا ، وهو تناقص طبيعى وليس من خلال الهجرة . ويقال إن عددهم سيصل إلى مابين ١,٢٠٠,٠٠٠ فى نهاية القرن وسيختفون تماما فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولكن معدل الهجرة اليهودية الحالى قد يعجل باختفائهم قبل ذلك التاريخ .

والجماعة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى جماعة مسنة فتركيبها العمرى على النحو التالى :

العمر	١٩٥٩	١٩٧٠
صفر ـ ١٥	٣٠,٤٪	١١,٢٪ (فى مقابل ٣٥٪ من أعضاء القوميات الأخرى)
١٦ ـ ٤٩	٥١٪	٤٦٪
فوق ٥٠	١٨,٦٪	٤٢,٨٪

والتركيب العمرى يدل على أن المشكلة آخذة فى التفاقم وقد بلغ العمر الوسيط (اى الواقع فى الوسط) ٤٩ سنة عام ١٩٨٦ ، وقد اصبح ٥٠ عام ١٩٨٨ . وتذكر الموسوعة اليهودية ان حوالى ٢٦٪ من يهود الاتحاد السوفييتى فوق الستين فى مقابل ١٥٪ من أعضاء القوميات الأخرى . وتؤيد

الإحصائيات الخاصة بالمهاجرين السوفييت هذه الأرقام فـ١١٪ منهم فوق سن الـ ٦٥ . أما عدد اليهود السوفييت تحت سن الخمسين فهو ٨٠٤ ألف من بينهم ٧٠٠ ألف فقط من كاسبى الرزق . وعدد الاناث هو ٤٠٠ ألف ، وعدد القادرات منهن على الحمل (بين ٢٠ ـ ٤٠) هو ٢٤٠ ألف أنثى ، ونسبة المواليد هى بين ١,٦ الى ١,٨ طفل للأنثى الواحدة ، بل استقرت على ١,٦ فى آخر الاحصائيات . ويولد ١٤,٥٠٠ طفل سنويا منهم ١٠ آلاف لأبوين يهوديين ومن ثم يطلب منهم تسجيلهم يهودا (وإن كانوا لايفعلون ذلك بالضرورة) . ونسبة المواليد بين اليهود هي ٦,٧ فى الألف بالمقارنة ١٤,٧ لغير اليهود ، أما فى أوزبكستان فنسبة المواليد بين اليهود هى ١٩,٩ فى الألف بالمقارنة ٣٢,٧ لغير اليهود .

ولايزال الاتجاه العام نحو اختفاء المراكز السكانية القديمة مستمرا ، فعدد اليهود فى مناطق أوكرانيا وروسيا البيضاء عام ١٩٧٩ اصبح ٧٦٩ ألف يهودى فى مقابل مليون عام ١٩٥٩ .

اما بخصوص الوضع اللغوى لليهود فى الاتحاد السوفييتى فقد جاء أن اليديشية قد آلت الى الزوال تقريبا ، ولايتكلمها سوى الشيوخ من اليهود . وقد جاء فى الإحصاء الرسمى لعام ١٩٥٩ التوزيع اللغوى التالى لليهود السوفييت : ١,٧٣٣,٠٠٠ يتحدثون الروسية ، و٥٠٠,٩٣٦ يتحدثون اليديشية ، و٣٥,٦٧٣ يتحدثون الجورجية و٢,٠٦٣ يتحدثون الطاجيكية ، و٢٥,٢٢٥ يتحدثون التترية و٢٤,٢٧٥ يتحدثون الأوكرانية ، و٢٢,٥٧٠ يتحدثون لغات أخرى ، وقد شكلت

نسبة الناطقين باليديشية ١٧٪ فقط من مجموع اليهود ، وانخفضت هذه النسبة خلال الستينيات حيث أشار احصاء عام ١٩٧٠ إلى أن نحو ٨٦,٧٪ افادوا بأن لغتهم هى الروسية فيما توزع نحو ١٧,٧٪ بين مختلف اللغات الأخرى ، (هذا فى مقابل ٩٧٪ افادوا أن لغتهم هي اليديشية قبل قيام الثورة) . ومعظم المتحدثين باليديشية من المتقدمين فى السن الذين يسكنون فى المناطق الغربية (ليتوانيا ولاتفيا ومولدافيا) التى كانت تضم كثافة سكانية يهودية فى الماضى .

وتشير المصادر إلى أن ظاهرة الزواج المختلط لاتزال منتشرة بين اليهود ، ومعظم هذه الزيجات قد تمثلت فى زواج الذكور اليهود من اناث غير يهوديات (ويدعم هذه النظرية عدد الزيجات المختلطة بين المهاجرين اليهود) . وقد تم الاستدلال من احصاء عام ١٩٥٩ الى أن واحدا من كل سبعة يهود متزوجين ، كان متزوجا من امرأة غير يهودية ، وبأن نحو ربع الرجال اليهود قد تزوجوا من نساء غير يهوديات بينما كانت نسبة النساء اليهوديات المتزوجات من رجال غير يهود اقل من ذلك بكثير . وقد تزايدت النسبة أخيرا ففى احصائيات عام ١٩٨٧ ظهر ان مابين ٤٠ ـ ٥٠٪ من كل الزيجات اليهودية مختلطة وتصل النسبة فى بعض المناطق الى ٨٠٪ . والأهم من هذا أن ٩٠٪ من أولاد المتزوجين زواجا مختلطا يعرفّون انفسهم بأنهم غير يهود .

أما بخصوص الوضع الدينى فيسمح القانون للمواطنين السوفييت بالتعبد ، وكل ٢٠ متعبد يمكن أن يكونوا جماعة

دينية تسمى دفاتساتكا، وهى خاضعة لاشراف لجنة السوفييت المحلية ومجلس شئون العبادات الدينية ، وهى مخولة بتعيين وطرد أعضاء مجلس المعبد اليهودى . وكثيرا ماتغلق السلطات السوفييتية المعابد لأن عدد المتعبدين يقل عن عشرين . ولذا تنتشر جماعات المنيان (النصاب اللازم لاقامة الصلاة اليهودية) وهؤلاء يحق لهم التعبد بدون تسجيل ، شريطة أن تتلقى السلطات إعلاما بذلك قبل إقامة الصلاة . ويوجد حوالى ٦١ معبد يهودى وعدد صغير من الحاخامات ، ولايوجد حاخام أكبر ، ولاتوجد المواد اللازمة لاقامة بعض الشعائر . وعدد اليهود المتدينين ٦١ ألف حسب احصاء ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ أى ٣٪ من اليهود . وتؤيد الاحصائيات الخاصة بالمهاجرين السوفييت هذا العدد إذ أن ٣٪ فقط منهم أرسل بأبنائه لمدارس دينية .

وحتى تكتمل الصورة لابد وأن نشير إلى ظاهرة اليهود المتخفين وهم المواطنون السوفييت من أصل يهودى ولكنهم يخفون ذلك . وهؤلاء استفادوا من القانون السوفييتى الذى يعطى للمواطن الحق فى اختيار جنسيته فكثيرون اختاروا تسجيل انفسهم على انهم غير يهود . كما أن ٩٠٪ من أولاد الزيجات المختلطة ، كما أسلفنا ، يسجلون أنفسهم على انهم غير يهود . ويذهب جريجورى روز نتشاين الديموغرافى الاسرائيلى إلى أنه يوجد ٣,٥ مليون مواطن سوفييتى من سلالة يهودية لم يصنفوا على أنهم يهود . ويسميهم لاست أهارون اليهود المجهولين (وهى تسمية خاطئة فى تصورنا) ويقدر عدهم مابين ١,٣ و١,٥ مليون وعددهم لايتأثر بالهجرة وهم يتمتعون بمستوى تعليمى عالى . ويذهب كثير من

الدارسين إلى أن هؤلاء سيعرفون أنفسهم يهودا « حينما لايؤدي ذلك إلى الإضرار بمكانتهم » ومن ثم فإنه إذا استمرت إسرائيل فى أن تكون مركز جذب بالنسبة لهم فإنهم سيعيدون تسجيل أنفسهم يهودا حتى يتسنى لهم الهجرة إليها .

ويبدو أن الصورة العامة هى نحو مزيد من الاندماج ، ولايشكل المنشقون الصهاينة سوى جماعة صغيرة وضئيلة ليس لها قيمة تذكر ، ويبدو أنها غير قادرة على ان توقف عملية الاندماج التلقائية السريعة ، وتآكل ثقافة يهود اليديشية ، وهويتهم الاثنية بعد أن تآكل انتماؤهم الدينى ، وهو الأمر الذى أوضحه المنشق الصهيونى شارانسكى بعد خروجه من الاتحاد السوفييتى . وكثير من أعضاء النخبة الحاكمة فى إسرائيل من يهود اليديشية من أصل روسى مثل خاييم وايزمان ويتسحاق بن تسفى وزلمان شازار وجولدا مائير وموشيه شاريت وجابوتنسكى . فإن أضفنا لهذه الاسماء اسماء النخبة من اصل بولندى اى من يهود اليديشية ايضا ، فيمكن القول إن نخبة من يهود اليديشية الاشكناز هي التى تحكم الدولة الصهيونية .

وحتى تكتمل الصورة العامة ، قبل أن نعالج موضوع الدراسة « هجرة يهود الاتحاد السوفييتى »، لابد وأن نتناول موقف الدولة السوفييتية (والبلاشفة) من المسألة اليهودية والدولة الصهيونية وأخيرا قضية الهجرة . يبدو أن البلاشفة ـ مثل ماركس من قبلهم ـ كما أسلفنا قد خلطوا بين مفهوم الأمة اليهودية العالمية ، وهو مفهوم صهيونى مطلق ، ومفهوم

اليهود بوصفهم أقلية قومية شرق أوربية ، لها خصوصيتها اليديشية التى لاتختلف عن خصوصيات القوميات الأخرى الموجودة فى روسيا القيصرية ، وهى خصوصية قد تفصل أفراد الجماعة اليهودية عن محيطهم الثقافى ، ولكنها لاتربطهم ـ بالضرورة ـ بالجماعات اليهودية الأخرى فى بقية العالم ، وهو طرح حزب البوند . ولعل هذا الخلط هو نتيجة محاولة البلاشفة ـ والماركسيين عموما ـ الوصول إلى مستوى تعميمى عال ـ يقال له علمى ـ يتجاهل كل الخصوصيات ، وهذا ميراث عصر الاستنارة والنموذج المادى الذى يصر على مستوى عال من البساطة والوضوح لايتفقان مع تركيبيه الظاهرة الانسانية ، ولعل هذا هو الذى أدى إلى تخبط السياسة السوفييتية بعض الوقت ، إلا أن المسألة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى لم تحسم إلا من خلال التطورات الاقتصادية للمجتمع الاشتراكى ككل ، خارج إطار الحلول النظرية المطروحة ، وبدون هدى كبير منها .

ومن الواضح أن موقف البلاشفة من المسألة اليهودية برغم معاداته الضارية للصهيونية ومعاداة اليهود ، وبرغم اعترافه من البداية باليديشية لغة قومية ورفض الاعتراف باللغة العبرية باعتبارها لغة قومية وهمية ، استنام بعض الوقت للصياغات العامة والمقولات المجردة ، مثل اليهود ككل . ولكن تم تصحيح هذا الوضع ـ فيما بعد ـ بتأسيس منطقة بيروبيجان ، إذ إن هذه الخطوة تعنى ضمنا القبول بما رفضه لينين ، وهو أنه إذا كان اليهود لايشكلون أمة بالمعنى المطلق ، فيهود روسيا يشكلون أقلية قومية روسية لها وضعها الثقافى المتميز ، ولها خصوصيتها التى لاتستمدها من جوهر

يهودي عام ، وإنما من تجربتها تحت ظروف اجتماعية وحضارية معينة فى شرق أوربا ، ولم يبق سوى توفير الأرض لها لتصبح أقلية قومية مثل مئات الأقليات الأخرى فى الاتحاد السوفييتى .

وإذا انتقلنا - من استعراض موقف الفكر البلتشفى - من المسألة اليهودية إلى تأمل موقف الاتحاد السوفييتى ، فإننا نجد الأمر لايختلف كثيرا ، فالقانون السوفييتى يجعل من الصهيونية ومعاداة اليهود جريمتين يعاقب عليهما ، وقد ألغيت جميع التنظيمات الصهيونية ، وأصبح نشاطها غير شرعى ، مع أن روسيا كانت مركز النشاط الصهيونى فى العالم . ولقد وقف المندوبون السوفييت فى المنظمات والمؤتمرات الشيوعية ضد السماح للأحزاب الصهيونية - ذات الديباجات الماركسية (البوروبخوفية) - بالانضمام إليها حتى لاتكتسب أى شرعية .

ومع هذا ، أيد الاتحاد السوفييتى قيام الدولة الصهيونية ، واعترف بها فور قيامها ، ولقد تحدث المندوب السوفييتى - فى هيئة الأمم المتحدة - عن « الشعب اليهودى » الذى لاقى الاضطهاد ، أى أنه كان يتحرك داخل إطار مقولة اليهود العامة والمجردة ، التى رفضها كل البلاشفة من قبل ، لا إطار يهود شرق أوربا ، بوصفهم قومية . فمع بداية الأربعينيات وتصاعد النفوذ النازى الذى كان يشكل تهديدا قويا للدولة السوفييتية ، بدأت الاتصالات بين السوفييت والصهاينة ، وشكلت فى بداية الأمر لجانا يهودية لمناصرة السوفييت ، ولمناهضة الفاشية . وفى عام ١٩٤٣ وضمن إطار

الاستعدادات للتسوية النهائية ـ لعالم ما بعد الحرب ـ بدأ السوفييت يتحدثون فى إطار أن المشكلة اليهودية ستصبح مشكلة عالمية ملحة فى نهاية الحرب ، وليس مجرد مشكلة ألمانية أو حتى مشكلة غربية ، ومن ثم كان لابد وأن يحددوا موقفهم بوضوح منها وفى إطار عالمى .

ويبدو أن هناك فى الحزب من كان يذهب إلى أن اليهود الاشتراكيين والتقدميين فى فلسطين سيكونون « أكثر فائدة لنا من العرب المتخلفين الذين تسيطر عليهم مجموعات اقطاعية من الباشوات والأفندية » . وقد استمرت هذه النغمة طيلة الحرب وبعدها ، وأصبحت لبنة أساسية فى الديباجات الاشتراكية الصهيونية . وأخذ السوفييت يتحدثون عن الدولة الصهيونية على اعتبار أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة فى منطقة الشرق الأوسط لاسيما وأنها كانت تسمح للحزب الشيوعى بممارسة نشاطاته بشكل قانونى ، كما أن الأحزاب الصهيونية ذات الديباجات الاشتراكية المتطرفة كانت تشكل ـ من وجهة نظرهم ـ نواة للاشتراكية فى المنطقة !

ويبدو أن هذا هو المنطق الذى ساد بعض الوقت إذ يقال إن مستشارى ستالين قد نصحوه بأن اقامة الدولة الصهيونية فى الشرق الأوسط المتخلف ، ستدخل عنصرا من عدم الاتزان والصراع فى المنطقة ، مما سيؤدى الى تثويرها . ويرى بعض المحللين العسكريين أن اندفاع موسكو وانضمامها إلى الولايات المتحدة فى تأييد قيام دولة يهودية كان خطوة ذكية لإحداث شرخ دائم فى العلاقات الأمريكية العربية حول فلسطين . فقد كان السوفييت يدركون أنهم لن

يخسروا شيئا فى المنطقة ، لأنهم لايملكون شيئا فيها ، على نقيض وضع الولايات المتحدة الأمريكية التى ستخسر الكثير من جراء هذا الموقف .

ومهما كانت الديباجات ـ قومية أم طبقية ، بيروقراطية أم ثورية ـ فإنه من الواضح انه قد تقرر توظيف فلسطين وشعبها فى خدمة مصالح الاتحاد السوفييتى الاستراتيجية ، وكان المفروض أن انتشار الاشتراكية يخدم هذه المصالح ، وقد تكون هذه الديباجات الاشتراكية زائفة أو حقيقية ، ولكن مايهم هو أن الدولة السوفييتية بدأت تدرك دورها باعتبارها قوة عظمى ، وأنها من الضرورى ان يكون لها دور تلعبه فى الصراع .

وقد ظهر هذا الاهتمام العملى بفلسطين بوصفها عنصرا يوظف فى خدمة المصالح السوفييتية فى صورة تحول كامل على المستوى العقائدى وعلى مستوى الخطاب السياسى . ويلاحظ أنه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، بدأ تأييد الاتحاد السوفييتى لفكرة الدولة اليهودية فى فلسطين يتخذ عدة صور واضحة . ففى فبراير عام ١٩٤٥ عقد مؤتمر نقابات العمال العالمى فى لندن ، وصوت الوفد السوفييتى الى جانب قرار يؤيد اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ونص القرار أيضا على « ضرورة ايجاد علاج أساسى عن طريق عمل دولى لإصلاح الخطأ الذى وقع على الشعب اليهودى ، وينبغى أن تكون حماية اليهود من الاضطهاد والتمييز فى أى بلد من بلدان العالم من واجب السلطات الدولية الجديدة . كما ينبغى اعطاء اليهود الفرصة فى الاستمرار لبناء فلسطين كوطن

كوطن قومي عن طريق الهجرة ، والاستيطان الزراعي ، والانتماء الصناعي ، على أن يكون ذلك مقرونا بتأمين المصالح الشرعية لكل السكان فى فلسطين وتأمين المساواة فى الحقوق والفرص كذلك » . وهذا جزء لايتجزأ من الخطاب السياسي الغربي النفعي الذى لاتثقله اى مثاليات او مطلقات أخلاقية او عقائدية .

كما اتفق ستالين مع كل من روزفلت وتشرشل ـ فى مؤتمر يالطا بفبراير عام ١٩٤٥ ـ على ضرورة انشاء وطن قومي يهودى فى فلسطين وعلى وجوب فتح سريع للأبواب التى كانت تعوق الهجرة اليهودية الى فلسطين ، مقابل السماح للسوفييت باقامة مناطق نفوذ لهم فى أوربا الشرقية . وبادر الاتحاد السوفييتي ـ فى يوليو من العام نفسه ـ الى الاعتراف بالوكالة اليهودية ، وسمح بفتح مكتب لها فى موسكو، ثم قام جروميكو بتأييد قرار التقسيم ، حتى يتم التعايش بين « الشعبين » العربي واليهودى فى ابريل ١٩٤٧ ، وقد تحدث فى ١٣ اكتوبر ١٩٤٧ من نفس العام عن ارتباط الشعب اليهودى التاريخى بفلسطين ، وأشار الى الظروف التى وجد الشعب اليهودى نفسه فيها نتيجة للحرب . وهنا لانجد مجرد منطق ذرائعى وانما نجد كل مكونات الخطاب الغربي العنصرى تجاه اليهود باعتبارهم شعبا ، ومادة استيطانية متحركة ، لها ارتباط أزلي بفلسطين مما يعطيها حقوقا أزلية فى هذه الأرض خاصة وأن مايعانيه اليهود فى الغرب لابد من تعويضهم عنه فى الشرق بأن ينقلوا إليه ـ وهذا هو منطق الامبريالية ـ وانه يمكن استخدام عملية النقل هذه لخدمة الحضارة الغربية متمثلة هذه المرة فى الاتحاد السوفييتى

والاشتراكية العالمية والعلمية . وهذا هو الموقف الغربى التقليدى من الجماعة الوسيطة الى تستخدم كأداة ولذا ليس من المدهش معرفة ان الاتحاد السوفييتى هو أول دولة منحت اسرائيل اعترافا قانونيا ، وبذلك أعطتها مصداقية كانت فى امس الحاجة اليها . ومما يجدر ذكره أنه من مجموع إحدى عشرة دولة اعترفت بإسرائيل خلال شهر واحد من إقامتها كان يوجد ست منها من دول الكتلة الاشتراكية .

ولم تكن علاقة الاتحاد السوفييتى بالصهيونية على مستوى العقيدة النظرية أو على مستوى الاعتراف القانونى وحسب ، وإنما امتدت لتشمل الدعم البشرى والعسكرى ، اذ سهل السوفييت عملية الهجرة للعديد من يهود بولندا إلى مناطق احتلال الحلفاء فى النمسا والمانيا مدركين أن هؤلاء المهاجرين سيتوجهون فى النهاية الى فلسطين . كما أن تشيكوسلوفاكيا زودت المستوطنين بالأسلحة التى لعبت دورا اساسيا فى عملية الغزو الصهيونى . ومع هذا يبدو أن السوفييت ـ فى الخمسينيات ـ حينما اكتشفوا عدم جدوى الدولة اليهودية وعدم نفعها قطعوا العلاقات السياسية معها ، ودخلوا في تحالف مع العرب . ولكن مع تغير سياسة الدولة السوفييتية باتجاه الانفتاح ، فإن العلاقات مع « الشعب اليهودى » والدولة الصهيونية شهدت تحسنا مرة أخرى ، ونحن نؤكد عبارة « الشعب اليهودى » لان الاتحاد السوفييتى لم يتصالح مع دولة إسرائيل وحسب ، وإنما سمح بالهجرة السوفييتية اليها ، مما يعنى قبولا كاملاً للعقيدة الصهيونية ، وليس تصالحا ذرائعيا مع الدولة الصهيونية .

يمكننا الآن الحديث عن تاريخ الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩١٧ ، ويمكننا بشيء من التبسيط القول إنه يتحكم فى سياسة السوفييت تجاه الهجرة ثلاثة اعتبارات أساسية :

١ ـ الاعتبارات العقائدية والتى يشكل صالح الدولة السوفييتية جزءا أساسيا منها ، وغنى عن القول إن رأى البلاشفة فى المسألة اليهودية مكون أساسى فى الاعتبارات العقائدية .

٢ ـ إعتبارات السياسة الداخلية خارج الاطار العقائدى . فعلى سبيل المثال يقال إن بعض العناصر الروسية القومية داخل الحزب فى السبعينيات كانت تهدف الى تنظيف المجتمع من اليهود باعتبارهم عناصر اممية ، وكان هذا يعنى فى ذات الوقت إخلاء عدد لابأس به من الشقق . كما كانت توجد عناصر فى المخابرات السوفييتية ترى أن اليهود عنصر مسبب للقلق وأنه لو سمح بهجرة بعض العناصر القيادية فإن الهدوء سيسود ، خاصة وأن بعض العناصر من الرافضين اليهود كانوا قد بدأوا يتصلون بعناصر الرفض في ليتوانيا ولاتفيا وأوكرانيا . بل ويذهب البعض إلى أن أعضاء القوميات الأخرى غير الروسية يعتبرون اليهود من دعاة الترويس (أى صبغ الأقليات بالصبغة الروسية) ورحيلهم يعنى إخلاء بعض الوظائف التى يشغلها الروس لأبناء جلدتهم .

٣ ـ اعتبارات السياسة الخارجية مثل العلاقة مع العرب والرغبة فى التقارب مع الغرب ، أو التصدى له .

وفى الغالب كانت العناصر الثلاث تلتقى حتى بداية السبعينيات ، حين بدأت العقيدة الماركسية فى التآكل وبدأت

الاتجاهات الذرائعية فى الظهور . وقد صاحب ذلك رغبة فى الوفاق مع الغرب والتقرب منه والتخلى عن المبادىء العقائدية .

هذه هى بعض المحددات العامة للسياسة السوفييتية تجاه هجرة اليهود السوفييت ، ويمكن الآن أن نتناول التطور التاريخى ذاته . وحينما قامت الثورة البلشفية تناقص عدد المهاجرين الى فلسطين بحيث بلغ عددهم في الفترة من عام ١٩١٩ الى تاريخ اعلان الدولة الصهيونية ٥٢,٣٥٠ أى أقل من الفى مهاجر كل عام (من مجموع اليهود السوفييت الذين كانوا يصل عددهم حوالى ٢,٥ مليون) . وظل موقف السوفييت من الهجرة لايتغير فى أساسياته بعد إعلان الدولة إذ يبدو أن عدد اليهود الذين هاجروا فى الفترة من ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى نهاية ١٩٦٩ حوالى عشرة آلاف ـ أى أقل من خمسمائة مهاجر فى العام . ففى الفترة من ١٩٥٤ ـ ١٩٦٤ بلغ عدد المهاجرين ١٤٥٢ (بمعدل ١٤٠ كل عام) وفى الفترة من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ بلغ عدد المهاجرين ٢٢٤ (اى حوالى ٨٠ مهاجر كل عام) (انظر الجدول فى نهاية الفصل) . (ومع هذا لابد وأن نشير إلى أن ٢٠ ألف يهودي روسى تم اعادة توطينهم فى بولندا عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩ مع علم الاتحاد السوفييتى أنهم كانوا سيهاجرون في نهاية الأمر إلى إسرائيل) . ولعل المحرك الأساسى للسياسة السوفييتية تجاه الهجرة بعد اعلان الدولة وحتى السبعينيات هو مركب من الاعتبارات العقائدية واعتبارات المواجهة مع الامبريالية والدولة السوفييتية والايديولوجية الماركسية والرغبة في الوقوف ضد إسرائيل ، قاعدة الاستعمار الغربى فى الشرق

الأوسط . كما أن الاعتبارات الداخلية لعبت دورا ولاشك اذ أن الاتحاد السوفييتى كان يحتاج المادة البشرية اليهودية فى فترة بنائه بعد الحرب ، كما أنه كان يرفض التعاون مع اى اتجاهات قومية تهدد وحدته .

وقد تغير موقف السوفييت ـ ومن ثم عدد المهاجرين ـ ابتداء من عام ١٩٧١ ، ولايمكن تفسير هذا التغير على أساس الضغوط الصهيونية أو تصاعد الروح القومية اليهودية وانما هو أمر مرتبط تماما بحركيات المجتمع السوفييتى (والمجتمع الأمريكى) إذ يبدو أن الاتحاد السوفييتى بدأ يصبح اكثر انفتاحا واستجابة للضغوط الدولية وضغوط الأحزاب الشيوعية الأوربية التى كانت قد بدأت فى تحسين صورتها أمام الغرب (وهى العملية التى إنتهت فى نهاية الأمر بفقدان الجميع لتوجهاتهم الماركسية أو التخفف منها) . كما أن الاتحاد السوفييتى كان يفكر فى تحسين علاقاته الاقتصادية مع الغرب ، بل ويقال إنه كان يود أيضا التخلص من العناصر القلقة والمشاغبة داخله ، ولذا بينما هاجر عام ١٩٧٠ نحو ١,٠٢٧ يهوديا وحسب من الاتحاد السوفييتى فان عام ١٩٧١ شاهد هجرة ١٣,٠٢٢ زادت الى ٣١,٦٨١ فى العام التالى ، ووصلت الى ٣٤,٧٣٣ فى عام ١٩٧٣ (وقد شهدت الفترة أيضا فتح أبواب الهجرة أمام أعضاء الأقليات الأخرى فهاجر ٩,٠٦٤ ألمانى و٤,٠٠٠ أرمنى) . وقد تراجع عدد المهاجرين اليهود الى ٢٠,٦٢٨ عام ١٩٧٤ ثم الى ١٣,٢٢١ عام ١٩٧٥ ، ويبدو أن التراجع يعود الى حرب ١٩٧٣ ، وتوتر العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وفشل المحادثات الأمريكية

السوفييتية الخاصة باعطاء الاتحاد السوفييتى معاملة الدولة الأكثر تفضيلا . ويقال إن الاتحاد السوفييتى بدأ يفكر فى الخسارة الناجمة عن هجرة العقول منه ، وكان بين المهاجرين عددا ضخما من اليهود الذين تلقوا تعليما عاليا ، كما كان هناك بعض الاعتبارات الأمنية إذ كان بين المهاجرين عددا كبيرا مطلعا على الأسرار العسكرية واسرار الدولة .

وقد زاد عدد كل المهاجرين فى الفترة من ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩ فكان عدد المهاجرين اليهود ١١١,١٩٥ والألمان ٣٦,٦٥٩ . ويبدو ان هذا يعود لمؤتمر هلسنكى عن حقوق الانسان ومحاولة الاتحاد السوفييتى تحسين علاقاته الاقتصادية . ولكن تغيرت السياسة السوفييتية عام ١٩٨٠ وخاصة عام ١٩٨١ (بالنسبة لليهود وغير اليهود) . ويبدو ان السبب هو تدهور العلاقات مع الغرب . وقد ازداد التدهور مع انتخاب ريجان . ويقال ان الاتحاد السوفييتى ترك أعدادا اسمية من المهاجرين تستمر فى الخروج ليؤكد للعالم ان عنده سلعة ثمينة يمكنه التفاوض بشأنها ليحصل على الثمن .

ويبدو أن عام ١٩٨٩ كان عاما حاسما اذ قفز عدد المهاجرين إلى ٣١,٢٩٧ ، ولم يحدث الأمر بشكل تلقائى إذ يبدو انه حدثت اتصالات بين الجانبين الاسرائيلى والسوفييتى ، وتوصل البلدان إلى توقيع أول اتفاق تجارى علمى منذ سنة ١٩٦٧ . إلا أن كلا منهما كان يلتمس من ورائه صيدا سمينا مختلفا . فقد كان الاسرائيليون يودون رفع القيود عن خروج اليهود السوفييت الراغبين فى الذهاب الى إسرائيل ، أما السوفييت الذين كانوا مقتنعين بأن « اللوبى اليهودى » يتحكم فى صنع قرارات الولايات المتحدة ، فكانوا

يريدون سياسية امريكية اكثر لينا فى مجالى التسليف والتجارة معهم ، بحيث تمكنهم من تحقيق الاصلاحات التى جاء جورباتشوف بها » (الفى باليس ، « الروس قادمون » مجلة الدراسات الفلسطينية العدد ٣ صيف ١٩٩٠ ص ٥٧) . ثم نشرت أخبار فى الجيروساليم بوست (ابريل ١٩٨٩) عن أن « موجة مهاجرين تتكون من مئات الألوف من اليهود الروس قد باتت وشيكة ، وانها تفوق قدرة الولايات المتحدة على الاستيعاب » . والعبارة الاخيرة لها دلالتها ، فالولايات المتحدة هى التى ضغطت على الاتحاد السوفييتى لإخراج اليهود وهيجت من أجل حقوق الانسان ، ولكنها كانت قد منحت اليهود السوفييت وضع لاجىء سياسى مما أعطاهم الحق فى الهجرة إليها دون التقيد بأي نصاب ، وقد ادى ذلك الى هجرة الغالبية الساحقة من اليهود السوفييت الى الولايات المتحدة ، ولذا كان لابد وأن تغير الولايات المتحدة سياستها حتى يمكن توجيه المادة البشرية اليهودية السوفييتية الى اسرائيل ومن هنا كان التحذير . وبدأت وزارة الخارجية الأمريكية تناقش علانية فرض القيود على الهجرة الى الولايات المتحدة . ثم انها سرعان ما اكتشفت بسرور بالغ أن المنظمات اليهودية الأمريكية التى سعت فيما مضى بقوة لفتح المجال أمام هجرة اليهود القادمين ، كانت الآن ، نزولا عند طلب اسرائيل ، مستعدة للقبول بهذه القيود . وعندما بدأ اليهود السوفييت فعلاً يغادرون بأعداد كبيرة شعرت إدارة بوش بأنها حرة فى التصرف . وأنهت حقهم شبه التلقائى فى الدخول كلاجئين فى سبتمبر ١٩٨٩ ، وأعيد تصنيفهم لاجئين عاديين ، ووضعت سقفا لايتجاوز ٥٠,٠٠٠ لطلبات تأشيرة

الدخول من الاتحاد السوفييتى تتوزع بين اليهود وبين غيرهم من الجماعات الأخرى .

وفى الوقت نفسه ، بدأ مسئولو وزارة الخارجية ينظرون بعطف متزايد الى طلبات السوفييت المالية ومقترحاتهم بشأن إقامة مشاريع مشتركة ، مع أن ذلك يستلزم تغييرات فى القوانين الأمريكية ، ولاسيما تعديلات جاكسون ـ فانيك وستيفنسون .

وقد وقع الاسرائيليون اتفاقا مع غرفة التجارة السوفييتية ، ثم عقدا ضخما لبيع المنتوجات الاسرائيلية فى الاتحاد السوفييتى . وهم يحظون بعلاقات مطردة التحسن مع اتحاد سوفييتى شديد الامتنان ، وبتقدير من وزارة الخارجية الأمريكية على تحذيرهم لها مسبقا من موجة هجرة ضخمة ، وعلى أهم من ذلك : على واقع أن ٩٠٪ من اليهود السوفييت ، الذين اختاروا حتى الآن الاقامة فى الولايات المتحدة ، لم يعد فى وسعهم القيام بذلك » . (« الروس قادمون » ، ص ٥٧ ـ ٥٨) .

ونلاحظ أن الاعتبارات (أو الديباجات) العقائدية قد توارت الى حد كبير فى الخطاب السياسى السوفييتى وأصبح الحديث الآن عن صالح الدولة ومصالحها ، بشكل مباشر دون الاختباء وراء أى مقولات اشتراكية ، وإن كان يتم الاشارة أحيانا الى حقوق الانسان ، ومن آونة لأخرى نسمع أصداء باهتة للخطاب الاشتراكى القديم وتهديدات بوقف الهجرة إن تم توطين اليهود السوفييت فى الضفة الغربية . ولعل الواقعة

التالية تلخص بعض جوانب الوضع الجديد تلخيصا طريفا وجيدا ، فحينما سئل رئيس احدى البعثات السوفييتية التجارية لاسرائيل عن توطين اليهود السوفييت فى الأراضى المحتلة أجاب مثل اى رجال أعمال أمريكى : « فلنتحدث عن الأعمال التجارية ، Businessفأنا لا أحب أن أتحدث عن أشياء فى غير تخصصى » (الجيروساليم بوست ١٠ فبراير ١٩٩٠) . وهكذا أصبح القوميسار تاجر شنطة ! بل وهناك همس بأن هجرة اليهود السوفييت الجماعية ستترك للسلطة السوفييتية قرابة ٢٠٠ ألف مسكن ووظيفة شاغرة توزعها على أعضاء القوميات الأخرى ، الى جانب مزيد من الأمن الاجتماعى . ومع هذا يجب ان نشير الى أن الموقف داخل الاتحاد السوفييتى على مستوى الحكومة والشعب ، مركبا الى اقصى درجة ، وانه لايعقل ان الخطاب الاشتراكى قد مات تماما بين يوم وليلة . وفيما يلى جدول باعداد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفييت ونسبة توزيعهم بين اسرائيل وبقية العالم :

المصدر : موردخاى التشولار : اليهود السوفييت منذ الحرب العالمية الثانية : السكان والبناء الاجتماعى .

السنة	عدد المهاجرين الكلى	هاجر منهم إلى اسرائيل		وإلى دول أخرى	
		عدد المهاجرين	النسبة المئوية	عدد المهاجرين	النسبة المئوية
١٩٥٩	٧	٧	١٠٠	—	—
١٩٦٠	١٠٢	١٠٢	١٠٠	—	—
١٩٦١	١٢٨	١٢٨	١٠٠	—	—
١٩٦٢	١٨٢	١٨٢	١٠٠	—	—
١٩٦٣	٣٨٨	٣٨٨	١٠٠	—	—
١٩٦٤	٥٣٩	٥٣٩	١٠٠	—	—
١٩٦٥	١,٤٤٤	١,٤٤٤	١٠٠	—	—
١٩٦٦	١,٨٩٢	١,٨٩٢	١٠٠	—	—
١٩٦٧	١,١٦٢	١,١٦٢	١٠٠	—	—
١٩٦٨	٢٢٩	٢٢٩	١٠٠	—	—
١٩٦٩	٢٩٧٩	٢,٩٧٩	١٠٠	—	—
١٩٧٠	١,٠٢٧	١,٠٢٧	١٠٠	—	—
١٩٧١	١٣,٠٢٢	١٢,٩٦٤	٩٩,٦	٥٨	٠,٤
١٩٧٢	٣١,٦٨١	٣١,٤٣٠	٩٩,٢	٢٥١	٠,٨
١٩٧٣	٣٤,٧٣٣	٣٣,٢٧٧	٩٥,٨	١,٤٥٦	٤,٢
١٩٧٤	٢٠,٦٢٨	١٦,٧٤٩	٨١,٢	٣,٨٣٩	١٨,٨
١٩٧٥	١٣,٢٢١	٨,٢٩٣	٦٢,٧	٤,٩٢٨	٣٧,٣
١٩٧٦	١٤,٢٦١	٧,٢٥٧	٥٠,٩	٧,٠٠٤	٤٩,١
١٩٧٧	١٦,٧٣٦	٨,٢٥٣	٤٩,٣	٨,٤٨٣	٥٠,٧
١٩٧٨	٢٨,٨٦٥	١١,٩٩٨	٤١,٦	١٦,٨٦٧	٥٨,٤
١٩٧٩	٥١,٣٣٣	١٧,٢٧٧	٣٣,٧	٣٤,٠٥٦	٦٦,٣
١٩٨٠	٢١,٤٧٢	٧,٣٩٤	٣٤,٤	١٤,٠٧٨	٦٥,٦
١٩٨١	٩,٤٤٨	١,٧٦٢	١٨,٦	٧,٦٨٦	٨١,٤
١٩٨٢	٢,٦٨٣	٧٣١	٢٧,٢	١,٩٥٢	٧٢,٨
١٩٨٣	١,٣٢٠	٣٩١	٢٩,٦	٩٢٩	٧٠,٤
١٩٨٤	٨٨٣	٣٣٢	٣٧,٦	٥٥١	٦٢,٤
١٩٨٥	١,١٤١	٣٥٤	٣١,٠	٧٨٧	٦٩,٠
١٩٨٦	٩٠٤	٢٠١	٢٢,٠	٧٠٣	٧٨
١٩٨٧	٨,٠٨٠	٢,٠٨٣	٢٦	٥,٩٩٧	٧٤
١٩٨٨	١٩,٢٥١	٢,٢٣١	١١,٦	١٧,٠٢٠	٨٨,٤
١٩٨٩	٧١,١٩٦	١١,١٠٠	١٥,٥	٦٠,٠٩٦	٨٤,٥
إجمالى	٣٧٠,٠٣٣	١٨٣,٩٥٥	٪٤٩,٧	١٨٦,٠٧٨	٪٥٠,٣

الفصل الرابع:

اليهود السوفييت عشية الهجرة الجديدة



بعد أن تناولنا تاريخ الجماعات اليهودية فى الاتحاد السوفييتي وموقف الدول السوفييتية منها (ومن الدولة الصهيونية والهجرة اليهودية) يمكن أن نخفض من مستوانا التعميمي قليلا وأن نقلص البانوراما الزمنية كثيرا ، لنركز على يهود الاتحاد السوفييتي عشية الهجرة - موضوع هذا الكتاب . ولذا سننظر للمجتمع السوفيتي من منظور الجذب والطرد لأفراد الجماعات اليهودية ومدى قابليتهم للهجرة أو الاستقرار .

ومن المعروف أنه يوجد وراء أى هجرة عناصر طرد (من البلد الذى يقيم فيه المهاجر) وعناصر جذب (إلى البلد الذى يفكر فى الهجرة إليه) . وعناصر الطرد ليست كافية فى حد ذاتها لأن يهاجر إنسان ما ، والقول نفسه ينطبق على عناصر الجذب ، كما أن عناصر الطرد والجذب يجب أن تكونا من القوة بحيث يقتلع الانسان نفسه من أرض ليشد رحاله إلى أرض غريبة .

ولنبدأ بعناصر الطرد فى الاتحاد السوفييتي . تذكر كل وسائل الاعلام ظهور معاداة اليهود (يقال لها معاداة السامية) بحدة فى صفوف العناصر القومية الروسية (مثل

جماعة باميت وهى كلمة روسية تعنى الذكرى أو الذاكرة) وهى عناصر بدأت تلعب دورا أكثر نشاطا فى المجتمع السوفييتى . كما يقولون إن الجو الديمقراطى العام ذاته يكفل حرية التعبير عن كل شىء بما فى ذلك العداء لليهود . وبدأت مرة أخرى تظهر الاتهامات العنصرية القديمة التى تجعل من اليهود مسئولين عن كل الشرور وتجعل ورطة روسيا الحالية نتيجة مباشرة للتآمر اليهودى الذى أخذ شكل النظام الشيوعى هذا النظام الذى أذل روسيا طيلة السنوات الماضية . (عندما اندلعت الثورة البلشفية كان يسميها البعض « بالثورة اليهودية ») . ويمكن الاشارة أيضا إلى تقاليد معاداة اليهود الراسخة فى الحضارة الروسية التى لم ينجح اليهود قط فى ضرب جذورهم فيها . ويمكن أن نضيف عناصر أخرى مثل ارتباط عدد كبير من اليهود بالسوق السوداء والنشاطات التجارية المشبوهة الممنوعة مما جعلهم يضيقون دائما بالنظام الاشتراكى .

وقد حقق اليهود السوفييت قدرا كبيرا من النجاح والحراك الاجتماعى داخل المجتمع السوفييتى فتوجد بينهم أعلى النسب بين الملتحقين بالجامعات والمتميزين علميا ومهنيا ووظيفيا حتى انهم وصفوا بأنهم نخبة علمية ومتخصصة . ويدل هذا على أن أبناء العمال والتجار اليهود قد أصبحوا أساسا مهنيين . وهذا تطور يشبه ما حدث لليهود فى الولايات المتحدة . وعادة ما يؤدى هذا التطور إلى مزيد من الاندماج فى المجتمع إذ أنه يعنى أن اليهودى قد تحول من كونه عضوا فى جماعة وسيطة هامشية تقف على أطراف المجتمع الى

عضو فى الطبقة المتوسطة التى توجد فى صميمه ، خاصة وأن المهنى شخصية حديثة يرتبط بمؤسسته أو زبائنه (إن كان طبيبا على سبيل المثال) أكثر من ارتباطه بجماعته الإثنية أو الدينية . فالنجاح قد أدى بلا شك إلى مزيد من الاندماج ، ولكنه على مستوى آخر تحول إلى عنصر طرد ، وذلك للبحث عن مزيد من الحراك الاجتماعى ، إذ أن المجتمع السوفييتى لم يعد مجتمع الفرص المتزايدة .

تقابل عناصر الطرد السابقة عناصر جذب عديدة أخرى تحد من قوة الطرد قليلا إن لم تنفها تماما . ولنبدأ ببعض عناصر الطرد التى ذكرناها ، وأولها معاداة اليهود . نحن لا نعرف على وجه الدقة مدى حدة هذه الموجة ، وما هو مصدرها . وقد أنكر المتحدثون باسم (باميبت) أكثر من مرة علاقتهم بالعداء لليهود ، ويبدو أن قيادات هذه الجماعات أكثر صقلا من العناصر المعادية لليهود فى الماضى ، ولذا فعنصريتها ستكون أكثر تركيبا وقد لا تأخذ شكلا علنيا قط . ولا يمكن القول أن توجيه السباب والتمييز العنصرى ضد بعض اليهود يرقى الى مستوى الظاهرة البنيوية التى تدفع بمئات الألوف منهم خارج الاتحاد السوفييتى ، ولا يمكن لبعض الاشاعات عن (بوجروم) مذبحة أن تنجح فى اقتلاع الملايين . ومثل الأرجنتين لا يزال ماثلا فى الأذهان .

ويبدو أن هذا أيضا هو رأى موردخاى التشولار الذى يعمل فى مركز دراسات اليهود المعاصرين التابع للجامعة العبرية ورئيس مكتب التوثيق الخاص بيهود شرق أوربا فى الجامعة ذاتها ، فهو يبين أن (باميبت) هى حقا منظمة معادية لليهود

ولكن هناك منظمات روسية تهاجمها وصحف تناصبها العداء . كما أن هناك اهتماما فى بعض الأوساط بالحرب ضد العداء لليهود لحماية نظام جورباتشوف واصلاحاته ، ولذا حينما يتخذ المرء موقفا معاديا لأعداء اليهود فان هذا يضعه فى صف العنصر التقدمى فى النظام . ويبين التشولار أن معاداة اليهود على الطريقة الفظة القديمة لم يعد لها وجود . « كما لم يعد يرى أحد كتبا معادية لليهود .. والهجوم على الصهيونية فى الوقت الحالى يأخذ شكلا سياسيا ، بدلا من الشكل العنصرى القديم حين كان البعض يصنف الصهيونية باعتبارها عنصرا وراثيا يجرى فى عروق اليهود » .

ويضيف التشولار إلى كل هذا قوله : « إن النشيطين الصهاينة أكثر حساسية لمظاهر معاداة اليهود من غيرهم ، وقد يميلون الى المبالغة فى أهميتها . ولكن الآخرين الذين لا يصلون إلى نفس الدرجة من الوعى بيهوديتهم قد يمكنهم التكيف مع هذه الأشكال الخفيفة من معاداة اليهود مادام أنها ليست عنيفة أو فظة » . و« ستزداد درجة تحمل معاداة اليهود إذا ما تضعضعت الحواجز القائمة أمام صعود اليهود فى الحياة المهنية والاقتصادية نتيجة لاصلاحات جورباتشوف » . والتشولار لا يخترع هذه الآراء ولا يعبر عن أمنيات انسان متفائل وإنما يستند إلى المعرفة التاريخية المقارنة ، ولذا فهو يشير لتجربة يهود الولايات المتحدة : فاليهود المتعلمون الباحثون عن النجاح المادى والمهنى على استعداد لأن يتعايشوا مع قدر من معاداة اليهود فى الجو ، إن لم يصبهم هذا العداء فى حياتهم اليومية ولا يعوق تقدمهم واندماجهم .

وأنا أميل إلى الاعتقاد أن اشاعات (البوجروم) المذبحة وما شابه تطلقها الدعاية الصهيونية للمساهمة فى خلخلة وضع اليهود السوفييت . فالصهيونية ، على حد قول المفكر الأمريكى اليهودى ، أى . أف . ستون تعيش عل لكوارث . وقد سبق وأرسل الصهاينة مبعوثين لوضع الق ى معابد اليهود فى العراق فى أوائل الخمسينات ، فاليهود بالنسبة لهم وسيلة لا غاية ، ووقود لآلة الحرب . ومما يدعم وجهة نظرنا تعليق التشولار على احتمال اندلاع المذابح : « لم أتملك نفسى من الضحك حينما سمعت ذلك . فمثل هذه الأمور غير متوقعة تحت هذه الظروف » (الجيروزاليم بوست ١٢ أغسطس ١٩٨٨) .

وأحب هنا أن أطرح تصورا آخر لتطور محتمل وغير مستبعد فالتاريخ الروسى يشبه الأرجوحة ، إذ سيطر العنصر التركى (التترى الآسيوى) على روسيا ، حينما كان التتار (القطيع الذهبى) يأخذون الجزية من الأمراء الروس . ثم يبدأ التاريخ الروسى القومى حين يصدهم أمير كييف ويبدأ الزحف الروسى بالتدريج من حوالى القرن العاشر . وظل تاريخ روسيا أساسا صراع ضد الأتراك المسلمين ، إذ أن الدولة العثمانية والامارات التركية التابعة لها هى التى أوقفت الزحف الروسى فى كثير من بقاع أوربا ونحو الشرق - أى أن المجال الحيوى للقوتين كان متداخلا ، ولم تتحول روسيا الى قوة عظمى بمعنى الكلمة إلا بعد الهيمنة على الامارات التركية وبعد تراجع الدولة العثمانية ثم فكها فى نهاية الأمر - أى أنه بعد أن كان هناك العنصر التركى الآسيوى مسيطرا على

العنصر الروسى انقلبت الآية وأصبح العنصر الروسى هو المسيطر على العنصر الآسيوى التركى . وقد اكتسب هذا الصراع مضمونا دينيا كما كان الحال دائما فى العالم بأسره حتى القرن التاسع عشر ، ولذا نظر للصراع باعتباره صراع بين المسيحية الروسية والاسلام (بشقيه الشيعى والسنى) . وقد عاد الخطاب الدينى يطل برأسه مرة أخرى ، خاصة بعد هزيمة السوفييت على يد المجاهدين الأفغان (الآسيويين) ، وبعد أن اكتسب الاحتجاج فى الجمهوريات السوفييتية - الإسلامية حدة غير عادية ، كما أن المؤسسة الحاكمة السوفييتية لم تتعامل معه بنفس القدر من الرقة الذى يسم تعاملها مع الجمهوريات البلطيقية على سبيل المثال .

ولكن الخطاب الدينى - فى تصورى - لن يحرز جماهيرية كبيرة بعد ٧٠ عاما من الدعاية الشيوعية الالحادية وبعد تصاعد معدلات العلمنة بدرجة ليس لها نظير فى العالم ، ولذا ليس من المستبعد أن يحل الخطاب العرقى محل الخطاب الدينى بحيث تتحول المسألة من مسيحين ضد مسلمين إلى بيض ضد صفر وسود ... الخ . وهذا على كل هو تاريخ تطور الخطاب السياسى فى الغرب ، إذ حل العنصر أو العرق كمصدر للشرعية والاطلاق محل الدين ، تماما كما حلت الدولة ووطن الأجداد محل الكنيسة .

ويجب ألا ننسى أن الخطاب العرقى كان هناك دائما فى التفكير الروسى ، فالنهضة فى روسيا كانت تعنى التوجه نحو الغرب والخروج من الشرق ، دخول أوربا والخروج من آسيا .

لو حدث مثل هذا التحول - وهو ليس بمستبعد كما

أسلفت ـ فإن العقيدة العرقية لن تستبعد اليهود البيض وإنما ستضمهم فى صفوفها باعتبارهم كثافة بشرية تنضم للروس البيض لتزيد من عددهم فى مقابل جحافل آسيا . وهناك سوابق تاريخية لمثل هذا الوضع ، ففى جنوب افريقيا ـ على سبيل المثال ـ صنف اليهود باعتبارهم بيض (وذلك على الرغم من قوة الخطاب الدينى هناك) . وينص القانون على أن حق الهجرة لا يمنح الا لمن ينجح فى امتحان باحدى الابجديات الأوربية . وحينما توافد يهود ليتوانيا الذين كانوا لا يعرفون إلا اليديشية والتى تكتب بحروف عبرية أى آسيوية عدل القانون من أجلهم .

ومن الأمثلة الأخرى هو حالة اليهود فى الجنوب الأمريكى قبل الحرب الأهلية ، فبينما كان التصنيف يتم على أساس دينى عرقى فى الشمال (ولذا كان البروتستانت البيض على قمة الهرم يليهم الكاثوليك ثم اليهود وأخيرا الزنوج) كان التصنيف فى الجنوب يتم على أساس عرقى لونى وحسب : أبيض فى مقابل أسود ، ولذا صنف اليهود على أنهم بيض وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من النخبة الحاكمة ، وتجار رقيق وأصحاب مزارع يعمل فيها العبيد ، وقد سقطوا بسقوط نظام الاقطاع العبودى الجنوبى . وكما أسلفنا ينظر كثير من أعضاء القوميات غير الروسية إلى أفراد الجماعات اليهودية باعتبارهم روس .

ثم نأتى إلى عناصر الطرد الأخرى فى الاتحاد السوفييتى وهى عمل اليهود فى الأعمال التجارية والمالية المشبوهة والممنوعة أو صعوبة الحراك الاجتماعى بالنسبة لهم . يمكننا

القول إن حالة الانفتاح المذهلة التى يعيشها المجتمع السوفييتي والتخلى عن كثير من المثل الاشتراكية ، بما فى ذلك ديكتاتورية البروليتاريا ، سينشط كثيرا من القطاع التجارى الحر وسيجعل كثيرا من النشاطات التجارية التى كانت تعد مشبوهة حتى عهد قريب نشاطات شرعية مما سيفتح المجال أمام كثير من العناصر اليهودية التى كانت تعمل فى الخفاء أن تعمل فى العلن وبنشاط كبير . بل إنه يمكن القول أن هذه العناصر ، لأنها مارست الأعمال التجارية طيلة هذه المدة ، عندها من الخبرات ما يؤهلها أكثر من غيرها للحركة داخل المجتمع الجديد .

ويمكن القول إن المهنيين اليهود قد تتفتح أمامهم فرص جديدة للحراك خاصة مع دخول الشركات عابرة القارات وبيوت الخبرة وكل أدوات الانفتاح التى تنعش الاقتصاد وتصعد من حدة الرغبات والشهوات وثورة التوقعات وتفتت نسيج المجتمع وتجعله مجتمعا ديناميا ساخنا . وباختصار شديد يمكن القول إن الوضع الجديد من الناحية البنيوية قد يخلق بين اليهود قطاعات مستفيدة تجد أن من مصالحها البقاء والاستمرار . وقد أشرنا إشارة عابرة إلى الهويات . اليهودية الاثنية المختلفة في الاتحاد السوفييتى ، ويمكننا الآن فى هذا الجزء من الدراسة أن نوسع مفهوم الهوية ليضم لا الهويات الأثنية (ذات الامتداد التاريخى) وإنما ليضم أيضا الهويات العقائدية والدينية وغيرها . وسنحاول أن ندرس موضوع الهوية من منظور القابلية للهجرة ، وهو المنظور الذى يهمنا فى هذه الدراسة . ولفهم خريطة الهويات اليهودية المختلفة فى الوقت الحاضر من منظور الهجرة سنستعين بآراء التشولار وسنضيف لها ما توافر لدينا من معلومات حتى تزداد الخريطة دقة وتركيبا ومطابقة لواقع اليهود السوفييت :

١ ـ يوجد أولا فريق الصهاينة وهم أكثر الفئات المسموعة خارج الاتحاد السوفييتي . ويرى التشولار أنهم أصبحوا قلة ، ولا توجد حركة صهيونية في الاتحاد السوفييتي ، ولذا يمكن القول إن الحديث عن المهاجرين اليهود السوفييت باعتبارهم صهاينة هو من صنع الاعلام العربي واختراعه ، وقد توصل الاعلام العربي لهذا الرأى نتيجة لعملية منطقية عقلية ساذجة لا علاقة لها بالواقع يمكن تلخيصها على هذا النحو :

* يهود الاتحاد السوفييتي يهاجرون إلى إسرائيل .
* جوهر الصهيونية هو الهجرة إلى إسرائيل .

إذن :

* يهود الاتحاد السوفييتي صهاينة .

وهو ادعاء لم يجرأ حتى شامير نفسه على اطلاقه .

وقد قال شارانسكي ، أهم الرافضين من اليهود السوفييت وهو الآن مستوطن في إسرائيل : « إن هؤلاء المهاجرين الجدد ليسوا مثاليين (أي لا تدفعهم العقيدة الصهيونية) » (جويش ويك ١٩ أكتوبر ١٩٨٩) . أما آرثر أبوليون ، موظف الهجرة الأمريكي الذي استوطن في إسرائيل ، فقد وصف المهاجرين بأنهم ليسوا نشيطين سياسيا ولا صهاينة (جويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) . وقد وصفهم أوري جوردون رئيس قسم الهجرة والاستيعاب في الوكالة اليهودية بأنهم « لا يفكرون في إطار صهيوني » (الجيروساليم بوست ٢٥ فبراير ١٩٨٩) .

ويفسر التشولار هذا الوضع تفسيرا مقنعا إذ يقول حتى

عام ١٩٧٤ كان المهاجرون يأتون من الدويلات البلطيقية التى لم تقع تحت سطوة الشيوعية إلا عام ١٩٤٠ ـ أى أنها لم تخضع إلى الدعاية الشيوعية إلا ٥٠ عاما تقريبا . كما أن ليتوانيا على سبيل المثال كانت تقليديا من أهم مراكز الدراسات التلمودية فى العالم . ولذا نجد أن اليهود فى هذه البلاد كان عندهم ما يمكن تسميته « بوعى يهودى » واحساس بيهوديتهم . ونجد نفس الظاهرة بين يهود جورجيا وبخارى ولكن لأسباب مختلفة ، فهى مجتمعات قيمها تقليدية مبنية على الفصل بين الجماعات والطبقات ، كما أن الدعاية الشيوعية لم تنجح كثيرا فى اختراق الشبكات العائلية والقبلية .

كل هذا يقف على طرف النقيض من يهود روسيا الاتحادية واوكرانيا (المركزين فى المدن ، خاصة موسكو وكييف) فهؤلاء بدأت عملية دمجهم منذ عهد القياصرة ثم تصاعدت مع الثورة البلشفية ، ولم يبق عندهم حس يهودى قوى . وفى فترة الهجرة اليهودية فى السبعينيات ثم فى الثمانينيات هاجرت العناصر اليهودية ذات الحس القومى ، ومن ثم جفت هذه الخزانات ، ومعظم اليهود الآن ـ حسب قول التشولار ـ يشبهون يهود موسكو (الجيروساليم بوست ١٣ أغسطس ١٩٨٨) . والاتحاد السوفييتى ليس فريدا فى هذا المضمار فيهود أمريكا اللاتينية هاجرت منهم العناصر التى يقال لها قومية ويمكن أن نضيف قيادية ، فتركت الجماعات اليهودية بلا قيادة وبلا احساس قومى ، مما زاد من عملية إندماج افرادها فى المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها وابتعادهم عن المستوطن الصهيونى . ويؤكد التشولار أن الصورة

الاجتماعية العامة لليهود السوفييت فى الوقت الحالى لا تختلف كثيرا عن يهود الولايات المتحدة : كلاهما يبعد من ثلاثة إلى أربعة أجيال عن الشتتل (مدن اليهود الصغيرة) ويتمتع بدرجة اندماج عالية .

ومن أهم أشكال الاندماج الزواج المختلط فمن المعروف لدينا أن نسبة الزواج المختلط بين يهود الاتحاد السوفييتى مرتفعة للغاية وتفوق مثيلتها حتى فى الولايات المتحدة (تصل فى المتوسط إلى ٥٠٪ ، وفى الجماعات الصغيرة مثل يهود بيروبيجان تصل النسبة الى ٨٠٪) . وقد ذكرنا الزواج المختلط باعتباره أحد أسباب « موت الشعب اليهودى » (يسمونه الهولوكوست الصامت فى المصطلح الصهيونى) . ويقول التشولار : « نصف اليهود يتزوجون من غير يهود ، وأولاد مثل هذه الزيجات يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود » . ولابد من أن يتفق معى القارىء فى أن وجود زوجة أو زوج غير يهودى سيقلل إلى حد ما من الرغبة فى الهجرة .

٢ ـ أما الفريق الثانى فهم اليهود المتدينون وهم يضمون فى صفوفهم عناصر غير يهودية إن لم تكن معادية للصهيونية . والمتدينون كانوا أقلية ، ولكن بدأت تتزايد أعدادهم مع إغلاق باب الهجرة إذ اتجهت حركة الإحياء اليهودى اتجاها دينيا روحيا (غير صهيونى) . وقد افتتحت أكثر من يشيفاه (مدرسة تلمودية) من أهمها يشيفاه آدين ستاينسلاتس ، الحاخام الاسرائيلى مترجم التلمود الى العبرية ، وهذا التيار الدينى صدى لحركة الإحياء الدينى فى الاتحاد السوفييتى والعالم بأسره ، كرد فعل لأزمة العلمانية

المعاصرة . ولكن عدد المتدينين صغير للغاية ولايزيد على ٣٪ من مجموع يهود الاتحاد السوفييتى .

والتيار الدينى الروحى فى تصورنا يشكل حركة جذب للاتحاد السوفييتى ، خاصة أن غالبية سكان اسرائيل علمانيون ، كما يقول الحاخام ادولف شاييفتس ، حاخام موسكو (الجيروساليم بوست ، ١٤ يناير ١٩٨٩) .

٣ ـ اليهود اللادّينيون : واصطلاح يهودى لا دينى أو يهودى ملحد اصطلاح يصدم الأذن العربية الاسلامية والمسيحية ، ومع هذا يمكن القول إن هذا النمط هو السائد فى الوقت الحالى فى العالم الغربى ، إذ تُعرّف الهوية اليهودية داخل إطار غير دينى . بل يمكننا القول إن العناصر اليهودية المتبقية ليست يهودية بالمعنى المتعارف عليه فى العالم العربى وإنما هويتهم هوية بمعنى عرقى إلحادى جديد تماما (وذلك إن قبلنا بمقولة اليهودى الملحد أو اليهودى غير اليهودى) . ولنسمع وصف المتحدثين اليهود والصهاينة ليهود الاتحاد السوفييتى . يقول الحاخام أدولف شاييفتس (الجيروساليم بوست ١٤ يناير ١٩٨٩) ، واصفا هؤلاء اليهود : « إنهم فقدوا علاقتهم باليهودية فى السبعين عاما الماضية (ويمكن أن نضيف من قبل ذلك) . نحن هنا نتحدث عن أشخاص لم تطأ أقدامهم معبدا يهوديا ، ولم يتلقوا أى تعليم يهودى » . وفى مقال فى الصنداى تايمز يتحدث الكاتب عن معاداة اليهودية كأحد أسباب الهجرة ، ولكن يشير إلى صاحب مطعم الكوشير الوحيد ـ أى الطعام الشرعى اليهودى (القبس ٢١ فبراير ١٩٩٠) مما يدل على أن يهود الاتحاد

السوفييتي لا يهمهم كثيرا شعائر دينهم . وهناك اصطلاح شائع الآن في الكتابات اليهودية وهو « يهود الصدفة » أي اليهود الذين وجدوا أنفسهم يهودا بالمولد ، وهي حقيقة تسبب الغم لبعضهم بينما لا يكترث بها البعض الآخر . ويبدو أن هناك أعدادا كبيرة من يهود الصدفة هؤلاء بين اليهود السوفييت . وكما يقول آرثر اوبليون ، موظف الهجرة الأمريكي السابق ، إن إحساس هؤلاء بأنهم يهود ضئيل إلى درجة كبيرة فكل ما يعرفونه هو أن كلمة « يهودي » مدونة في بطاقات الهوية الخاصة بهم (الجويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) . وهذا الفريق من اليهود اللادينيين هو الأغلبية الساحقة من يهود الاتحاد السوفييتي .

وإذا كان ٥٠٪ من يهود الولايات المتحدة أما لا أدريين يشكون في وجود الله أو ملحدين ينكرون وجوده أو غير مكترثين بالدين تماما و٤٠٪ يؤمنون بصيغ مخففة للغاية من اليهودية (لا يعترف بها الأرثوذكس) فإن هذا قد يعطينا فكرة عن نسبة اليهود الملحدين في الاتحاد السوفييتي بعد سبعين عاما من الدعاية الالحادية المنهجية المنظمة والشرسة ، وهي دعاية بدأت بعد أن كانت اليهودية الحاخامية قد دخلت مرحلة الأزمة الحادة في نهاية القرن التاسع عشر . كما يلاحظ أنه لا يوجد حركة اصلاح ديني يهودي في الاتحاد السوفييتي مما يجعل الاختيار إما بين الأثوذكسية أو الالحاد . والاختيار في مثل هذه المواقف معروف ، خاصة في مجتمع يعد الالحاد فيه دين الدولة الرسمي . ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون ، حتى في عقائدهم الدينية أو اللادينية ، بالأيديولوجية السائدة في المجتمع .

ولكن ، كما هو الوضع فى الولايات المتحدة ، مع فقدان الهوية الدينية لا تختفى الهوية تماما بالضرورة وانما تكتسب مضمونا جديدا يعوض فقدان المضمون القديم ويحل محله . وفى حالة يهود الولايات المتحدة ظهرت الإثنية الأمريكية اليهودية التى تعبر عن نفسها في تعلم بضعة كلمات يديشية والاحتفاظ بنجمة داود بارزة فى المنزل وارتداء حرف اليود (أول حرف فى اسم يهوه) وإقامة إحدى الشعائر الدينية كشكل من أشكال الفلكلور القومي . كما تعبر هذه الإثنية عن نفسها في ارسال تبرعات لاسرائيل وربما التظاهر من أجلها ، ولكن مع هذا يظل الأمريكى اليهودى امريكيا حتى النخاع ينتمى إلى وطنه الأمريكي ويرتبط بمصيره . وقد ظهر فى روسيا شىء من هذا القبيل . فالهوية اليهودية الجديدة تعبر عن نفسها من خلال أطر علمانية مثل دراسة ما يسمى بـ « التاريخ اليهودى » والحفاظ على الأماكن الأثرية اليهودية مثل المعابد والمقابر وافتتاح المتاحف اليهودية . وهذا جزء من عملية بعث قومية إثنية عامة فى روسيا .

وهناك نوعان من البعث الثقافى اليهودى فى الاتحاد السوفييتى أولهما هو البعث اليديشى ، ويجب أن نتذكر أن يهود اليديشية فى روسيا وبولندا كانوا دائما مهتمين بهويتهم شرق الأوربية وكانوا يروون أنهم يكونون « قومية » أو « أقلية قومية » شرق أوربية لها تجربتها التاريخية المحددة وتراثها الثقافى ولغتها اليديشية ، ولذا ارتطم هؤلاء من البداية مع التيار الصهيونى الذى كان ينادى بتصفية كل الجماعات اليهودية فى العالم ونقلها إلى فلسطين والذى شن حربا ضارية ضد اليديشية حتى نجح فى القضاء عليها تقريبا ـ أى أن هناك تيارا معاديا للصهيونية داخل التشكيل اليديشى .

وقد جاء فى الجيروساليم بوست (٨ أبريل ١٩٨٩) أن دعاة اليديشية أسسوا منظمة جديدة تضم شبابا وكهولا معادين للصهيونية وللعبرية ! ولكن إلى جانب هذا البعث الثقافى اليديشى يوجد بعث ثقافي روسى يهودى ، وهو الأهم (يعود الانقسام بين اتجاه يديشى وآخر روسى إلى أواخر القرن التاسع عشر) . هذا البعث الثقافى يشبه البعث الثقافى الأمريكى اليهودى ، والأدباء الروس اليهود ، تماما مثل أقرانهم الأمريكيين اليهود ، يكتبون أدبا روسيا باللغة الروسية يتناول زوايا خاصة من الحياة اليهودية ويعالج شخصيات يهودية وقد يقدم منظورا روسيا يهوديا . والأدباء الروس اليهود لا يختلفون فى هذا عن الأدباء الأوكرانيين الذين يعيشون فى روسيا ويكتبون أدبا أوكرانيا باللغة الروسية . وافتتاح مركز ميخولز Mikhoels للثقافة اليهودية هو تعبير عن هذا البعث الثقافي (يبدو أن هذا المركز قد أغلق أبوابه أخيرا ولكن توجد مراكز محلية أخرى كثيرة) .

ولابد من أن نبين هنا إن المضمون اليهودى للهوية مرتبط تماما بالمضمون الروسى أو اليديشى مما يعنى أن الحركة الناتجة عن هذا التعريف ليست طاردة وإنما جاذبة ، وقد عقد المؤتمر الأول للجان والمنظمات اليهودية حضره ٧٠٠ مندوب يهودى سوفييتى ، ومراقبين من كل العالم من ١٥٠ مركزا ثقافيا وسكانيا مختلفا . وهذا أول اجتماع من هذا النوع يعقد منذ نشوب الثورة البلشفية ، وكان أول مشروع قرار قدم له ذى طابع صهيونى فاقع ، إذ طلب مقدم المشروع أن يشار للهجرة اليهودية بأنها « إعادة توطين » . ولكن مندوب كييف (وهى تضم ثانى أكبر تجمع يهودى فى الاتحاد السوفييتى)

إعترض قائلا إنه لم يخول أحد أن يسمى إسرائيل وطن يهود - كييف ، وأضاف أن مثل هذا القرار سيرضى المعادين لليهود لأنه يعنى أن كل اليهود السوفييت هم مواطنون مؤقتون يرغبون في الهرب (وهذا هو الصراع الأزلى بين الصهاينة ويهود العالم) . وقال الاسكندر بوراكوفسكى من الجمعية اليهودية الثقافية : « يجب أن نتذكر اليهود الذين سيمكثون هنا فى روسيا ويعتبرونها وطنهم . كل كلمة ستنطق بها هنا ستنشر غدا في الصحف ، وبوسعها أن تسبب لهم ضررا أو نفعا كبيرا » .

عند هذه النقطة قد يكون من المفيد أن نتوقف قليلا لنرسم صورة عامة وسريعة (اسكتش) لواحد من أهم الشخصيات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى ، إن لم يكن أهمها طرآ وهو ميخائيل تشلينوف ، الرئيس المناوب لمنظمة القاعد (وهى المنظمة المظلة التى تضم كل التنظيمات اليهودية فى الاتحاد السوفييتى) : ولعل هذه الصورة تعطينا صورة محددة عن الإنسان السوفييتى اليهودي الجديد ! يعمل تشلينوف عالم لغة متخصص فى الإثنوغرافيا ولعله عالم فيما يسمى اللغويات الإثنية ، وهو متخصص أساسا فى قبائل الإسكيمو وشعوب المحيط الهادى فى جزر أندونيسيا ، كما أنه يجيد العبرية بل يعد من أهم معلمى العبرية فى روسيا . وتشلينوف هو حفيد واحد من أهم القادة الصهاينة الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها ، وهو يحيل تشلينوف . وأم تشلينوف ليست يهودية ، وكذلك زوجته وابنه ، والمؤسسة الدينية الأرثوذكسية فى داخل وخارج اسرائيل لا تعتبره يهوديا . ويبدو أن اهتمامه بالعبرية ليس له أى مضمون صهيونى وإنما هو

اهتمام بالجذور الإثنية لشخصيته الروسية الثقافية (وهذه سمة أخرى مشتركة بين يهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، فيهود أمريكا مولعون بشكل يكاد يكون مرضيا بالبحث عن « جذورهم ») .

ويعمل تشلينوف رئيسا للجماعة اليهودية الثقافية فى موسكو أى أنه يسعى إلى بعث ثقافى لهويته الروسية اليهودية ، وجماعته هى أول جماعة يهودية منظمة منذ الثورة وتضم آلاف الأتباع . ومجموعة اهتماماته هذه تضعه فى مجابهة الصهيونية التى تهدف ألى تصفية الجماعات اليهودية فى العالم والى تحويلها إلى وقود لآلة الاستيطان والحرب الصهيونية ، ولذا ليس من الغريب أن يصرح تشلينوف أنه لا ينوى الهجرة إلى اسرائيل لأنه يعلم جيدا الجو السيىء فى إسرائيل بخصوص الزوجات غير اليهوديات ، وأنه غير مستعد أن يخضع زوجته لهذه المعاملة . ثم أضاف أنه يرى أن الهجرة ليست سوى عنصر واحد للتعبير عن الهوية اليهودية (الروسية) (الجيروساليم بوست ١٩ يناير ١٩٩٠) . ويمكن أن نضيف أن تخصص تشلينوف فى قبائل الاسكيمو يجعل من المستحيل عليه الهجرة إذ أنه سيجد نفسه فى إسرائيل دون المادة التى يعمل عليها . وكم عدد علماء اللغويات والإثنوغرافيا الذين يمكن للمجتمع الاسرائيلى استيعابهم ؟ ويمكن القول إن تشيلنوف نموذج جيد لكثير من اليهود السوفييت . ومما يجدر ذكره أنه على الرغم من أنه قد قرر عدم الهجرة إلا أنه يؤيد هجرة اليهود السوفييت بل ويشجعها ، أى أنه صهيونى توطينى .

وحتى تكتمل لدينا خريطة يهود الاتحاد السوفييتى من منظور القابلية للهجرة سننظر لهم من زاوية توزيعهم الجغرافى ، وإن كان هذا التوزيع الجغرافى هو أيضا توزيع للهويات ، إذ أن كل جماعة يهودية تتأثر بمحيطها الحضارى فتكتسب هويتها مضمونا محليا يختلف عن المضامين التى تكتسبها الهويات الأخرى فى المحيطات الأخرى . وفيما يلى جدول بأعدادهم (حسب احصاء ١٩٧٩) :

جمهورية روسيا الاتحادية	٧٠١,٠٠٠
أوكرانيا	٦٣٤,٠٠٠
روسيا البيضاء	١٣٥,٠٠٠
أوزبكستان	١٠٠,٠٠٠
مولدافيا	٨٠,٠٠٠
جورجيا	٢٨,٠٠٠
أذربيجان	٣٥,٠٠٠
لاتفيا	٢٨,٠٠٠
ليتوانيا	١٥,٠٠٠
تاجيكستان	١٥,٠٠٠
استونيا	٥,٠٠٠
كازجستان، كرجزيا، تركمان، أرمينيا	٣٥,٠٠٠

والغالبية العظمى من يهود الاتحاد السوفييتى أشكناز ، وهؤلاء هم بقايا يهود اليديشية الذين تركزوا فى بولندا وأوكرانيا وحدثت بينهم الانفجارة السكانية فى القرن التاسع

عشر فهاجرت من صفوفهم الملايين . وثمة نظرية تذهب إلى أن كل يهود العالم الغربي من نسل هؤلاء (باعتبار أن اليهود الأصليين فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من البلدان انصهروا تماما فى مجتمعاتهم) .

ويعد الاشكناز العمود الفقرى للهجرة الجديدة . ولكن هؤلاء ينقسمون إلى قسمين :

أ) يهود المركز ، وهؤلاء هم الذين يعيشون فى تلك المناطق التى دخلت الاطار الشيوعى عام ١٩١٧ . أى أنهم عاشوا تحت الحكم الشيوعي ما يزيد على سبعين عاما وهذه الجماعات هى التى تتسم بأعلى درجات الاندماج والعلمنة . ويبلغ عدد هؤلاء على الأقل ١,٤٧٠,٠٠٠ حسب احصاء ١٩٧٩ ، أى أن أعدادهم الآن أقل ، ولكن لعل نسبتهم إلى غيرهم من الجماعات اليهودية لم تتغير ، وهم العناصر التى لا ترغب فى الذهاب إلى إسرائيل إذ أنها ـ بسبب درجة تأهيلها العلمى والمهنى العالى ـ لن يمكنها أن تحقق أى حراك داخل المجتمع الصهيونى . ويجب الاشارة إلى أنه قد توجد أعداد من يهود المركز بين يهود الشرق ، إذ أن جزءا من السياسة السوفييتية كان دائما توطين عناصر روسية بيضاء فى جمهوريات الأطراف حتى لا تنفصل عن الدولة الروسية (فيما يشبه الاستعمار الاستيطانى) وفى هذه الحالة فإنه ينظر إلى اليهودى باعتباره روسيا أبيض لا باعتباره يهوديا ، وهذا تطبيق أولى للاحتمال الذى ذكرناه من قبل .

ب) اليهود الزابادنكى Zapadnki أى الغربيون ، وهؤلاء

هم الذين يعيشون فى المناطق التى ضمت إلى روسيا فى الحرب العالمية الثانية ولا يزالون محتفظين « بهويتهم اليهودية » وبعضهم لا يزال يتحدث اليديشية . ومن أهم هذه المناطق الجمهوريات البلطيقية : أستونيا ولاتفيا وليتوانيا (٤٨ الف) ، ومولدافيا (بيسارابيا) وهى على الحدود مع رومانيا (٨٠,٠٠٠) . وهؤلاء هم أكثر العناصر صهيونية إن صح التعبير ومن أكثرها رغبة فى الهجرة والتوجه إلى إسرائيل . ولكن لعل عددهم قد تناقص إذ لابد من أنه فى الخمسة عشر عاما الماضية هاجرت معظم العناصر القادرة على الهجرة والراغبة فيها . كما أن نسبة المسنين بينهم من أعلى النسب فى العالم . أما الجماعة الموجودة فى مولدافيا فهى من أهم الجماعات من منظور القابلية للهجرة فهم يقعون على منطقة حدودية مع رومانيا ، وهى منطقة تطالب رومانيا باستعادتها ، أو يطالب أهلها بالانضمام إلى الوطن الأم . ووضع اليهود داخل رومانيا كان دائما سيئا نظرا لظروف تاريخية طويلة وهم يشكلون نسبة ٢٪ من عدد السكان فى مولدافيا (وهى أعلى نسبة تركيز لليهود فى الاتحاد السوفييتى) وكلما زادت نسبة اليهود اتضح بروزهم ووجودهم وزادت درجة احتكاكهم بالسكان .

بقى بعد ذلك يهود جورجيا والجمهوريات الاسلامية ، وهؤلاء يبلغ عددهم ٢١٣ ألفا حسب احصاء ١٩٧٩ ، ولا يمكن القول إن عددهم تناقص لأن خصوبتهم عالية . وهى عناصر كما اسلفنا ليست كلها شرقية إذ يمكن القول أن ٢٥٪ منهم من اليهود الاشكناز . كما أن أعدادا كبيرة منهم بدأت تفقد هويتها التقليدية وتقبل عملية الترويس أو الروسنة (أى

صبغهم بالصبغة الروسية) ومن ثم لا تعرف أعداد متزايدة منهم لغتها الأصلية (الجورجية أو لغة التات) ويتعلم أولادهم الروسية (وهم فى هذا يشبهون يهود البلاد العربية الذين فقدوا هويتهم العربية بالتدريج مع وصول الاستعمار الغربى وأرسلوا بأولادهم إلى مدارس الاليانس لتعلم الفرنسية وحصلوا على الجنسيات الأوربية المختلفة . ولذا عندما أعلنت الدولة الصهيونية كانت نسبة العرب بينهم لا تتجاوز أحيانا ٥٪) . هذا القطاع من اليهود مرشح بشدة للهجرة . فهذه جمهوريات تشبه البلاد النامية فى اقتصادياتها وفى التناقضات التى تعتمل داخلها وفى علاقاتها بالدولة السوفييتية . وهى تضم جماعات عرقية وإثنية مختلفة . فالقوقاز مثلا تعد من أثرى المناطق فى العالم من ناحية التنوع الإثنى واللغوى (ويقال إن هذا يعود إلى طبيعتها الجبلية التى تؤدى إلى انفصال كل مجموعة بشرية عن الأخرى ، بل وعن العالم بأسره) . وهذه المجموعات لابد من أنها ستتناحر فيما بينها مع تراجع سلطة الدولة السوفييتية المركزية ومع تصاعد الوعى القومى بينها ، ولذا فهذه الجمهوريات ستكون مناطق طرد . ولكن يجب أن نشير إلى عنصرين :

١ ـ قد تجد نسبة الـ ٢٥٪ من أصل اشكنازى أن ثمة فرصا جديدة تتفتح أمامها داخل المجتمع السوفييتى الجديد الذى يضم قطاعا خاصا كبيرا ، كما أن العناصر الشرقية نفسها ، خاصة التى تروسنت ، قد تجد أنه يمكنها أن تهاجر إلى المدن الروسية الكبرى لتحقيق ما تطمح إليه من حراك . ويوجد سابقة لهذا فى تاريخ الهجرة اليهودية ، إذ اتجهت

العناصر المهاجرة من وسط روسيا ومناطق الاستيطان فى منتصف القرن التاسع عشر إلى ما كان يسمى حينذاك روسيا الجديدة على ساحل البحر الأسود وهى الإمارات التركية التى ضمتها الامبراطورية الروسية .

٢ ـ يجب أن نشير إلى أن كثيرا من العناصر القادرة على الهجرة والرغبة فيها قد هاجرت فى الفترة بين ١٩٧٠ ـ ١٩٩٠ ، مما يعنى أن نسبة القادرين والراغبين بين العناصر المتبقية صغيرة .

وقبل أن نترك خريطة الهويات اليهودية لابد من أن نذكر أنه يوجد عدم تجانس كبير داخل كل مجموعة يهودية ، وهو عدم تجانس يتزايد كلما زاد عدد المهاجرين . فيهود المركز يتحدثون أساسا الروسية (ولعلهم يتسمون بقدر من التجانس أعلى من أى مجموعة يهودية أخرى ، وهو تجانس اكتسبوه من خلال تزايد اندماجهم فى المجتمع الروسى) . ومع هذا توجد بينهم عناصر تتحدث الأوكرانية واليديشية . وهم علاوة على هذا ينقسمون إلى صهاينة ومتدينين وعلمانيين متقبلين لهويتهم الروسية اليهودية وعلمانيين رافضين لها متمردين عليها الخ . أما يهود الزابادنكى فهم ينقسمون إلى ليتوانيين ولاتفانيين الخ ، ولكل جماعة قسماتها الحضارية (التى لا تزال لها أصداؤها داخل التجمع الصهيونى) .

أما يهود جورجيا والجمهوريات الاسلامية فدرجة عدم التجانس بينهم أعلى بكثير كما هو متوقع ، فهناك يهود الجبال الذين يتحدثون التات ، ويهود بخارى وهم أكبر مجموعة ويتحدثون الطاچيكية ، ويهود جورجيا الذين يتحدثون

الجورجية ، ويهود الكرمشاكى (الذى يبدو انهم هاجروا بقضهم وقضيضهم إلى الولايات المتحدة) ، واليهود القراؤون الذين نيلغ عددهم خمسة آلاف وهؤلاء لا يفكرون فى الهجرة إلى إسرائيل فهم رافضون لليهودية الحاخامية . وعدم التجانس يمكنه أن يؤثر سلبا أو ايجابا على كل مجموعة فى عمليات الطرد والجذب وعمليات التساقط . وقد وجدت احصائية عن نسبة المتساقطين عام ٧٧ ـ ٧٨ من منظور مسقط رأسهم تبين أن حوالى ٨٥٪ من كل المهاجرين الروس من يهود المركز قد تساقطوا (٩٦٪ من كل المهاجرين من أوديسا ، و٩٢٪ من كل المهاجرين من كييف) ، بينما لم يتساقط سوى ١٧,٦٪ من كيشينيف (الموجودة فى جمهورية مولداڤيا) ٢٤٪ من المهاجرين من تفليس (أوزبكستان) . وهذا يؤيد استنتاجنا السابق بأن يهود الشرق ومولداڤيا سيكونون من أهم العناصر التى ستتجه إلى إسرائيل ، خاصة أن مستواهم التعليمى منخفض نوعا (بالقياس ليهود المركز) ولذا قد تكون فرصتهم فى تحقيق الحراك الذى يطمحون إليه فى إسرائيل أعلى منه فى المجتمع الأمريكى الذى يتطلب تخصصات دقيقة ومستوى تعليمى رفيع . ويقف هذا على طرف النقيض من يهود المركز الذين يشكلون ـ كما أسلفنا ـ نخبة فنية علمية مهنية ، وبالتالى فهجرتهم إلى إسرائيل تعنى ورطة حقيقية للطرفين إذ أن المجتمع الصهيونى ليس متقدما بما فيه الكفاية ليستوعب هذا العدد من المؤهلات العالية . ومن هنا نسبة التساقط العالية بينهم التى تصل أحيانا إلى ما يزيد على ٩٠٪ .

وحتى لا يخرج القارىء بانطباع احصائى خاطىء ويظن أن هناك مجموعات وهويات يهودية متساوية فى الأهمية

والعدد يجب أن نكرر أن اليهود المتدينين أقلية صغيرة للغاية (٣٪) . أما يهود مولداڤيا ولاتڤيا وليتوانيا وأستونيا الذين يتسمون بوجود عدد كبير من الصهاينة بينهم فهم لا يزيد نسبتهم على ٧٪ ، كما أن العناصر الصهيونية بينهم وبين اليهود السوفييت قد هاجرت فى المرحلة السابقة (١٩٧٠ ـ ١٩٩٠) . أما يهود چورچيا وأرمينيا والجمهوريات الاسلامية (أزبكستان وأذربيجان وغيرها) الذين يتمتعون بهويات إثنية واضحة فهم لا يزيد عددهم على ١١٪ (ربعهم من اليهود الاشكناز المتروسين) . ويجب أن نضيف إلى كل هذا أن الهوية الروسية اليهودية أمر جديد كل الجدة وهش ولا تصلح أساسا للتعبئة أو التنظيم إذ لا توجد عقيدة سياسية أو إثنية تنادى بالدفاع عنها والحفاظ عليها وتطويرها ، هذا على عكس الهوية اليديشية التى لها أيديولوجيتها المحددة . ولكن عدد المتحدثين باليديشية صغير للغاية ومعظمهم من المسنين وعدد المهتمين بها أصفر .

كل هذا يجعلنا نذهب إلى أن الغالبية الساحقة من يهود الاتحاد السوفييتى لا دينيون ولا يؤمنون بالصهيونية أو أى عقيدة أخرى ولا توجد عندهم هوية يهودية واضحة . ولكننا سنجد أنهم يتسمون بسمة جوهرية واضحة مركزية أنهم ينتمون إلى ما يسمى فى علم الاجتماع الغربى عصر ما بعد الايديولوجيا اى أن يعيش المرء فى الحياة الدنيا بشكل اجرائى كفء ، لا يفكر إلا فى يومه ، وان فكر فى مستقبله فهو يفعل ذلك بنفس المعايير الهندسية الاجرائية ، وهو عادة لا يفكر فى الماضى . وعملية التفكير عادة ما تكون بريئة من أى أثقال ايديولوجية أو أعباء نظرية أو أخلاقية ، فالمعايير

المستخدمة علمية مادية دقيقة تهدف إلى تعظيم المنفعة واللذة . ويلاحظ بالفعل أن معدلات العلمنة بين اليهود السوفييت مرتفعة إلى أقصى درجة (بل يقال إنهم يتصفون - في بعض الجوانب - بأعلى معدلات العلمنة في الاتحاد السوفييتي) وأنهم يؤمنون بقيم المنفعة (عادة الكمية) واللذة (عادة المباشرة) ، وتطلعاتهم الاستهلاكية شرهة لا يخفف من حدتها أية قيم ، وهي تطلعات لا تقبل أي ارجاء بسبب غياب أي مثل عليا أو نظريات دينية أو عقائدية .

لهذا السبب نجد أن وعي اليهود السوفييت السياسي ضعيف للغاية وان كانوا يتسمون بعداء حقيقي للاشتراكية . ولكن عداءهم هنا لا يعني موقفا نظريا وإنما هو عداء ذرائعي لكل النظريات والمطلقات ، فالاشتراكية في نهاية الأمر تحوي داخلها قدرا من المثاليات ينبع من إيمانها بالانسان كمطلق . وقد حاول بعض المعلقين السياسيين أن يطرحوا إمكانية أن يكون اليهود السوفييت على قدر عال من الوعي السياسي بسبب أجهزة الإعلام السوفييتية التي كانت تحاول أن تفضح إسرائيل والصهيونية . ولكن بناء على العينة التي وصلت بالفعل نجد أن هذا تصور لا أساس له من الصحة ، فالمهاجرون السوفييت يكرهون الكيبوتسات بسبب شكلها الجماعي فهي تذكرهم بالمجتمع الذي نبذهم ونبذوه ، وقد أظهروا عدم اكتراث بكل من الصهاينة والعرب .

مثل هؤلاء البشر يتسمون بحركية غير عادية وبرغبة عارمة لتحقيق الحراك الاجتماعي وتحسين المستوى المعيشي دون أي اكتراث بأي قيم ثقافية أو دينية أو خصوصية حضارية أو

أيا من هذه المطلقات التى تسبب الصداع للرؤوس الاستهلاكية ـ أى أن قابليتهم للهجرة مرتفعة إلى أقصى حد . والمهاجرون الذين وصلوا يبينون مدى صدق الصورة التى رسمناها . وقد وصفهم كاتب فى الفاينانشيال تايمز بأنهم « مهاجرون اقتصاديون » (عن القبس ٤ مارس ١٩٩٠) . كما وصفهم كاتب آخر فى التايمز (٣ يناير ١٩٩٠) بأنهم هاربون من الاتحاد السوفييتى وليسوا مهاجرون إلى اسرائيل . اما جوليا ميرسكى (عالمة نفسية فى الجامعة العبرية) فقد وصفتهم بأنهم لاجئون وليسوا مهاجرون . ووصفهم كارل شراج (فى الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) بأنهم مستوطنون بالاكراه أو رغم أنفهم . ولكننى أفضل وصفهم بالمرتزقة ، والاصطلاح الذى أقترحه أكثر دقة فالمرتزق هو الذى لايقوم بعمل إلا نظير مقابل ، والتزامه بعمل ما هو التزام خارجى تعاقدى أى أنه لا يشعر نحوه بأى ولاء حقيقى . ويتميز مصطلحنا أنه مصطلح متداول فى علم الاجتماع ، مما يعنى أنه يحوى قدرا من العمومية ولا يسقط فى التخصيص الكامل .

وهؤلاء المهاجرون المرتزقة كما قلنا عندهم قابلية هائلة للهجرة بحثا عن تحسين المستوى المعيشى ، ولذا فالمنطقى أن يتجهوا إلى الجولدن مدينا ، وهى عبارة يديشية تعنى البلد الذهبى ، أى الولايات المتحدة ، حيث الشوارع من فضة والأرصفة من ذهب . ولذا يلاحظ أنهم لا يعرفون العبرية وان أعدادا كبيرة منهم تجيد الانجليزية إذ كانوا يعدون أنفسهم للهجرة لها . وكما لاحظ آلان فراشون (لوموند فى القبس ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) « أن الغالبية العظمى من اليهود السوفييت

المسموح لهم بالهجرة كانوا لا يتحدثون سوى عن الولايات المتحدة » .

ولكن البلد الذهبية اللعوب هيجت من أجلهم ثم أوصدت أبوابها دونهم (أو واربتها قليلا) ومن ثم أصبحت إسرائيل بالنسبة لهؤلاء الحركيين العمليين أسهل سبيل ، بل السبيل الوحيد للخروج من الاتحاد السوفييتى ، ولكن يظل الحلم الأكبر هو أرض الميعاد الأمريكية . ولذا فكثير من المهاجرين يأتون صاغرين لا يحملون فى قلوبهم أى تطلع لصهيون أو حب لها « فهم لا يريدون سماع أى شىء عنها » (على حد قول أورى جوردون رئيس قسم الهجرة بالوكالة اليهودية) (يدعوت أحرونوت ١٠ ابريل ١٩٨٨) ، كما أنهم لم يبدوا موافقة أو ترحيبا باستئناف العلاقات بين الاتحاد السوفييتى واسرائيل لأن هذا الأمر سيؤدى إلى نقل المهاجرين مباشرة إلى إسرائيل ، مما يفوت فرصة الهجرة إلى الولايات المتحدة (هآرتس ٨ فبراير ١٩٨٩ ، عمر سعاده ، « اليهود فى الاتحاد السوفييتى واشكالية إستيعابهم فى اسرائيل » (شئون فلسطينية عدد ٢٠٧ يونيه ١٩٩٠ ص ٨٠) .

ومن بين هؤلاء الذين لم يتمكنوا من الحصول على تأشيرة مارينا ليشكنر وزوجها ديمترى اللذان اضطرا للذهاب إلى إسرائيل : « ولا أعرف ماذا سنفعل فى المستقبل ؟ سنعيش هنا فى الوقت الحاضر ، ثم سنرى » . (الجيروساليم بوست ٣٠ فبراير ١٩٩٠) . أما برنارد خالفين (أوكالفين) فقد قال لم يكن أمامى خيار سوى أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور فى روما . ولكنه أضاف : « لا أريد أن

أبقى هنا » خاصة أن حبيبته / صديقته التى قابلها فى روما حصلت على تأشيرة ويود أن يلحق بها هناك ، على الرغم من أن قوانين الولايات المتحدة تجعل ذلك صعبا ، ولكن هذه الحقائق لا تغير من تصميمه أن يهرب « لقد اضطررت أن أحضر هنا . هذه أرضى ولكنى لا أشعر أنى جزءا منها . الكل هنا غريب » (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) .

وقد لاحظ أحد المعلقين أنه يوجد الآن سبع صحف ناطقة بالروسية فى إسرائيل أسس خمس منها عام ١٩٨٩ ليس لها موقف سياسى واضح ، أما السابعة فاسمها كروغ تؤيد حزب تسوميت (بزعامة روفائيل ايتان الداعى لتهجير العرب) . وتتألف الصحف من مقالات مطولة من الصحافة الغربية والاسرائيلية ، وينسخ بعضها صفحات كاملة من الصحف الروسية ، وتعتمد على الاعلانات ، وحيث أن المهاجرين السوفييت « هى أول جماعة مهاجرين على الاطلاق تمنحها الحكومة مبالغ نقدية كبيرة فقد راحت جميع المصارف الاسرائيلية تغازلهم . وثمة مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بأشد ما يرغب المستهلكون فيه من سلع : تأشيرات دخول إلى كندا (« الروس قادمون » ص ٧١) ـ أرض ميعاد أخرى مجاورة للجولدن مدينا . وقد وصف أربيه ديرى ، وزير الداخلية ، المهاجرين المرتزقة وصفا دقيقا حين قال إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر (الجيروساليم بوست ٢٠ يوليو ١٩٩٠) .

أما أوبليون فقد قال :

« بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها كمحطة على الطريق ، وسيقومون باستغلالنا أيضا ، وسيأخذون أى خبرات قد نقدمها لهم ، وقد ينتهى بنا الأمر بأن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس ، والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل » (الجويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) . فهم يعرفون تماما « أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة » (الجيروساليم بوست ٢٥ فبراير ١٩٨٩) . والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن « الراحة والترف » (كما وصفهم يورى جوردون رئيس قسم الاستيعاب فى الوكالة اليهودية ، المسئول عن توطين اليهود السوفييت) (النيويورك تايمز ٢٨ يناير ١٩٩٠) .

وحيث أن الإعلام العربى والدراسات العلمية تتحدث دائما عن « الموضوعية الصهيونية » و« الوحدة اليهودية » لألخص للقارىء خطابا نشرته جريدة الجيروساليم بوست عن سلوك بعض المهاجرين . إذ لاحظ أحد القراء أن بعض يهود جنوب افريقيا من الشبان يهاجرون منها إلى أرض الميعاد ويستفيدون بالمنح الدراسية المتاحة للمهاجرين وبالخدمات المجانية المختلفة وبالاعفاء من الخدمة العسكرية ، وعند الحصول على الشهادة الجامعية يحزمون أمتعتهم ويولون الأدبار . وبريد القراء ملىء بخطابات مثل هذا عن سلوك المهاجرين الجدد الذين لا يكفون عن الشكوى وعن طلب الخدمات والمزيد من الخدمات وعن الشقق الفاخرة التى تمنح لهم وهكذا .

وإذا كانت المؤسسة الصهيونية تتغاضى عن هذا الجانب

« إذ يرفض المسئولون الحكوميون والوكالة اليهودية التفكير بموضوعية فى بواعث الهجرة الحقيقية لدى هذا الجيل من المهاجرين » (اللوموند فى القبس ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) إذا كانوا يفعلون ذلك من أجل الحاجة الماسة للمادة البشرية القتالية ، فإن هذا لايغير من الصورة شيئا . إذ أن مايحدد سلوك هؤلاء المهاجرين المرتزقة سواء فى الاتحاد السوفييتى أم خارجه ، وسواء فى إسرائيل أم خارجها ، هو تطلعاتهم الشرهة وانعدام الولاء لأى أرض أو بلد أو قيم ، فهذا هو الذى سيجعلهم عندهم قابلية غير عادية للهجرة من الاتحاد السوفييتى إلى إسرائيل لتحسين مستواهم المعيشى ، ولكن هذا أيضا هو الذى سيجعل عندهم قابلية غير عادية للتساقط والنزوح . كما أنهم ـ لنفس السبب ـ سيشكلون ولاشك عبئا على التجمع الصهيوني الذى يود شراء رضائهم إن هم حلوا فيه .

ونحن حينما استخدمنا مصطلح مرتزقة (منذ عام تقريبا) لوصف المهاجرين اليهود السوفييت كنا نستخدمه بشكل مجازى ، ولكن يبدو أن النموذج التحليلى يمكن أن يكون أكثر صدقا وتفسيرية مما يتصور المرء ، ويظهر هذا فى ظاهرة البغايا بين المهاجرين . فقد جاء فى الأنباء أن حوالى ألف مهاجرة سوفييتية ، كثيرات منهن حاصلات على شهادات جامعية ، قد امتهن وظيفة البغاء : منهن ٥٠٠ عاهرة ، و٢٥٠ يعملن فى مصحات التدليك و١٥٠ فى خدمات الاسكورت المرافقة escort . ومصحات التدليك وخدمات الاسكورت هى شفرات أو واجهات لممارسة حرفة البغاء (الجيرو ساليم بوست ٣ نوفمبر ١٩٩٠) . وجاء فى الأهرام (نفس اليوم)

« أن حيا بأكلمه هو حى كرمئيل تحول الى حى القادمات الجدد المشتغلات بهذه المهنة الرخيصة » .

ومن المعروف أن البغاء لاينتشر بسبب الضيق الاقتصادى وحسب (كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة) وانما بسبب تصاعد التطلعات ومن ثم ضعف التحمل . وقد اطلعت على دراسة في الموضوع تبين أن معظم البغايا لايعشن فى حالة ضيق اقتصادى وانما هن أساسا عناصر حركية نشطة ولذا ضقن ذرعا بأوضاعهن وفقدن الايمان بأى مطلقات أو مثاليات (سوى المنفعة واللذة) فحولن أجسادهن الى احدى وسائل الانتاج أو جزء من قطاع الخدمات ، وبذا تحول الانسان من غاية الى وسيلة أو سلعة - أى أن البغى هى حالة متطرفة متبلورة من الانسان المرتزق . (وقد يكون من المفيد أن نشير الى أن يهود اليديشية كانوا من أهم مصادر البغايا فى العالم بين الفترة من ١٨٨٢ حتى عام ١٩٣٥ ، ولعل اشتغال المهاجرات السوفييت يالبغاء هو بقايا هذا الميراث الاقتصادى المهنى المشين) . وبالمناسبة ألا يصلح هذا مؤشرا على ماحدث للانسان السوفييتى بعد سبعين سنة من الدعاية الالحادية وربما على ما يحدث داخل المجتمع السوفييتى ؟ وأرجو ألا يفهم من هذا أننى أصدر حكما أخلاقيا على أحد ، فكل ما أهدف إليه هو تحسين مقدرتنا على الرصد .

وفى ختام هذا الفصل قد يكون من المفيد تزويد القارىء ببعض المعلومات عن قوانين الجنسية فى الاتحاد السوفييتى وطريقة التقدم بطلب الهجرة والحصول على الجنسية الاسرائيلية .

يوجد فى الاتحاد السوفييتى بندان لوصف وضع المواطن القانونى : جراجدانستفا grazhdanstva وهى حرفيا تعنى المواطنة ، وناسيونالنوست nationalnost أى القومية وهى تشير الى الاصول الاثنية والعرقية ، فالأوكرانى هو أوكرانى القومية ولكنه مواطن سوفييتى ، وكذا يهود الاتحاد السوفييتى فهم يهود القومية ولكنهم مواطنون فى الاتحاد السوفييتى (مع الفارق أن اليهود هم أعضاء القومية الوحيدة التى ليس لها أرض ـ خاصة بعد فشل تجربة بيروبيجان) . ويحمل المواطنون السوفييت مايسمى بجوازات سفر داخلية وهى أشبه ببطاقات تحقيق الشخصية وتظهر فيها « قومية » حاملها . وبحكم القانون يجب على اليهود تسجيل أنفسهم يهودا كما يجب على الأبوين اليهوديين تسجيل أولادهم يهودا (ولكن يبدو أنه على مستوى الممارسة تتم تجاوزات كثيرة) . ويلجأ كثير من اليهود السوفييت الى تغيير اسم الأسرة بحيث تختفى منه النكهة اليهودية ، كما يتسمون باسماء روسية فاقعة مثل ايفان ويبتعدون عن الاسماء اليهودية . أما ابناء الزواج المختلط بين الذكر اليهودى والانثى غير اليهودية فان القانون السوفييتى يلزم تسجيل ابناء هذا الزواج يهودا على عكس الزواج المختلط بين الذكر غير اليهودى والانثى اليهودية . ومع هذا يسمح القانون لابناء هذه الزيجات اختيار القومية التى يريدها كل عند بلوغ سن الرشد .

وفى الماضى إن أراد اليهودى الهجرة كان عليه التقدم بطلب الهجرة إلى الدائرة المختصة فى وزارة الداخلية السوفييتية ، يتضمن معلومات وافية ودقيقة عن وضعه الاجتماعى ، والثقافى ، والمادى ، فتدرس السلطات

المختصة طلب الهجرة فى فترة قد تطول أو تقصر ، وفقا لتوجيهات سياسية عليا . وبصورة عامة ، فأن فترة سنتين من الانتظار هى معدل وسطى تصل احيانا بضعة سنين ، والاستجابة لطلبات الهجرة فى المناطق الريفية ومناطق آسيا الوسطى أسرع نسبيا منها فى مناطق المدن .

بعد الموافقة الأولية على طلب الهجرة يطلب من صاحبه الحصول على تأشيرة دخول الى اسرائيل . وبعد الحصول عليها يصبح المواطن اليهودى السوفييتى فى حكم المهاجر ، ويفقد جواز سفره وجنسيته دون أن يكتسب أية جنسية أخرى .

وبعد انتهاء اجراءات الهجرة كانت تقوم الحكومة السوفييتية بتسفير هؤلاء المهاجرين الى فيينا التى تعتبر محطة « ترانزيت » وذلك بموجب اتفاق خاص مع الحكومة النمساوية . وفى فيينا ، حيث كان يصل المهاجرون اليهود اليها برا أو جوا ، استأجرت الحكومة النمساوية بالاتفاق والتعاون مع منظمتى « هياس » و« جوينت » فنادق خاصة لاقامة المجموعات اليهودية الوافدة ، وكانت الحكومة النمساوية تمنع أى اتصال من جانب ممثلى السفارة الاسرائيلية أو الوكالة اليهودية بهؤلاء قبل أن يختاروا مركز التوجه : فلسطين المحتلة أو إحدى بلدان أوربا الغربية أو الولايات المتحدة الامريكية أو غيرها . وبعد أن يختار هؤلاء جهة التوجه تتولى السفارة الإسرائيلية والوكالة اليهودية مهمة تسفير من اختاروا الأرض المحتلة .

أما الذين كانوا يختارون المهاجر الأخرى وهم يشكلون

النسبة الأكبر عادة فيقيمون فى فيينا فترة لاتقل عن اسبوعين ولاتزيد على شهر ينتقلون بعدها الى ايطاليا حيث توجد لهم ثلاثة مراكز تجمع كبيرة ينتظرون فيها فترة تتراوح بين الشهرين والستة شهور وأحيانا اكثر من ذلك إلى أن يحصلوا على إذن الدخول والهجرة الى الولايات المتحدة الأمريكية التى يفضلها معظمهم ، أو إلى أستراليا أو كندا أو نيوزيلنده . وكثيرا ماتطول فترة بقاء الكثيرين منهم على ستة شهور .

وقد تم تعديل القانون بحيث لايمكن لأى من اليهود السوفييت الهجرة للولايات المتحدة الا إذا تقدم بطلبه في موسكو ذاتها ، وتحاول الدولة الصهيونية سد أى ثغرة مماثلة ، ولذا رفضت أن تحول فنلندا الى نقطة عبور لأن الحكومة الفنلندية أصرت على اعطاء الخيار لليهود السوفييت أن يهاجروا الى أى مكان يشاءون . كما أنها تحاول أن تقوم خطوط الطيران بنقل المهاجرين مباشرة من موسكو الى تل أبيب ، (هشام الدجانى ، هجرة اليهود السوفييت ، الخلفيات والوقائع والتطورات ، شئون فسلطينية ، ابريل ١٩٩٠ ، ص ٨٦ ـ ٨٧) . وقد جاء فى الجيروساليم بوست (٦ اكتوبر ١٩٩٠) أن خطا مباشرا على وشك أن يبدأ .

حينما يصل المهاجر الى اسرائيل فمن حقه أن يصبح مواطنا إسرائيليا فى التو واللحظة ـ أو هكذا كان الأمر فى السابق . ولكن بعد أن ظهرت مشكلات قانونية يمنح المهاجرون لدى وصولهم وضع المقيم ووثيقة مهاجر وبطاقة هوية ، ولذلك يتعين عليهم تقديم معلومات عن اسمائهم وأسماء والديهم وأماكن اقامتهم السابقة ومهنهم وأعمارهم .

وهم يسألون عن ديانتهم ، فاما الذين يعجزون عن تقديم اثبات كشهادة الحاخام او الاسم اليهودى ، وتلك هى حالة معظم اليهود الروس ، فلا يطلب منهم إلا توقيع تصريح يفيد بأنهم يهود . وأما الذين لايستطيعون أن يفعلوا ذلك ، كالزوجات عادة أو غيرهن من الأقارب ، فيمنحون وثائق شخصية تبين جنسيتهم كروس أو اوكراتيين أو ماشابه ذلك .

ولايوجد تمييز حقيقى فى هذه المرحلة بين اليهود وغير اليهود أو بين اولئك الذين امهاتهم يهوديات ، وهو مايجعلهم يهودا بحسب الشرع اليهودى ، وبين أولئك الذين آباؤهم يهود فحسب ، وهو مالايؤهلهم لأن يكونوا يهودا . ثم إن الجميع يحالون من قبل مسئولى الوكالة اليهودية على مسئولى وزارة الاستيعاب العاملين فى المطار ، والذين يطلعونهم على حقوقهم وعلى الترتيبات المعدة لهم مثل الدروس العبرية ، والاعمال المتاحة لهم ، كما انهم يمنحون مبلغا قليلا من المال لتغطية نفقاتهم فى الايام القلائل الأولى .

وبعد مرور عام يصبح اليهود المهاجرون مواطنين اسرائيليين تلقائيا ، اما أولئك الذين يفتقرون الى الوالد « الملائم » وغيرهم من الزوجات غير اليهوديات ، فقد يصبحون مواطنين باعتناق اليهودية دينا ، وأما المهاجرون الذين يزعمون كذبا انهم يهود فيجردون من وثيقة الاقامة ويرحلون (باليس ، ص ٦٢) .

ثم تبدأ اجراءات الاستيعاب وهى تتفاوت من مرحلة لأخرى ولكن فى الوقت الحالى يتم اعطاء المهاجر منحة مالية وقروض

لتوفير الاسكان والمعيشة تعجل باستيعابه فيما يسمى بالاستيعاب المباشر ، ولكن هذه الاجراءات ذاتها تجعل نزوحه فيما بعد صعبا إن لم يكن مستحيلا اذ عليه رد المبالغ والفوائد .

ويلاحظ أنه فى الآونة الأخيرة بدأت اجراءات الاستيعاب فى الاتحاد السوفييتى ذاته اذ إنه نظرا لتأخر كثير من اليهود السوفييت عن الهجرة بسبب متاعهم وحقائبهم التى يستغرق شحنها وقتا طويلا فقد قررت الوكالة اليهودية بالتعاون من منظمة ڤاعد أن تدفع لكل مهاجر ١٥٠٠ دولار ليترك متاعه .

وقد خفض المبلغ فى نوفمبر إلى ألف دولار ، كما خفض الوزن المسموح به لكل مهاجر إلى طن واحد بعد أن كانت الوكالة تدفع مصاريف شحن أى أمتعة يرسلون بها مهما كان وزنها (والتى كانت تبلغ فى المتوسط طنين) . كما لم يعد من حق المهاجر ترك أمتعته فى مستودعات الوكالة اليهودية لمدة تزيد على عشرة شهور . وستطبق هذه القواعد الجديدة ابتداء من يناير ١٩٩١ .

وبطبيعة الحال أحتج المرتزقة وممثلوهم . فقال أحدهم إن هذا سيحول القادمين « من مهاجرين إلى لاجئين » (الجيروساليم بوست ٨ نوفمبر ١٩٩٠) . واحتج ميخائيل تشلينوف الرئيس المناوب لمنظمة ڤاعد على منحة بدل الشحن التى تعطى للمهاجرين قائلا إنه مبلغ صغير ولايمثل اى شيء بالنسبة لأسرة من أربعة يتركون كل ممتلكاتهم وراءهم . وحينما اخبروه بضيق الاسرائيليين من اصرار اليهود

السوفييت على احضار ممتلكاتهم الضخمة بما فى ذلك البيانو، كان رده : «متى سيمكن لليهودى السوفييتى المهاجر أن يشترى بيانو آخر» (الجيروساليم بوست ٧ أكتوبر ١٩٩٠) . (وقد سجل تشيلنوف احتجاجه قبل التخفيض المقترح) . أما صموئيل زيلبرج (وهو الرئيس المناوب الآخر لمنظمة ڤاعد) فقد أشار إلى أن مشكلة المهاجرين ليست قلة الأموال وإنما مقدرتهم على تحويلها (بسبب القوانين السوفييتية) ، ولذا فهم يقومون بشراء أكبر قدر ممكن من السلع المعمرة مرتفعة الثمن مثل الفيديوهات وأفران الميكروويڤ لينقلوها معهم ، (الجيروساليم بوست ، ٨ نوفمبر ١٩٩٠) . وقد وُصِف المجتمع الاسرائيلى بأنه مجتمع الثلاثة ڤيه V - نسبة إلى ولع الاسرائيليين بالڤيللا والڤولڤو والڤيديو - وها هي ذاڤيه رابعة تضاف إليه - رغم أنها تقع في آخر الكلمة . ولعل هذه هى المرة الأولى فى التاريخ تناقش فيه أمور مثل الڤيديو والميكروويڤ فى سياق الحديث عن انقاذ الشعب اليهودى المسكين من المذابح .

واذا قرر المهاجر النزوح فإنه سيفاجىء أنه قد فقد حق دخول الولايات المتحدة باعتباره لاجئًا ولم يعد أمامه الا التقدم بطلب تأشيرة دخول عادية كما يفعل الكثيرون من الاسرائيليين ، «كما أنه سيكتشف أنه غارق في الديون التى تتضمن ثمن تذكرة الطائرة والاقامة والمعونات والقروض التى حصل عليها . ولاتعتبر كل هذه المبالغ هبة الا إذا مكث فى إسرائيل خمسة أعوام . وفى حالة التقدم بطلب الحصول على جواز سفر من أجل المغادرة ، فعلى المهاجر رد المال المستحق عليه فورا . ويتم ارسال جميع المعلومات عن

جوازات سفره إلى دائنه الرسمى « عيد ود بنك » الذى تمتلكه الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب » (باليس ، ص ٧٣) .

وفى ختام هذا الفصل يمكننا أن نحصر السمات العامة للجماعات اليهودية فى روسيا فى الوقت الحاضر :

١ ـ جماعة مسنة .

٢ ـ تدنى الخصوبة بين الاناث .

٣ ـ ارتفاع نسبة الزواج المختلط ووجود عدد كبير من الأعضاء غير اليهود فى الأسرة اليهودية .

٤ ـ الأسر اليهودية صغيرة أو متوسطة الحجم وهى أساسا أسر نووية .

٥ ـ الغالبية العظمى لافراد الجماعات اليهودية يعيشون فى المدن .

٦ ـ تناقص اعدادهم .

٧ ـ يتركزون فى الجمهوريات الأكثر تطورا . (يوجد ثلاث ارباع يهود الاتحاد السوفييتى فى روسيا الاتحادية وأوكرانيا وروسيا البيضاء ومولدافيا) .

٨ ـ متعلمون تعليما عاليا .

٩ ـ عدم تجانس الخلفيات الثقافية والعقائدية لافراد الجماعات اليهودية .

١٠ ـ ازدياد معدلات العملنة بينهم .

١١ ـ عدم انتشار العقيدة الصهيونية بينهم .

١٢ ـ يهاجرون لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى ولذا فالولايات المتحدة هى الدولة الاكثر تفضيلا بالنسبة لهم ، وان كان لامانع لديهم من الهجرة إلى إسرائيل إن كان هذا هو السبيل الوحيد لتحسين أحوالهم المعيشية .

الفصل الخامس

اليـــــهود المتـــخفون وغيـــرهم



بعد هذه المقدمة التاريخية العامة وبعد تقديم هذه الحقائق والأنماط الاحصائية يمكننا أن نتناول القضية أو الواقعة المباشرة : « هجرة اليهود السوفييت » . ولنبدأ بقضية الكم : كم هو عدد المهاجرين ؟ ترددت أرقام كثيرة خلقت حالة من الفوضى وسأذكر للقارىء بعض التوقعات والاحصائيات . فالايكونومست (٢٧ يناير ١٩٩٠) توقعت وصول مليون مهاجر في غضون الخمس سنوات القادمة (أى ٢٠٠ ألف كل عام) . وفى هآرتس (٦ يونية ١٩٩٠) ثمة حديث عن مليون أيضا ، وقد تحدث شارانسكى عن ١٢ مليون (الجيروساليم بوست ١٢ يوليو ١٩٩٠) . وقالت إيدانا ديل ـ وهى من زعماء اليهود السوفييت فى إسرائيل ـ إن عددهم من ٥ إلى ١٢ مليون . وقال أحد الخبراء المجريين إن حوالى ٧ ملايين مهاجر قد يصلون إلى إسرائيل (الجيروساليم بوست ٢٧ يوليو ١٩٩٠) . ومن أطرف الشواهد على الفوضى والتخبط هو ماجاء فى جريدة الجيروساليم بوست (الطبعة الدولية الأسبوع المنتهى ٣ نوفمبر ١٩٩٠) ، ففى صفحة ٣ قالت الصحيفة إن عدد المهاجرين المتوقع وصولهم هذا العام هو ١٨٠ ألف . أما فى صفحة عشرة فتذهب الصحيفة الى ان العدد المتوقع هو : ٢٠٠ ألف (و٢٠٠ ألف العام القادم زيدت الى ٤٠٠ ألف) . ولكن فى ص ١٧ تخبرنا الجريدة ان عدد

المهاجرين الذين وصلوا بالفعل حتى آخر سبتمبر هو ٨٣ الف ، فهل من المتوقع وصول ١١٠ ألف فى الشهور الثلاثة المقبلة ؟ أما بخصوص عدد من وصل بالفعل من اليهود فالأرقام لاتقل اختلافا ، فهناك من يقول إنهم ٣٥ ألف أو ٤٠ ألف أو ٥٠ ألف أو ٨٠ ألف وأن عددهم مع نهاية العام يصل إلى ١٠٠ أو ١٥٠ أو ٢٥٠ ألف (والرقم الأخير رقم شارانسكى الذى أضاف انه يتوقع ٥٠٠ ألف عام ١٩٩١) (الجيروساليم بوست ١٢ يولية ١٩٩٠) . ولعل آخر الاحصائيات هو الذى ورد فى الجيروساليم بوست (٨ نوفمبر ١٩٩٠) والذى يذهب الى أن عدد لمهاجرين عام ١٩٩١ سيكون ٤٠٠ على الألف . ومما يزيد الأمور صعوبة وفوضى انه اعتبارا من مارس ١٩٩٠ صارت المعلومات عن عدد القادمين وعدد المهاجرين المتوقع وصولهم فضلا عن محطات توقفهم فى الطريق تعامل باعتبارها من أسرار الدولة.ولايجوز نشرها فى وسائل الاعلام .

وقد سارعت الصحافة الغربية بنقل الأرقام الضخمة المتضخمة مع أنه كان هناك أخبار أخرى تشكك فى صحتها ، فقد صرح ادوارد شفرنادزة بأنه يتوقع هجرة ١٥٠ ألف يهودى خلال عامين (الجيروساليم بوست ٩ فبراير ١٩٩٠) . كما جاء فى مقال بعنوان وارسو نقطة عبور للسوفييت الآن (بقلم هرى كاينون وولتر روبى مايلى : « من المحتمل ان الموجة الحالية سينتج عنها زيادة عدد المهاجرين الى حوالى نصف مليون يهودى فى الأعوام المقبلة » (الجيروساليم بوست ٩ يونية ١٩٩٠) . وقد ورد بالحرف الواحد فى خبر نشر بالجيروساليم بوست (١٢ مايو ١٩٩٠) مايلى : « يوجد

١٥ ألف شقة وان استمر معدل الهجرة الحالى فستختفى هذه الشقق خلال ستة شهور » . والسؤال لم لاتختفى الشقق فى شهر واحد أو شهرين أو حتى ثلاثة ، أو ستة شهور ، ألا يخبرنا هذا شيئا ما عن معدل الهجرة ، بل إن الجيروساليم بوست فى عددها الصادر ٣ سبتمبر ١٩٩٠ صدرت بالعنوان التالى : « عدد المهاجرين السوفييت هذا العام بلغ ٩٤ ألف حتى الآن » . وهذه كذبة لانه ظهر ان عدد المهاجرين من يناير الى آخر سبتمبر هو ٨٢ ألف . ولكن هذا العنوان الكاذب ربما يهدف الى تغطية العنوان الذى يليه : « الهجرة فى أغسطس أقل من التقديرات المبدئية » . فقد توقعوا ٢٥ ألف ولم يصل سوى ١٧,٥٠٠ ألف . ولعل الجيروساليم بوست (فى افتتاحيتها بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٩٠) قد وصفت الموقف وصفا دقيقا حين قالت : « لاشىء أكيد » بخصوص أعداد المهاجرين . ومع هذا استمر الاعلام العربى (والعالمى) فى نقل الأرقام الضخمة .

والآن ما هو مصدر هذه الأرقام ؟ سنكتشف أن المصدر الرئيسى والأساسى هو المؤسسة الصهيونية التى أذاعتها على الجميع ، ولم يسأل أحد السؤال التقليدى عما إذا كان هناك مصلحة لأحد ما فى إشاعتها ، لأنه إذا كان الأمر كذلك ، فإنها تصبح أرقاما مشكوكا فيها على التو . والمؤسسة الصهيونية لها مصلحة أكيدة فى اشاعة هذه الأرقام فهى أولا تزيد من شرعيتها أمام يهود العالم ، إذ يحول اسرائيل إلى ملجأ لليهود ، خاصة بعد أن أوصدت الولايات المتحدة بعض بواباتها فى وجههم . كما أنها تقوى من يد اليمين الصهيونى داخل النظام السياسى الاسرائيلى ، فأمام هجرة اليهود

السوفييت الاستيطانية ، والهجرة الاستيطانية هى جوهر الصهيونية ، لا يمكن لأحد أن يحاول هز القارب إذ يجب الانتظار وادخار الطاقة لتسهيل عملية الهجرة والاستيعاب . كما أن دعاة الانسحاب من الضفة الغربية ـ داخل المؤسسة الصهيونية ـ يشيرون دائما إلى مشكلة إسرائيل السكانية ، وأنه إن لم تنسحب الدولة من الضفة فإنها ستفقد هويتها اليهودية . وبالتالى فمن مصلحة دعاة التوسع والاستيطان تضخيم أعداد المهاجرين .

كما أن تضخيم الرقم سيساعد إسرائيل على الحصول على المزيد من المعونات من الولايات المتحدة ، فى وقت أصبحت فيه الدولة الصهيونية فى أمس الحاجة إلى الدعم المالى ، والولايات المتحدة تزداد فيه امساكا بسبب عناصر اقتصادية محلية ، وبسبب الرغبة فى تحويل المعونات الى شرق أوربا . وقد ذكرت (الفاينانشيال تايمز) شيئا من هذا القبيل حينما أشارت إلى أن المبالغة فى الأرقام قد يكون الهدف منها « زيادة التبرعات التى تتدفق على الدولة اليهودية سواء من جيوب دافعى الضرائب الأمريكيين أو من مصادر يهودية خاصة » .

ولكن يجب أن نتذكر أن الهجرة اليهودية السابقة لم تترك ذكريات سعيدة لدى المؤسسة الأمريكية إذ أن كثيرا من هؤلاء المهاجرين السوفييت دخلوا عالم الجريمة المنظمة (فى كاليفورنيا ونيويورك) وكونوا مافيا خاصة بهم إلى جانب المافيا التى كونها المهاجرون الاسرائيليون . وقد قام الكونجرس الأمريكى باجراء تحقيق فى الموضوع ، ولابد من

أن صانع القرار الأمريكي يجد أنه من الأوفر له أن يدفع للدولة الصهيونية لاستيعاب المهاجرين ، بدلا من أن ينفق أضعاف ذلك فى مكافحة الجريمة فى بلده ، ولذا كلما تضخم الرقم زادت المعونة وزاد رصيد الصهاينة ، سواء كان هناك مهاجرون أم لا .

وفى خطاب (للچيروساليم بوست) (بريد القراء ٢٣ أكتوبر ١٩٨٩) يناقش أحد القراء رقم الثلاثة بلايين دولار المطلوبة لاستيعاب المهاجرين (الذين كان يقال أن عددهم ١٠٠ ألف وحسب وحتى ذلك التاريخ) ويذهب الى أن « اسرائيل انتقلت من مرحلة إستيعاب المهاجرين السوفييت الى مرحلة استيعاب النقود التى يزعم أنها مخصصة لاستيعاب اليهود السوفييت » . وهو احتمال وارد ولا شك .

كما أن من صالح الكيان الصهيونى ، الذى يعانى من كساد اقتصادى وانتفاضة فلسطينية لا تريد أن تتوقف ، أن يحرز نصرا ما على إحدى الجبهات ، ويستحسن أن يكون هذا الإنتصار ضخما مدويا ، حتى ترتفع معنوياته . وهذه النقطة الأخيرة لها علاقة وثيقة بالانتفاضة إذ تحولت المسألة الى حرب مستمرة بين فريقين سيربحها صاحب النفس الأطول ، وإشاعة مثل هذا الرقم محاولة لتثبيط عزم وقوة المنتفضين ، (وبالفعل قابلت فى عمان صديقة فلسطينية كنت أعرفها قبل عام ١٩٦٧ جاءت لتوها من الضفة ، وكل حديثها كان مفعما بالأمل ، ولم تتجهم الا حينما ذكرت الهجرة السوفييتية ، ويبدو أن الإعلام الصهيونى فى الداخل قد ركز على هذه النقطة كثيراً) .

هذا هو العنصر الأول ، وهناك عنصر ثان وهو أن العدو ربما يعنى ما يقول بخصوص المهاجرين اليهود وأنه بالفعل يتوقع وصول ٧٥٠ ألف مهاجر أو حتى مليون أو مليونين ، ولكنه ليس من المستبعد أن يقع العدو فى الخطأ وأن يفشل فى تكوين صورة موضوعية عن الواقع ، وخاصة اذا كان أمله الوحيد أن تتحقق الهجرة على هذا المستوى . كما أن الصحافيين الغربيين الذين يروجون للأرقام الضخمة هم أيضا بشر ، وهم أيضا ضحايا للآلة الإعلامية الجهنمية ، ولابد من أن تصدر الجريدة يوميا فى الصباح ولابد من أن يظهر فيها الخبر ، واذا قالت التيكرز لصحفى ما إن عدد المهاجرين هو ٧٥٠ ألفا أو مليون ، فلا يوجد عنده من الوقت ما يسمح له أن يذهب إلى المكتبة ليستخرج بعض المراجع ليتحقق من مدى معقولية الرقم أو صدقه .

وقد لاحظ الآن فراشون فى (اللوموند فى القبس ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) شيئا مما ذكرناه فهو يشير إلى اتجاه السلطات الصهيونية نحو « تضخيم وتفخيم الظاهرة » ومن ثم « يجد المرء نفسه تائها وسط الأرقام والتقديرات ، ففى بداية شهر أكتوبر الماضى ، أعلنت اسرائيل أن مائة ألف مهاجر سيصلون الى فلسطين المحتلة خلال السنوات الثلاث المقبلة . وفى بداية نوفمبر الماضى ، تحدث شامير عن موجة هجرة قريبة تضم نصف مليون مهاجر يهودى سوفييتى ، ووصل هذا الرقم خلال ديسمبر إلى ٧٥٠ ألفا ، وبما أن الأرقام تتضخم كل يوم كان الرقم الأخير المعلن مليون شخص » .

ويبدو أن كثيرا من الصحفيين قبلوا بالرقم ٧٥٠ ألفا بناء على عدد التذاكر المحجوزة بين لينينجراد وبودابست وبوخارست محطتي الترانزيت الى فلسطين المحتلة . فمندوب (اللوموند) يقول إن الرحلات بين المدن الثلاث محجوزة بالكامل حتى يوليو ١٩٩١ لما يقدر بـ ٧٥٠ ألف مهاجر من أصل حوالى مليونين ، وأضاف قائلا أنه لدى كل يهودى سوفييتي رسالة دعوة لزيارة من قبل أصدقاء أو أقارب فى اسرائيل (القبس ١٥ فبراير ١٩٩٠) .

ولا ندرى هل يتطلب نظام حجز التذاكر فى الاتحاد السوفييتى أن يذكر الراكب قوميته أم لا ؟ ويجب أن نضيف أن من يحجز مكانا فى طائرة لن يغادر بلده بالضرورة ، وهناك من يحجز أكثر من مقعد مبالغة فى الحرص ، وهناك من حجز بسبب حالة ذعر أولية ثم قد يتراجع بعد ذلك ؟ وعندنا حالة يهود جورجيا فعندما قرر الاتحاد السوفييتى فى أوائل السبعينيات تطهير الحزب هناك من العناصر الفاسدة فزعت بعض العناصر اليهودية التى كانت متورطة فى عمليات السوق السوداء وتجارة العملة وغيرها . ومن ثم بدأت هذه العناصر فى الهجرة ، ومن المعروف أن يهود جورجيا كانت تأتيهم دعوات تفوق عددهم ! ولكن بعد حالة الفزع الأولى واكتشاف سكان جورجيا (بما فى ذلك اليهود) أن الأمور ستسير كما كانت عليه فى سابق عهدها هدأت النفوس وتوقفت الهجرة اليهودية على الرغم من الحجوزات والدعوات .

ويشير الآن فراشون فى مقالة الى أن الوكالة اليهودية فى القدس ذهبت الى ان اسرائيل ستستقبل مائة ألف يهودى

سوفييتى خلال السنوات الثلاث المقبلة (بناء على أنه فى سنة الذروة عام ١٩٧٩ هاجر ٥١,٣٣٣ يهودى ، بينما هاجر فى العام الماضى ٧١ ألف يهودى تقريبا ، لم يهاجر منهم إلا احد عشر ألف الى اسرائيل) . هذا التقدير المبدئى الذى يستند الى بعض المعطيات الملموسة قام شامير وأعضاء المؤسسة الحاكمة فى اسرائيل برفضه واستندوا بدلا من ذلك إلى طلبات تأشيرات الخروج الموضوعة فى الوقت الحالى بين أيدى السلطات السوفييتية . ويقولون إن هناك ما يقرب من أربعمائة ألف طلب ، ومثل هذا الرقم يسمح بالقول بأن مئات الألوف من المهاجرين الجدد سيصلون الى اسرائيل خلال السنوات المقبلة .

ومن الواضح أن أساس رقم شامير واه للغاية ، ورفضه لرقم الوكالة اليهودية يدل على رغبته الحادة فى اشاعة الرقم ، كما أحب أن أسأل لِمَ لم يرجع شامير الى أحد مراكز البحوث المتخصصة فى اسرائيل ؟ ألا يتسم العقل الصهيونى ـ كما يقال لنا دائما ـ بالعلمية والموضوعية والمقدرة على التخطيط ؟ لم لم يسأل رئيس الوزراء الصهيونى موردخاى التشولار وهو من أهم المتخصصين فى الجماعات اليهودية فى العالم ، وهو له وجهة نظر محددة فى الموضوع ، فهو وغيره من العلماء الديموغرافيين يذهبون إلى أن عدد يهود الاتحاد السوفييتى أقل من مليون ونصف . لم لم يستشرهم أحد ؟

لكل هذا يمكن القول إن رقم ٧٥٠ ألف مهاجر رقم مبالغ فيه لأقصى حد إذ أنه يشكل حوالى نصف عدد يهود الاتحاد

السوفييتى . ولم يحدث قط فى تاريخ يهود روسيا قبل أو بعد الثورة البلشفية أن هاجر ٥٠٪ منهم دفعة واحدة .

إننى لست من المتخصصين فى شئون الهجرة ولكننى أعرف بضعة أشياء عن النفس البشرية ، وهجرة ٥٠٪ لا يمكن تصورها إلا فى حالات متطرفة إلى أقصى حد . والمعرفة الانسانية معرفة تاريخية مقارنة ، ونحن نعرف أنه فى عصر الهجرة اليهودية الكبرى ، حينما توقف الاقتصاد الروسى عن النمو تماما وصدرت قوانين مايو ١٨٨٢ التى أغلقت أبواب الحراك الاجتماعى أمام اليهود وغيرهم من الطبقات والجماعات فان حجم المهاجرين لم يزد على ٢٥٪ ، وذلك فى وقت كانت الولايات المتحدة فيه على استعداد لتوطين كل من يشاء . وهذا أمر مفهوم ، اذ أن من يهاجر لابد من أن تتوافر فيه مواصفات جسدية ونفسية ووظيفية معينة ، فهو لابد من أن يكون قادرا على الحركة وعلى تحمل شظف العيش . كما أنه لابد من أن يكون عنده الاستعداد النفسى للبدء من نقطة الصفر وللتجريب والمحاولة والخطأ ، وهذه المواصفات لا تنطبق إلا على مرحلة عمرية معينة عادة ما تكون بين سن العشرين والأربعين ، ونسبة المسنين بين يهود الاتحاد السوفييتى مرتفعة (وهذه أيضا من الظواهر العامة التى تسم الجماعات اليهودية فى العالم الغربى) . ففى عام ١٩٨٨ كان ٥٠٪ منهم فوق الخمسين (أكثر من نصفهم فوق الستين) ، فإذا استبعدنا بعض المعوقين والمرضى فإن نسبة القادرين على الهجرة لا يمكن أن تكون بأية حال ٧٥٠ ألفا .

ومن المواصفات التي يجب أن تتوافر فى المهاجر أن يكون عنده من الخبرات والمهارات ما يظن أنه يمكنه استخدامها للبدء من جديد فى الوطن الجديد ، وكثير من يهود الاتحاد السوفييتي يمتلك خبرات لا يمكن استخدامها الا فى الاتحاد السوفييتى مثل العاملين فى بيروقراطية الحزب الشيوعى السوفييتى ، واليهود كانوا من أكثر الأقليات تمثيلا فى هذه البيروقراطية . كما أن العاملين فى المزارع الجماعية وغيرها من القطاعات الاشتراكية ليس عندهم خبرات تؤهلهم للعمل خارج الاتحاد السوفييتى . ويمكن أن نضم إلى هؤلاء الفنانين الذين تعودوا الانتاج والابداع من خلال تمويل الدولة وليس عندهم الكفاءات اللازمة للعمل فى السوق .

أرجو أن يلاحظ القارىء أننا حتى الآن لم نتحدث الا عن القادرين على الهجرة أو المرشحين لها ، وفى تقرير عدد هؤلاء عادة ما تستخدم مواصفات موضوعية برانية عامة . ونحن لم نتحدث بعد عن الراغبين فى الهجرة ، وهؤلاء يخضعون إلى معايير مختلفة ، ذات طابع ذاتى جوانى ، ونحن بذلك سننتقل من عالم الأرقام المحدد الصلب إلى عالم الرغبات والأمنيات المركب الغامض . فكل هجرة ـ كما أسلفنا ـ يحكمها عنصران : عنصر طرد من الوطن الأصلى وعنصر جذب إلى الوطن الجديد . وعناصر الطرد والجذب لا يمكن تحديدها بشكل كمى منضبط اذ أن ما يشكل عنصر طرد لشخص ما ، قد لا يكون بالضرورة كذلك لشخص آخر . كما أن درجة الطرد والجذب تختلف من إنسان إلى آخر . وإلى جانب عنصرى الطرد والجذب يوجد المتساقطون الذين يزعمون أنهم سيذهبون إلى إسرائيل ثم يتجهون إلى الولايات المتحدة ، فإن أوصدت أبوابها دونهم فهم يتجهون الى أى بلد

آخر أو يمكثون فى أوربا فى انتظار الفرج ، والتساقط هو فى واقع الأمر نتيجة عنصر جذب ـ من بلد جديد آخر غير اسرائيل .

والتحدى الأكبر لإسرائيل يأتى من الولايات المتحدة التى تفوق جاذبيتها أرض الميعاد ، ولذا اجتذبت ـ كما أسلفنا ـ ٨٥٪ من كل اليهود المهاجرين فى العالم منذ نهاية القرن التاسع عشر (و٨٥٪ من كل المهاجرين من كل الجنسيات والمصادر) . ونحن نعرف أن الولايات المتحدة ستمنح المهاجرين السوفييت ٥٠ ألف تأشيرة دخول ، وهؤلاء المهاجرون سيحصلون على المعونات التى تمنحها الولايات المتحدة لهم ولغيرهم ، ممن هم فى الوضع القانونى نفسه ، ولكن هناك أيضا الألوف التى يمكنها أن تحصل على تأشيرة بناء على ما يسمى Attorney General's Parole Authority

وهؤلاء يمكنهم دخول الولايات المتحدة بشكل قانونى ولكنهم لن يحصلوا على معونات ، وهناك كذلك الآلاف الأخرى التى ستتسلل بشكل غير قانونى .

وقد نشرت الهيراليد تريبون (٣٠ أكتوبر ١٩٩٠) أن الولايات المتحدة تعانى من نقص فى العمالة ولعلاج المشكلة أصدر الكونجرس قانونا من شأنه زيادة الهجرة بما يزيد على ٣٥٪ للمساعدة فى النمو الاقتصادى . وأهم ملامح القانون الجديد أنه يعطى الحق لوزارة الخارجية أن تسمح بدخول مهاجرين عندهم مهارات تحتاج إليها الولايات المتحدة . وسيؤدى هذا إلى أن التأشيرات التى ستمنح على أساس المهارة للعمال وأقاربهم ستزيد من ٥٤ ألف إلى ١٤٠ ألف .

ويمقتضى هذا القانون سيزداد عدد المهاجرين من ٥٠٠ ألف إلى ٧٠٠ ألف حتى عام ١٩٩٥ يهبط بعدها الى ٦٧٥ ألف . وقد صرح الرئيس بوش أنه موافق على القانون وسيوقع عليه . ولا نعرف بعد أثر هذا على الهجرة السوفييتية . ولكن لاشك فى أن هذا يعنى زيادة الأعداد على خمسين ألف . بل إن هناك أنباء عن أن الأعداد قد زيدت بالفعل عن خمسين ألف (مابين ٢٠ ـ ٣٠ ألف) وذلك حتى قبل صدور القانون .

ونضيف الى كل هذا هؤلاء الذين سيخرجون من الاتحاد السوفييتى ثم سيرفضون الاستمرار فى رحلتهم وسيبقون إما فى النمسا أو ايطاليا أو غيرها من بلاد العالم رغم عدم حصولهم على تأشيرات هجرة الى الولايات المتحدة .

وقد يقول قائل إن أبواب الهجرة أغلقت أمام هؤلاء ، وعليهم أن يذهبوا الى أرض الميعاد صاغرين ، ولنر الآن ماذا يقول آرثر أوبليون ، وهو موظف أمريكى سابق عمل فى ادارة الهجرة والجنسية الأمريكية بين عامى ٧٨ ـ ١٩٨٣ ، أعوام الهجرة السوفييتية السابقة ، وقد استقر فى اسرائيل ، وقام هو وزوجته بالسفر الى لاديسبولى بالقرب من روما فى إيطاليا حيث يعيش عديد من المتساقطين وقام بسؤالهم عن قضية الهجرة الى اسرائيل . ويشير أوبليون الى آلاف من الذين رفضت الولايات المتحدة أعطاءهم تأشيرة ومع هذا لايزالون هناك ، وأشار الى وجود ما بين ٥٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ فى روما ومثلهم فى ألمانيا ، كما ذكر أنه ما بين ستة وسبعة آلاف منهم حصل على الجنسية النمساوية . وقد توصل أوبليون الى ما يلى : « أعتقد أن الموقف سيتكرر ، ولا ننسى أنه ليس من

السهل على البلاد الأوربية ، خاصة المانيا والنمسا ، أن تطرد اليهود » ـ وهو يشير بذلك إلى « عقدة الذنب » اياها التى طالما ولدها الصهاينة فى نفوس الأوربيين وغذوها ورعوها (الجويش ويك ٢٧ أكتوبر ١٩٨٩) .

كما أن المتحدثين باسم اليهود السوفييت أنفسهم يذهبون الى أن إغلاق أبواب الولايات المتحدة لن يؤدى بالضرورة الى تحويل سيل المهاجرين إلى إسرائيل . وقد نشرت جريدة الميامى جويش تربيون (٢٠ يناير ١٩٩٠) إعلانا بعنوان « إلى اليهود الأمريكيين .. رجاء من نشيطى اليهود السوفييت » وقعه بعض كبار المتحدثين باسم يهود الاتحاد السوفييتى وجماعات الهجرة اليهودية التى تشرف على هذه الهجرة وتشجعها . يبدأ الاعلان بأن يذكر الموقعون عليه أنهم يمثلون كل « تيارات الحياة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى ، بما فى ذلك نشيطو الهجرة والبعث الثقافى ومعلمو العبرية والصهاينة وغير الصهاينة » . وهم يهيبون بيهود أمريكا العمل على فتح أبواب بلادهم بأى ثمن للمهاجرين اليهود . ويستطرد الاعلان قائلا : « قد يجيب البعض قائلا إذا كان يهود الاتحاد السوفييتى حقا فى خطر ، فإن إسرائيل ستكون لهم بمثابة ملجأ أمن ، وهذا صحيح بطبيعة الحال ولكن يجب أن نعرف أن الغالبية العظمى من اليهود السوفييت لا تزال ترفض الذهاب الى هناك . وما يسبب قلقنا أن عدة آلاف كانت ستترك الاتحاد السوفييتى لن تهاجر إن لم تستطع الذهاب إلى الولايات المتحدة » .

ونود هنا أن نشير إلى دور منظمة هاياس HIAS وهى

مؤسسة أمريكية دينية يهودية أرثوذكسية اسمها اختصار (جمعية مساعدة المهاجر العبرى) وهى جمعية كان لها مركز فى فيينا ، وكانت تساعد المهاجرين السوفييت على التوجه إلى الولايات المتحدة بدلا من إسرائيل ، وتمد الراغبين منهم فى الحصول على تأشيرة دخول بالنصح وبالمساعدات المالية . وحاولت المؤسسة الصهيونية إغلاقها دون جدوى . وكمحاولة للالتفاف حولها أصدرت سلطات الهجرة الأمريكية عام ١٩٨٩ قرارا بألا يسمح لليهود السوفييت بالهجرة إلى الولايات المتحدة إلا إذا تقدموا بطلب تأشيرة وهم لا يزالون فى الاتحاد السوفييتى ، ففتحت الجمعية مكتبا لها فى موسكو فى فبراير ١٩٩٠ . وقد اتهم عضو الكنيست الاسرائيلى ميخائيل كلاينر رئيس لجنة الهجرة فى الكنيست منظمة هاياس بأنها « نمو سرطانى يجب استئصاله » وذلك بعد نجاحها فى استصدار ثمانية آلاف تأشيرة دخول للولايات المتحدة للمهاجرين اليهود السوفييت ، زيادة عن النصاب (الجيروساليم بوست ١٩ فبراير ١٩٩٠) .

وقد كان رد هاياس على هذا أنه من الضرورى التضحية بمصلحة الصهيونية (ودولتها) فى سبيل حماية اليهود . وكما قال الحاخام شنيئرسون ، أبرز وجوه الجمعية ، « كيف يمكن لإسرائيل أن تنحط إلى حد المطالبة بحجب الخبز والماء عن يهود لا يفكرون على طريقتها ؟ » . أما الحاخام يتسحاق بيريتس وزير الاستيعاب وهو يهودى أرثوذكسى فقد أكد أنه « إذا كان طريق النجاة لليهود السوفييت سيقودهم إلى أوربا

الغربية أو الولايات المتحدة ، فإن ذلك أفضل لهم من البقاء في الاتحاد السوفييتي » (باليس ص ٥٩) .

وما نود تأكيده هنا أن بعض المؤسسات الأمريكية ذات التوجهات غير الصهيونية لاتزال نشيطة وستساهم في تشجيع حركة التساقط .

ويجب الا ننسى أيضا البلاد الاستيطانية الأخرى مثل كندا واستراليا ونيوزيلنده وهي لاتزال مراكز جذب ، خاصة كندا التي توجد فيها نواة يهودية قوية ، فيها عناصر سفاردية وشرقية وأخرى اشكنازية ، ولابد أن بعض أعداد المهاجرين ستتسرب إلى هناك (تعد أمريكا اللاتينية وجنوب افريقيا ـ خاصة بعد الافراج عن مانديلا ـ من مراكز الطرد) .

ويمكننا عند هذه النقطة أن نحاول حساب عدد المهاجرين الذين « سيخرجون » من الاتحاد السوفييتي ، وهذا مختلف تماما عن عدد الذين « سيدخلون » إسرائيل أى سيهاجرون إليها ، فكما بينا بين موسكو وتل أبيب يوجد الولايات المتحدة ـ ثم الدول الأوربية ـ ثم الدول الاستيطانية الأخرى ـ ثم هناك موسكو ذاتها مرة أخرى . وإذا افترضنا أن عدد يهود الاتحاد السوفييتي هو مليون ونصف المليون فإن عدد من سيخرج سيكون حوالى ٢٥٪ على أحسن الأحوال أى حوالى ٤٠٠ ألف ، فإذا كانت الولايات المتحدة ستستوعب حوالى ٥٠ ألفا كل عام ويمكن للبلاد الأخرى أن تستوعب حوالى خمسة عشر ألفا بطرق شرعية أو غير

شرعية ، فنحن نتحدث عن ٦٥ ألف مهاجر لن يدخلوا إسرائيل كل عام ، فإن امتدت الهجرة إلى حوالى خمسة أعوام فإن هذا يعنى أنه يمكن تسريب غالبية المهاجرين إلى خارج فلسطين . وعلى كل ، هذا هو ماحدث فى كل الهجرات اليهودية السابقة ، فالهجرة الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر هاجر ٨٥٪ من أعضائها إلى الولايات المتحدة ، وهجرة ١٩٧٠ - ١٩٩٠ هاجر ٦٦٪ من أعضائها إلى الولايات المتحدة حسب تقدير أرينز . والطريف أن أجهزة الإعلام العربية لم تنتبه إلى أن الدلائل كانت تشير إلى أنه لو فتح باب الهجرة فإن مايزيد على مائتى ألف يهودى سوفييتى سيتركون الاتحاد السوفييتى (وفى تقرير آخر يقال إن العدد سيصل إلى ٤٠٠ ألف) ، وكان لا يتوقع أن يهاجر منهم إلى إسرائيل إلا ٢٠٪ - كما صرح إسرائيل فاينبلوم ، المهاجر السوفييتى المقيم فى إسرائيل (الجيروساليم بوست ٣٠ أابريل ١٩٨٧) إلى أن قررت المؤسسة الصهيونية تغيير الحقائق .

وقد يقول قائل إن هناك مصادر أخرى للمادة البشرية القتالية للمستوطن الصهيونى . ويمكننا أن نمر سريعا بهذه المصادر من منظور قابلية أفراد الجماعات اليهودية فيها للهجرة .

أولا : البلاد الاستيطانية :

أ) بلاد الجذب : الولايات المتحدة الأمريكية وكندا أو استراليا ونيوزيلنده . وهذه البلاد لا يهاجر منها يهود إلا بأعداد قليلة غير مهمة احصائيا ، فالولايات المتحدة التى

تضم أكبر تجمع يهودى على وجه الأرض (٥,٧٠٥,٠٠٠) لا يهاجر منها إلا ألفين كل عام ، من بينهم مسنون يبحثون عن مكان رخيص للتقاعد . أما كندا أو أستراليا ونيوزيلنده فعدد اليهود فيها صغير (٣٠٨ آلاف فى كندا) أو صغير للغاية (٧٩ ألفا فى استراليا ونيوزيلنده) ، وهى أساسا بلاد جذب كما أسلفنا .

ب) بلاد الطرد : وهما جنوب افريقيا وأمريكا اللاتينية ، أما جنوب افريقيا فعدد اليهود فيها لا يتجاوز ١٢٠ ألفا ولكنها إذا كانت بلد طرد لليهود فهى أيضا بلد جذب للإسرائيليين (إذ هاجر إليها حوالى ٢٥ ألف إسرائيلى) . كما أن اليهود الذين يهاجرون منها يؤثرون الهجرة إلى العالم الغربى نظرا لارتفاع مستواهم المعيشى ولم تستوطن إلا أعداد صغيرة للغاية منهم فى إسرائيل . أما أمريكا اللاتينية فاليهود فيها تتوافر فيهم مواصفات المهاجر المحتمل إلى إسرائيل فهى بلاد طرد كما أن المستوى المعيشى منخفض ومن ثم تشكل الهجرة إلى إسرائيل حراكا اجتماعيا للمهاجر ، ولكن ـ كما أسلفنا ـ لم يهاجر يهود أمريكا اللاتينية ، الذين يوجد حوالى نصفهم فى الأرجنتين ، إلى الدولة الصهيونية .

ثانيا : بقية العالم ماعدا أوربا :

وقبل أن ننتقل ليهود أوربا نود أن نشير إلى أنه لا يوجد جماعات يهودية فى آسيا أو افريقيا (باستثناء أثيوبيا ١٣ ألفا وإيران ٢٥ ألفا والمغرب ١٣ ألفا) وبضعة آلاف هنا وهناك .

وبالتالى لا تمثل هذه البلاد مصدرا حقيقيا ـطاقة البشرية وقد هاجر معظم الراغبين فى الهجرة منها والقادرين عليها .

ثالثا : أوربا :

أ) بلاد الجذب : وهى أساسا بلاد أوربا الغربية ويتركز يهود أوربا الغربية بين فرنسا (٥٣٠ ألفا) وانجلترا (٣٥٠ ألفا) وجماعات متناثرة فى البلاد الأخرى (بلجيكا ٣٠ ألفا ، ألمانيا الغربية ٢٨ ألفا ، اليونان ٥ آلاف ، ايطاليا ٣٤ ألفا ، وهولندا ٢٥ ألفا ، السويد ١٥ ألفا ، سويسرا ١٨ ألفا ، أسبانيا ١٢ ألفا ، تركيا ٢٣ ألفا) . ويهود أوربا الغربية يتمتعون بحياة سياسية مستقرة ويتمتعون بمستوى معيشى عال وهم مندمجون فى مجتمعاتهم التى لها جاذبية مطلقة بالنسبة لهم .

ب) بلاد الطرد : وهى شرق أوربا ، وشرق أوربا كانت تضم أكبر تجمعات يهودية فى العالم ، إلا أنها تكاد تكون خالية من اليهود فى الوقت الحاضر إذ لا يزيد عددهم فيها عن مائة ألف إن أخذنا بأن عدد يهود رومانيا ٣٠ ألفا وليس ٨٠ ألفا ، وهو رقم خلافى ، ومعظم يهود شرق أوربا مسنون أو مندمجون كما أنه خلال الأربعين عاما الماضية هاجرت العناصر الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها . وبالتالى فشرق أوربا لا يمكنه أن يزود المستوطن الصهيونى بأية مادة بشرية جديدة . فالحديث عن الملايين القادمة لا يمكن قبوله بناء على المعطيات الاحصائية المتداولة ، ولا يمكن أخذه على عواهنه .

وقبل أن نترك الأرقام تماما وحتى لا يستنيم أحد لهذه النتائج وتتحول إلى تبرير لمزيد من النوم العربى أحب أن أقرر أنه لا يوجد شىء نهائى فى الحياة الدنيا (الا القيم الأخلاقية المطلقة) فكل

شيء خاضع للتغيير وكل تقديراتنا احتمالية ، ولذا أحب أن أذكر النقطتين التاليتين :

أولا : ما أقدمه ليس أرقاما نهائية وحقائق صلبة وإنما هو اجتهاد وحسب ، قد يصيب صاحبه فله أجران وقد يخطيء فله أجر واحد ، وهو اجتهاد يستند إلى قواعد فى الرصد والربط والتحليل وما أقدمه هو هذه القواعد أو الطريقة التى توصلنا من خلالها إلى النتائج لا النتائج ذاتها وحسب . أما ما يتداول من أرقام فهو نتيجة الموضوعية المتلقية التى تكتفى بنقل الأرقام دون اجتهاد أو أعمال للعقل ، ودون تحليل أو تفسير .

ثانيا : قد يحدث شيء فجائى ما فى الاتحاد السوفييتى يغير الصورة تماما مثل حدوث تدهور اجتماعى واقتصادى كامل ، قد يدفع بالملايين من اليهود وغير اليهود خارج الاتحاد السوفييتى (وهذه متتالية احتمالية افتراضية فى غاية الأهمية ، لابد من وضعها فى الاعتبار . وقد تتحرك إسرائيل بذكاء شديد وسرعة فتخلق الصعاب فى وجه المتساقطين بحيث تجعل حياتهم مستحيلة فيضطرون للتوجه صاغرين إلى أرض الميعاد ، فإن كان عدد المهاجرين المحتمل هو بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠ ألف فإنه يمكن أن نجدهم كلهم فى إسرائيل ، وهذه كارثة حقيقية . فالصورة التى رسمناها والتوقعات التى بيناها هى مادة محايدة وإمكانية كامنة ومن ثم فهى يمكن أن توظف لصالحنا إن تحركنا ويمكن أن توظف ضدنا إن آثرنا السكون والسكينة . وكما قال الحاخام جداليا رابينوفتش (وهو حاخام من بروكلين فى الولايات المتحدة فتح مدرسة تلمودية فى موسكو فى فبراير الماضى) حينما سئل عن عدد المهاجرين ؟ « لإسرائيل أم لأمريكا ؟ وكم عدد الذين سيمكثون ليساعدوا فى بناء نهضة يهودية فى

روسيا » ؟ ثم أضاف : « نظرا لأن الموقف متقلب للغاية لا يوجد طريقة للتنبؤ بالمستقبل » (النيويورك تايمز ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩) . فالموقف فى حالة سيولة كبيرة .

ومصدر هذه السيولة أن ثمة أبعادا أخرى لابد من أخذها فى الاعتبار . ونحن قد تحركنا حتى الآن فى إطار أرقام ثابتة تفترض وجود كم يهودى محدد مندمج أو غير مندمج ، صهيونى أو غير صهيونى . ولكن الأمر قد يكون مختلفا قليلا ، فدانيال دورون (مدير مركز إسرائيل للتقدم الاجتماعى والاقتصادي ، وهو مركز بحوث استشارى خاص فى تل أبيب متخصص فى السياسات العامة والاقتصادية) ويورى ستيرن (وهو من كبار الرافضين اليهود السوفييت وكان يعمل اقتصاديا فى جامعة موسكو واستوطن فى إسرائيل) ، فى مقال لهما عن اليهود السوفييت يوردان هذه القصة : « سئل أحد القادة السوفييت مرة عن عدد اليهود فى الاتحاد السوفييتى فقال : ما بين مليونين وثلاثة ملايين » . فسئل عن عدد هؤلاء الذين يرغبون فى الهجرة فأجاب : « ستة ملايين » . (الوول ستريت جورنال ٢٩ ـ ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩) . وقد تكون القصة نكتة طريفة تتحدث عن مدى جدة الرغبة فى الهجرة ، ولكن مدلولها قد يكون أعمق من ذلك بكثير . فهناك ظاهرة اليهود المتخفين ، وهؤلاء هم اليهود الذين ينكرون هويتهم لأسباب عملية عديدة ، وعادة ما يذوب هؤلاء وينصهرون فى مجتمعاتهم بعد عدة أجيال ، ولكنهم قد يظهرون هويتهم اليهودية تحت ظروف معينة . ولنضرب مثلا بيهود المارانو وهم يهود إسبانيا المتخفون ، الذين أظهروا الكاثوليكية وأبطنوا اليهودية فى القرن السابع عشر . ورغم مرور مئات السنين ظلت أعداد منهم محتفظة بهويتها

المتخفية ـ رغم ضعفها وهزالها وتآكلها ـ حتى الوقت الحاضر . (وبالمناسبة ، هذه ليست ظاهرة مقصورة على اليهود إذ أن أعدادا كبيرة من الموريسكيين ، وهم بقايا مسلمى الأندلس ، قد أظهروا الكاثوليكية ، وأبطنوا الإسلام لمئات السنين أيضا . وقد ذكر أحد الرحالة الانجليز فى القرن التاسع عشر أنه مر بقرية كان أهلها مسلمين متخفين . كما أن أحد أساتذة الأنثروبولوجيا فى أسبانيا أخبرنى أنه هناك عدة قرى من هؤلاء المسلمين المتخفين) . هؤلاء المارانو أو اليهود المتخفون عادة ما يظهرون هويتهم اليهودية الخفية حينما تسنح لهم الفرصة . وبالفعل هذا ما حدث فى أسبانيا وبدأت أعداد منهم تعود لليهودية بشكل علنى ، وقد تم التفاوض بينهم وبين إسرائيل أخيرا وتقرر أن يهاجروا اليها شريطة أن يقبلوا التهود إذ أن الشرع اليهودى لا يعترف بهم يهودا . ويبدو أن أعدادا منهم قبلت بذلك ، وعدد هؤلاء المارانو هو خمسة عشر ألفا . لم لم يهيج الإعلام العربى ضد الهجرة المارانية ؟ !

ولكن هناك حالات أقل درامية من حالة يهود المارانو وإن كانت تشبهها من بعض النواحى وهى حالة يهود تشيكوسلوفاكيا فعدد الذين سجلوا أنفسهم يهودا لا يزيد على ستة آلاف ، ويقال إنه يوجد حوالى ستة آلاف آخرين مسجلين على أنهم غير يهود وهم فى واقع الأمر يهود . ويبدو أنه إبان الحرب العالمية الثانية قبلت بعض الكنائس المسيحية تسجيل أعداد من اليهود على أنهم مسيحيون لتتيح لهم فرصة الافلات من الارهاب النازى . ومع انتهاء الحرب

احتفظ هؤلاء بالوضع القائم ، فهو يتهم اليهودية على أية حال كانت ضعيفة للغاية ، وتوجد أعداد كبيرة من هؤلاء فى أمريكا اللاتينية إذ أصدرت الكنيسة الكاثوليكية لهم شهادات تعميد حتى يمكنهم الهجرة من أوربا إلى أمريكا اللاتينية (التى كانت لاتقبل اليهود آنذاك) . وقد احتفظت أعداد كبيرة من هؤلاء بانتمائهم الكاثوليكى الجديد . وقد تزايد عدد يهود المكسيك فجأة من عشرة آلاف إلى ٣٥ الفا ، ويقال فى تفسير هذا الوضع إن كثيرا من اليهود المتخفين أفصحوا عن هويتهم ليستفيدوا من المساعدات السخية التى يقدمها يهود أمريكا ، كما أن البعض يذهب إلى أن بعض فقراء المكسيك (من غير اليهود) سجل نفسه يهوديا حتى يحقق شيئا من الحراك الاجتماعى وحتى يصبح من السهل عليه الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وهذه طريقة أسهل للتسلل .

كما وردت هذه العبارة الغامضة فى مقال نشر فى جريدة الأنديبندانت (القبس ٤ مارس ١٩٩٠) « لم يتبق فى بولندا إلا ما يعادل ٦٠٠٠ شخص من الأقلية اليهودية الفعلية ، إضافة إلى بضعة آلاف يعتبرون أنفسهم يهوداً » . ولعل العبارة تشير إلى ظاهرة مماثلة لتلك التى نتحدث عنها .

مهما كان الأمر فإنه يجب ألا نستبعد شيئا من هذا القبيل فى الاتحاد السوفييتى : أى أن يظهر بعض اليهود المتخفين ، أو أن ينضم إلى اليهود عناصر شبه يهودية أو غير يهودية من منظور الحاخامية التى صرحت أن مابين ٣٠ ـ ٤٠٪ من المهاجرين السوفييت ليسوا يهودا للأسباب التالية :

أ) الزوجة ليست يهودية .

ب) الزوج لم يختن .

جـ) الأبناء ليسوا يهودا (لأن الأم ليست يهودية) .

د) أن واحدا من الزوجين لا تربطه أى صلة بالديانة اليهودية (القبس ٥ ابريل ١٩٩٠) . وقد يتسلل معهم عناصر غير يهودية أصلا ، والهدف واحد فى كل الحالات وهو الاستفادة من الفرص الجديدة المفتوحة أمام اليهود فى الولايات المتحدة أو إسرائيل .

ولنبدأ باليهود المتخفين . توجد إشارات عديدة لهم الآن فى الدراسات السكانية ويطلق عليهم اصطلاح اليهود المجهولين وهى تسمية غير دقيقة باعتبار أن غالبيتهم تعرف أصولها اليهودية وتنكرها لأسباب عديدة . وهم يبلغون حسب تقديرات لاست أهارون حوالى ١,٣ ـ ١,٥ مليون وسيصل عددهم ١,٢ مع نهاية القرن الحالى . وعددهم لم يتأثر كثيرا بالهجرة وهم يتمتعون بمستوى تعليمى مرتفع للغاية (الكتاب السنوى للموسوعة اليهودية ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩) .

ونحب أن نثير الآن قضية شبه اليهود أو غير اليهود من منظور دينى . ولنبدأ باستعراض قانون العودة الاسرائيلى : ينص قانون العودة على أن اليهودى هو من ولد لأم يهودية أو تهود وليس عضوا فى دين آخر . وتحاول المؤسسة الأرثوذكسية تعديل القانون بحيث تجعل اليهودى هو من تهود حسب الشريعة أى على يد حاخام أرثوذكسى مما يستبعد

الحاخامات الاصلاحيين والمحافظين ونسبة كبيرة من يهود الولايات المتحدة . وكانت المشكلة تدور حول هذا الموضوع وحسب ، ولكن يوجد بند آخر أكثر تفجرا وهو البند القائل بأنه يحق لأبناء وأحفاد اليهودى الهجرة إلى إسرائيل وكذلك يحق الهجرة لزوج أو زوجة اليهودى وزوج أو زوجة ابنه أو إبنته أو زوج أو زوجة حفيده أو حفيدته ، وهذا الجد اليهودى ليس من الضرورى أن يكون فى اسرائيل ولا حتى على قيد الحياة . وعدد مثل هؤلاء ـ حسب تقدير عالم الديموغرافيا الاسرائيلى سرجيود ديللا بيرجولا ـ حوالى مليون ـ أى أن تعريف اليهودى هو من كان له يوما ما جدا يهوديا من ناحية الأب أو الأم ومن ثم يحق لمثل هذا الشخص أن يصبح مواطنا اسرائيليا وأن يصحب زوجته . وقد أسلفنا أن القانون السوفييتى يعتبر ابن الذكر اليهودى ـ يهوديا ـ الأمر الذى يتنافى مع الشريعة اليهودية ـ أى أن كثيرا ممن صنفوا يهودا حسب القانون السوفييتى ليسوا كذلك حسب الشريعة اليهودية .

ولم يكن من المتوقع من اليهود المتخفين الهجرة ، كما أن احتمال هجرة أبناء الزيجات المختلطة وأعضاء الأسر التى فيها عضو غير يهودى كان غير مطروح . ولكن مع تفكك المجتمع السوفييتى أصبحت المسألة مطروحة وبحدة . وبدأ اليهود المتخفون يكتشفون هويتهم وبدأ الأحفاد الذين لا يربطهم باليهود أو اليهودية أى علاقة سوى أن لهم جدا يهوديا مدفونا فى الاتحاد السوفييتى (على حد قول أرييه ديرى ، وزير الداخلية فى الجيروساليم بوست ٢٧ يوليو ١٩٩٠) بدأوا يكتشفون أنهم يهودا . بل وهناك احتمال أن كثيرا من أقارب هؤلاء أن ينضموا لهم ، بل وهناك أعداد

لابأس بها قد تدّعى أنها عناصر يهودية وهى ليست كذلك . فكون الواحد يهوديا هو بمثابة جواز السفر الذى يضمن للمرء الخروج من الاتحاد السوفييتى (فيكتور سيغلمان ، نوفيل أوبسرفاتير ، القبس ١٩ مارس ١٩٩٠) . وقد ظهر أنه يمكن الحصول على شهادة ميلاد مزيفة فى موسكو تثبت أن حاملها يهودى نظير ١٥٠٠ روبل (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) ، أى أننا يمكن الآن الحديث عن مدعى اليهودية وهذا أمر جديد كل الجدة فى التاريخ الانسانى ، إذ أن العكس كان دائما هو الصحيح . هذه الفوضى هى التى تفسر فوضى الأرقام فالملايين التى ستأتى تضم نسبة يهودية ولكنها تضم نسبة أيضا شبه يهودية أو ليست يهودية على الاطلاق .

وقد قالت نوفا الينسون ، المتحدثة باسم وزارة الداخلية ، إن ٣٠٪ من المهاجرين السوفييت و٦٥٪ من المهاجرين الرومانيين يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود ، ولا يوجد سبيل لمعرفة من من هؤلاء نتاج الزيجات المختلطة ، وكم منهم قد حضر بسبب جده اليهودى (الجيروساليم بوست ٢٠ يوليو ١٩٩٠) . وقد سجل بيريتس أن الرقم أكبر من ٣٠٪ ، كما بين ديفيد ايفراتى مدير ادارة السكان فى وزارة الداخلية أن ٦٨٪ سجلوا على أنهم يهود أما الباقى ٣٢٪ فقد تركوا خانة القومية والدين خالية أو ذكروا قوميات سوفييتية أخرى . ومن المعروف أن كثيرا ممن سجلوا أنفسهم يهودا ـ على الرغم من أنهم ليسوا يهودا ـ فعلوا ذلك خوفا من الحرمان من المزايا الممنوحة للمهاجرين اليهود ، كما أن كون المرء غير يهودى فى الدولة اليهودية وصمة عار (الجيروساليم بوست ٢٧ يوليو ١٩٩٠) ، مما يعنى أن من الـ ٦٨٪ توجد نسبة لابأس بها من غير اليهود (بل إن بعض المهاجرين كما بين

الحاخام الياهو ايساس معاد للسامية (أى معاد لليهود) . وإذا عدنا إلى الأرقام مرة أخرى فسنجد أن وزير الاستيعاب قد صرح أمام لجنة الاستيعاب فى الكنيست أنه توجد إمكانية هجرة عدة ملايين سوفييتي بمقتضى قانون العودة بينهم مليونى يهودى وحسب (الجيروساليم بوست ٤ أغسطس ١٩٩٠) أما الباقون فهم غير يهود أساسا ، أو غير يهود حسب وجهة نظر الشريعة ، ومعظم اليهود المتخفين من هذا النوع الأخير . وقد بين الحاخام بنحاس جولد شميت ، رئيس المحكمة الشرعية الجديدة فى موسكو ، أن عدد هذه الملايين غير اليهودية وشبه اليهودية سيصل إلى عشرة ملايين (الجيروساليم بوست نوفمبر ١٩٩٠) فإذا أضفنا إليهم مليونى يهودى نصل إلى رقم اثنى عشر مليون مهاجر ـ رقم شارانسكى . ورغم أنه رقم مبالغ فيه تماما ومستحيل (حسب المعطيات المتاحة فى الوقت الحاضر) إلا اننا يمكننا الآن فهم طريقته فى الحساب ، فشارانسكى لا يكترث بالمضمون اليهودى لهوية القادمين ، بل يبدو أنه يأخذ بتعريف جان بول سارتر لليهودى أنه من يعتبره الآخرون كذلك ، إذ أنه قال فى مجال الدفاع عن القادمين وأحقيتهم فى الهجرة إلى إسرائيل وفى الحصول على المعونات والاستقرار والاستيطان فيها ، قال : « كيف يمكن لإسرائيل إنكار حقهم فى الهجرة بينما كانوا يضطهدون بسبب انتمائهم اليهودى » (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) ـ أى أنه أسقط الشريعة اليهودية أو حتى العرف اليهودى مصدرا للتعريف ، وقبل بالحكومة السوفييتية أو أعداء السامية فى المجتمع السوفييتي مصدرا وحيدا مشروعا . ولا أعتقد أن هذه طريقة مقبولة للاحصاء ، ولكن مهما كان الأمر فهذا هو منهجه ، وهذه هى طريقته ، وقد

بين الحاخام الياهوايساس أن مثل هذه الهجرة ستعمق من الانقسامات فى التجمع الصهيونى بحيث ينقسم إلى « يهود وعرب وروس » (٢٧ يوليو ١٩٩٠ »

ويطرح السؤال التالى نفسه : « هل سيقوم الصهاينة بتأسيس دولة غير يهودية ؟ » (على حد قول بيريتس « الجيروساليم بوست ٤ أغسطس ١٩٩٠ ») . ونحن نميل إلى القول أنه من المرجح أن تنجح المؤسسة الاشكنازية فى إرغام الجميع على قبول كل العناصر المهاجرة اليهودية وشبه اليهودية وغير اليهودية ، باعتبارهم مستوطنين صهاينة ، ونحن نؤسس رأينا هذا على بعض الشواهد التاريخية من أهمها حالة الفلاشاه .

فعقيدة الفلاشاه هى خليط من اليهودية والإسلام والمسيحية (ولاشك فى أن المكون اليهودى هو أقواها وأهمها) فهم يتعبدون باللغة الجعيزيه لغة الكنيسة القبطية فى أثيوبيا ، فى مكان يقال له المسجد ، يخلعون نعالهم قبل دخوله ويقود جماعتهم قساوسة ويوجد بينهم رهبان وراهبات وتضم كتب الصلوات الخاصة بهم بعض المقتطفات من العهد الجديد . وهذا النوع من العبادات المختلطة معروف فى افريقيا . وهو أمر معروف أيضا لدى المؤسسة الصهيونية ، ولذا حينما بدأت الاتصالات بين مندوب الوكالة اليهودية ومندوبى الفلاشاه ، نصحهم مندوب الوكالة اليهودية أن يعتنقوا المسيحية حلا لمشكلتهم !

هذا فى الخمسينات حينما لم تكن أزمة الدولة الصهيونية

السكانية قد أصبحت حادة ، ومع نهاية السبعينات وضم الأراضى العربية والمغامرات العسكرية فى لبنان وغيرها تعطشت آلة الحرب لمزيد من الوقود البشرى ، لذا لم يكن هناك بد من قبول الفلاشاه رغم لون جلدهم ورغم عدم نقاء عقيدتهم وبدأ التهييج من أجل انقاذ يهود الفلاشاه من الاضطهاد والمجاعة . وحينما بدأت المؤسسة الحاخامية تغمغم عن هويتهم الدينية ضغطت المؤسسة الصهيونية الحاكمة فتراجعت المؤسسة الدينية ، واكتفت بمراسم مخففة للتهود لا يزال يرفضها غالبية الفلاشاه ، ولاتزال عملية تهجيرهم مستمرة ، بل إنهم بدأوا يطالبون أخيرا بالسماح لأقاربهم ممن تنصروا بالهجرة أيضا ، وزعموا أن هذا قد تم بالقوة . ولكن سواء تهودوا أم تنصروا فإنهم قد تحولوا إلى مادة قتالية فى الضفة الغربية وقطاع غزة وفى الأراضى اللبنانية .

مما سبق يظهر الموقف الذرائعى من المادة البشرية ويتضح الاستعداد لاتخاذ مواقف مساومة لا تتفق بالضرورة مع الشريعة اليهودية أو حتى مع المعايير الصهيونية الخاصة بالنقاء العرقى والإثنى والخصوصية اليهودية وما شابه من ادعاءات . ومما يجدر ذكره أن الاهتمام العملى ، الذى يتجاوز الاعتبارات النظرية ، كامن فى الممارسة الصهيونية منذ البداية ، فقد كان بن جوريون فى وقت من الأوقات يفكر فى زيادة الكثافة السكانية اليهودية فى فلسطين عن طريق تهويد بدو النقب ، وقد نجح بالفعل مع بضعة أفراد ، ولكنه لم ينجح على مستوى شامل (ومن الممكن أيضا أن يندرج تحت هذا البند اعطاء هوية يهودية للعناصر العربية التى تجندها

المخابرات الاسرائيلية ثم تستقر فى إسرائيل بعد انتهاء وظيفتها أو عند اكتشاف أمرها) .

وهذه نقطة تشابه أخرى بين النازية والصهيونية . فرغم ادعاءات كليهما عن النقاء العرقى فإنه أمام ضغط الواقع يتنازلون عن الأسطورة . فالنازيون نظرا لحاجتهم الماسة للكثافة البشرية كانوا يجندون العناصر السلافية التى تحمل ملامح آريه (عيون خضر وشعر أشقر) وكان هناك برنامج لالمنة هؤلاء . كما أنه نظرا لوجود تحالف بين الألمان واليابانيين (الآسيويين) صنف اليابانيون على أنهم آريوّن شرفيون وهكذا . فالأسطورة العرقيةّ هى مجرد ديباجات ويظل الهدف النهائى هو النهب والسيطرة بأى ثمن .

ومن أهم القرائن الأخرى على إستعداد اسرائيل قبول أى مادة بشرية ، بغض النظر عن مدى يهوديتها من عدمه ، ما حدث فى حالة جيرى وشيرلى بيرسفورد وهما يهوديان سابقان انضما إلى جماعة دينية تبشيرية مسيحية اسمها رامات هاشارون . ويقول المصدر الذى استخدمته (الجيروساليم بوست ٥ فبراير ١٩٨٨) أنهما يهوديان يؤمنان بالمسيح ، ولايبين المصدر معنى هذه العبارة ، وفى الغالب تعنى أنهما آمنا بأن المسيح عيسى بن مريم هو المسيح الذى ينتظره اليهود دون الايمان ببنوته للخالق ودون التخلى عن انتمائهما اليهودى ، (وهما فى هذا يشبهان بعض أعضاء الجماعات اليهودية المسيحية فى القرن الأول المسيحى) . وقد طلب الإثنان الجنسية الاسرائيلية بمقتضى قانون العودة . وحين عرضت القضية على الرأى العام الاسرائيلى قال ٧٨٪ منهم

أنهما يجب أن يمنحا الجنسية الاسرائيلية إن كانا صهاينة ، بمعنى أن الصهيونية عُرّفت هنا بأنها الهجرة إلى اسرائيل وحسب . بل وعقدت مقارنة بين هذين الفردين اللذين حضرا إلى إسرائيل ويهود أمريكا الذين يرفضون الهجرة إليها . فكأن الهجرة ، أن يقدم المرء نفسه إلى الدولة / الإله ، أصبحت هى المعيار الأول وربما الأخير للقبول والرفض ، وهو معيار ينطبق على المهاجرين السوفييت يهودا كانوا أم غير يهود .

قد يندهش البعض لهذا التحول ويجدون فيه تراجعا عن « المثل الصهيونية » التى توصف بأنها يهودية تضرب بجذورها فى التوراة والتلمود (والماسونية وبروتوكولات حكماء صهيون .. إلى آخره) . مثل هؤلاء المندهشين هم ضحية الأطروحات الخاطئة المتداولة التى تصر على الحديث عن « الخطر اليهودى » حينما تتحدث عن الأستعمار الصهيونى . فالصهيونية عقيدة تضرب بجذورها لا فى اليهودية وإنما فى التشكيل الاستعمارى الغربى فى جانبه الاستيطانى بالذات . بل إنها على مستوى من المستويات معادية للعقيدة اليهودية وتطرح نفسها بديلا لها .

والصهيونية على كل رفضت من البداية التعريف الدينى لليهودية وطرحت بدلا منه تعريفا عرقيا بحيث أصبحت اليهودية تشبه الآريه مثلا . وبالتالى يصبح التهود مثل التجنس بأى جنسية ، ويصبح المقياس هو مدى استعداد الفرد أن يربط « مصيره » بمصير الأرض والوطن والشعب ، وهى معايير مادية أو عرقية لا علاقة لها بأية مقاييس دينية أو

أخلاقية . والمهاجر السوفييتى ، يهوديا كان أم غير يهودى ، على استعداد أن يربط مصيره بقطعة الأرض التى ستدر عليه الخيرات وعلى استعداد أن يساهم فى عملية الاغتصاب والسلب .

وإذا كانت الصهيونية ترتدى رداء يهوديا فى الخارج حتي تحلب يهود العالم وتبتز الضمير الغربى باسم ضحايا الهولوكوست ، فهى فى الداخل لا تكترث بذلك كثيرا . ومع تزايد معدلات العلمنة أصبحت ورقة التوت الدينية لا أهمية كبيرة لها ، خاصة أنه فى الكيان الصهيونى ذاته لم ينجح أحد بعد فى تعريف من هو اليهودى ؟

إن ما نقوله في واقع الأمر إن الاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى كان يكتسب خصوصية ما من خلال هويته اليهودية المزعومة بدأ يفقد هذه الخصوصية وبدأت تتضح هويته الأصلية كمشروع استيطانى غربى وحسب يبحث عن المادة البشرية أينما كانت ، وإذا كانت المادة البشرية غير يهودية ، فهذا أمر ثانوى .

ويمكننا هنا أن نعطى مخططا سريعا لتاريخ المشروع الصهيونى من منظور مضمونه اليهودى المزعوم ، فقد بدأ هذا المشروع بتعريف استبعادى للهوية اليهودية يصر على أن محور هذا المشروع هو اليهودى الخالص . وقد عبر هذا الموقف عن نفسه فى إصرار الصهاينة لا على استيطانية مشروعهم وحسب وإنما على احلاليته ، ومن هنا عمليات الطرد عام ١٩٤٨ ، ومحاولة « تطهير » فلسطين من العناصر

غير اليهودية . ولكن المشروع الصهيوني فشل في تعريف الهوية اليهودية ، كما أن توسع عام ١٩٦٧ فرض عليه كثافة عربية كان عليه أن يتعامل معها ، فغير هويته ، ولا يهم إن كان تم ذلك برضاه أم رغم أنفه ، إذ ما يهم في مثل هذه الأمور هو طبيعة التحول البنيوي ، وأصبح استعمارا لونيا من نظام الأبارتهايد الذي لايهدف إلى طرد السكان وإنما يحاول الاحتفاظ بهم داخل تجمعات سكانية تضم المادة البشرية التي تشكل بالنسبة له عمالة رخيصة وسوقا للبضائع . ولكنه مع هذا لم يكن نظاما لونيا محايدا ، وإنما كان لونيا يهوديا (أي ديني / عرقي) .

وجاءت الانتفاضة وأثبتت أن هذا الوضع ليس نهائيا أو أن الحفاظ عليه يتطلب مادة قتالية ، وقد حدثت الانتفاضة بعد أن فرغت مصادر الطاقة البشرية بالنسبة للمستوطن الصهيوني في كل أنحاء العالم ، والمستودع الوحيد المتبقي ، الاتحاد السوفييتي ، ليس فيه مادة قتالية يهودية كافية . كما أن معظم أعضاء هذه المادة يؤثرون الهجرة إلى الولايات المتحدة ، كما فعل معظم أسلافهم من قبل . ولذا لِمَ لايأخذ المستوطن الصهيوني خطوة أخرى إلى الأمام ليتحول من استعمار لوني يهودي إلى استعمار لوني وحسب ، قلعة استيطانية (حصن غربي ضد الهمجية الشرقية على حد قول هرتزل) تحول كل من يأتي إليها إلى مادة قتالية وتضمن له مستوى معيشيا مرتفعا فيحل مشكلته الاقتصادية ويحقق الحراك الاجتماعي وتحل هي مشكلتها السكانية الحادة ؟.

وهذا التحول الأخير كامن في التحول الذي حدث عام

١٩٦٧ والذى يتخذ جنوب افريقيا نموذجا ، فجنوب افريقيا ترى نفسها قلعة للديمقراطية الغربية وحصنا للحضارة الغربية ، وهى تفتح أبوابها لكل دعاة التقدم من ذوى الجلد الأبيض ، ورغم أنها تستخدم ديباجات مسيحية قوية ، إلا أنها تقبل فى نهاية الأمر بكل أبيض ملحدا كان أم يهوديا ، وساعتها تنسى المزاعم المسيحية . (بل يقال إنها تقبل المسلمين البيض) .

وهناك عنصران آخران قد يشجعان المؤسسة الحاكمة على أن تغض النظر عن هوية المهاجرين السوفييت ، أولهما : هو الصراع الدائر بين الاشكناز من جهة واليهود السفارد والشرقيين من جهة أخرى ، إذ أن المشروع الصهيونى فى جوهره مشروع اشكنازى ومع هذا هاجرت ألوف اليهود من البلاد العربية والشرق وأصبحت هى الأغلبية . ولم يكن هناك مانع من هجرتهم مادام أنهم يقدمون أنفسهم كعمالة رخيصة وكمادة قتالية وحسب دون المطالبة بالمشاركة السياسية ودون أن يفرضوا رموزهم الثقافية على الكيان الصهيونى . ولكن من الواضح أن شوكتهم فى الآونة الأخيرة بدأت تقوى وتزداد مهارتهم فى اللعبة السياسية ، وبدأوا يشكلون أحزابا تعبر عن طموحاتهم وعن رغبتهم فى تحقيق الحراك الاجتماعى والمشاركة فى صنع القرار والتعبير عن هويتهم الثقافية .

هذا هو العدو الأول للمؤسسة الاشكنازية . أما العدو الثانى فهو المؤسسة الدينية ، فرغم أن معظم قيادات المؤسسة الدينية اشكنازية الا أن لها رموزا وعقائد وشعائر تعد مصدر ضيق أساسى للنخبة الاشكنازية التى هاجرت من

جيتوات أوربا كى تحيا حياة علمانية طبيعية ، تشكل الرموز الدينية اليهودية فيها مجرد رموز قومية ، وتصبح الشعائر تعبيرا عن الهوية ، أما أن تتحول الرموز والشعائر الى قيود تحد من البحث عن اللذة والمنفعة ، فهذا ما لايرضاه هؤلاء ، وقبول المهاجرين السوفييت يهودا كانوا أم غير يهود ، سيحل كلا المشكلتين بضربة واحدة ، إذ سيزيد الكثافة السكانية الاشكنازية فى مقابل الشرقيين ، وسيزيد عدد العلمانيين فى مقابل المؤسسة الدينية وجماهيرها .

وأرجو أن يلاحظ القارىء ما حاولنا انجازه فى الفصلين الأخيرين ، فقد بدأنا بعدة حقائق صلبة (مثل تلك التى ترد فى كتب الجغرافيا) : عدد اليهود فى الاتحاد السوفييتى حسب التقديرات الاحصائية الرسمية وغير الرسمية ـ مدى قابليتهم للهجرة ـ عناصر الطرد والجذب فى الاتحاد السوفييتى وفى مراكز التجمع اليهودى فى العالم . وقد خلصنا من ذلك إلى أنه داخل هذه المعطيات لا يمكن أن يزيد عدد المهاجرين عن ما بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠ ألف ، وهو الرقم الذى كان متوقعا حتى منتصف عام ١٩٨٩ . ثم ربطنا هذه الحقائق الصلبة بحقائق أقل صلابة : أن المهاجرين ليس لهم انتماء دينى أو أيديولوجى محدد ، فهم مرتزقة باحثون عن الحراك الاجتماعى مما يزيد من قابليتهم للهجرة إلى أى مكان ـ ظاهرة اليهود المتخفين ـ ظاهرة غير اليهود من المتسللين ومدعى اليهودية وأعضاء الأسرة اليهودية (زوجات وأبناء) ـ مدى قابلية المستوطن الصهيونى للقبول بمادة بشرية غير يهودية ـ دوافعه فى ذلك ـ الأوضاع المتردية فى الاتحاد السوفيتى .... الخ . وبالتدريج بدأنا فى إدراك نمط جديد يفسر لنا هذا الحديث عن الملايين الذى لا يتسق بأية

حال مع الحقيقة الاحصائية الصلبة : ان عدد يهود الاتحاد السوفييتى يقل عن مليون ونصف . وقد ذكرنا هذه الحقائق الصلبة وغير الصلبة وربطنا بينها وخلصنا لنتائج محددة قد لاتكون مشجعة لا لنحاصر العقل العربى ، أو لنهول من شأن القادمين حتى نستنفره وإنما لننحت النماذج التفسيرية المركبة والمتتاليات الاجتماعية التى تجعلنا ملمين بالواقع مهما بلغ من تركيبيه ، متجاوزين له ، متحررين من الحقائق الصلبة المتناقضة التى ترسل بها وكالات الأنباء وتذيعها الاذاعات ، واضعين نصب أعيننا كل الاحتمالات القريبة والبعيدة ، متذكرين أن هذه الاحتمالات قد تتحقق فى اطار معطيات معينة أو إن خلدنا إلى النوم والسكينة وقد لا تتحقق فى إطار معطيات أخرى أو إن تحركنا وتصدينا لهذه الجحافل الهمجية بذكاء واصرار ـ بحيث تدفن وهى بعد فى عالم الإمكان والاحتمال دون أن تخرج إلى عالم الواقع ، بحيث قد يقال فى المستقبل ـ والله قادر على كل شىء ـ إن عرب عام ١٩٩٠ قد أوقفوا التتار الذين يسرقون الأرض ويلتهمون الزرع ويجففون الينابيع والآبار ، مثلما أوقفناهم من قبل فى عين جالوت فى فلسطين ! .



الفصل السادس

المشكلة السكانية والاستيطانية

حينما يتحدث الصهاينة عن الملايين القادمة فهم عادة ما يذكرون المشكلات التى سيحلها هؤلاء ولكنهم لا يكلفون خاطرهم بإعطائنا صورة محددة عن كيف سيحدث ذلك ، كما أنهم لا يتوجهون قط للمشكلات الناجمة عن وصول من مليون إلى ١٢ مليون شخص فى مجتمع لا يزيد عدد سكانه على أربعة ملايين .

ونحن فى الفصول القادمة سنتناول بعض هذه الجوانب فسنعالج أهم القضايا وهى القضية السكانية والاستيطانية ، ثم نتطرق بعد ذلك إلى مشاكل المجتمع الاسرائيلى الاستيعابية خاصة الإسكان ، وهى مشكلة آخذة فى التفاقم بسبب الأزمة الاقتصادية . ثم سنتناول ما نسميه بمشكلة العداء للوافدين وهو العداء الذى يقابل به المهاجرون من قبل قطاعات كثيرة فى المجتمع الصهيونى مثل الشرقيين والمتدينين وغيرهم . ونحن نتناول كل هذه الجوانب حتى لا نتردى فى الكآبة ونذم الدهر ونبكى على الأطلال بطريقة إمبيريقية رصينة تتصور أن الأرقام نهائية وأن الحقائق صلبة وأن النتائج الصهيونية المتوقعة للهجرة ستتحقق كلها أو بعضها وعلى النحو الذى يتنبأ به الصهاينة .

ولنتناول بعض الأبعاد التى تدل على إمكان فتح باب

الاجتهاد سواء فى تفسير الواقع أم تغييره . ولنأخذ أهم العناصر طرا وهو معضلة إسرائيل السكانية وحاجة الجيب الاستيطانى الصهيونى الدائمة إلى المادة البشرية الاستيطانية القتالية لخلق تعادل مع العرب فى كل فلسطين المحتلة ولخلق حقائق بشرية جديدة فى الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ ، فهل سينجح المهاجرون اليهود السوفييت فى انجاز ذلك ؟ . وللاجابة عن هذا السؤال سننظر إلى المهاجرين باعتبارهم مادة بشرية أولا ، ثم باعتبارهم مادة استيطانية ، ثم باعتبارهم مادة قتالية .

وقد واجه الجيب الصهيونى منذ نشأته خطرين تهددا وجوده : توقف الهجرة من الخارج ، وتناقص خصوبة المرأة اليهودية فى الداخل . وقد ارتفع عدد اليهود من ١٧٪ من مجموع سكان فلسطين عام ١٩٣٠ الى ٣١٪ عام ١٩٤٥ ثم إلى ٦١٪ عام ١٩٦٠ وإلى ٦٥٪ عام ١٩٧٥ (اذا ما أخذت منطقة فلسطين بأسرها من البحر الأبيض المتوسط حتى نهر الأردن ، متجاهلين كل الحدود السياسية) . أما إذا نظرنا إلى حدود إسرائيل حتى عام ١٩٦٧ فإن نسبة اليهود ارتفعت من ٥٠٪ تقريبا عام ١٩٤٥ الى ٨٩٪ عام ١٩٦٠ ، ثم انخفضت الى ٨٦٪ عام ١٩٧٥ (بسبب ضم شرق القدس) .

وقد ظهر عنصر أساسى فى تحديد الاتجاهات السكانية وهو خصوبة الإناث العربيات واليهوديات ، ويلاحظ أن نسبة الإنجاب بين الإناث اليهوديات من الغرب والشرق أصبحت متقاربة إذ أصبح الفارق بينهما نصف طفل بعد أن كان هناك فارق ٤ أطفال عام ١٩٥٠ ، وقد وصل معدل الخصوبة الى ٢,٧ طفل لكل الاناث اليهوديات فى فلسطين المحتلة (وهو

ضعف نسبة الخصوبة بين الاناث اليهوديات فى الخارج ـ مما يعنى أن يهود العالم لا يعيدون انتاج أنفسهم) . أما خصوبة الاناث العربيات فقد وصلت الى عشرة أطفال عام ١٩٦٥ ثم الى ٤,٦ عام ١٩٨٦ . (من الظواهر الجديرة بالملاحظة أن معدل الخصوبة بين الإناث العربيات المسيحيات انخفض الى ٢,١ ، وهو أقل من المعدل بين اليهوديات . ولكن فى الفترة نفسها التى ولدت فيها الانتفاضة زادت الخصوبة عند الأنثى العربية المسلمة الى ٤,٧ والى ٢,٦ بالنسبة للمسيحيات ، وتنطبق الزيادة على الاناث داخل وخارج حدود ١٩٦٧ ، والمرأة النفوض ـ كما يقول المعجم ـ هى المرأة كثيرة الأولاد) .

بناء على كل هذا كان من المتوقع أن ينخفض عدد اليهود من سكان فلسطين المحتلة قبل وبعد ١٩٦٧ إلى ٦٠٪ عام ١٩٩٠ وإلى ٥٦٪ عام ٢٠٠٠ ، وإلى ٥٢٪ عام ٢٠١٠ ، وإلى ٤٨٪ عام ٢٠٢٠ . وكان من المتوقع أن يتساوى عدد اليهود والعرب (المسلمين والمسيحيين) عام ٢٠١٥ .

ويتجه اليمين الاسرائيلى نحو تضخيم أعداد المهاجرين باعتبار أنه سيحل مشكلة اسرائيل السكانية المزمنة ، ومشكلة الاستيطان الجديدة ـ أى ضم الأراضى العربية دون أن توجد مادة يهودية استيطانية قتالية فيها . وكانت تتعالى الأصوات مطالبة بالانسحاب من منظور ذرائعى ، فالتوسع والاستيطان ـ حسب أطروحة الذرائعيين ـ لا يشكل خرقا للقيم الأخلاقية أو القوانين الدولية وانما يتهدد الشخصية اليهودية للدولة الصهيونية . ويشير اليمين الآن إلى الجحافل

القادمة ويقول للذرائعيين لا تحاولوا تخويفنا بالأرقام (عيزراسوحار ، الجيروساليم بوست ٢٢ أغسطس ١٩٩٠) . ومع هذا كتب الديموغرافى الاسرائيلى سيرجيو ديللا بيرجولا (وهو من أهم الداعين للانسحاب من الأراضى المحتلة من منظور ذرائعى) ليبين زيف الدعاوى . إذ بين أن كل مجموعة من ١٠٠ ألف مهاجر يهودى قد تؤدى الى تأجيل نقطة التعادل بين العرب واليهود لمدة عام واحد - أى أن مجموعة من ٥٠٠ ألف مهاجر ستؤدى الى تأجيل تاريخ التعادل من عام ٢٠١٥ الى عام ٢٠٢٠ ، ومجموعة من مليون مهاجر ستؤجلها الى عام ٢٠٢٥ ، ومجموعة من مليون ونصف ستؤجلها الى ٢٠٣٠ (الجيروساليم بوست ٥ أكتوبر ١٩٩٠) .

وديللابيرجولا ليس وحيدا فى موقفه هذا اذ يتفق معه يوسف ألفر (نائب رئيس مركز جافى للدراسات الاستراتيجية فى جامعة تل أبيب) الذى يقول أنه حتى لو هاجر ٨٠٠ ألف يهودى الى اسرائيل (ومكثوا فيها) فإن العرب فى أرض اسرائيل (أى فلسطين المحتلة قبل وبعد عام ١٩٦٧) سيكونون ٤٠٪ من السكان عام ٢٠٠٠ وخلال ١٥ عام سيصبحون الأغلبية لأن السكان العرب يتزايدون حاليا بمعدل ٥٠٪ كل عشرة أعوام . ولخلق أغلبية سكانية يهودية مريحة تبلغ ٨٠٪ خلال عشرة أعوام لابد من أن تهاجر الدياسبورا اليهودية بأسرها - أى ثمانية ملايين يهودى (استراتيجية للهجرة - الجيروساليم بوست - ١٥ مارس ١٩٩٠) .

أى أن مشكلة اسرائيل السكانية قائمة ولن تنجح الهجرة

فى حلها وإنما ستنجح فى تأجيلها ، فهى مشكلة بنيوية لا يمكن حلها إلا عن طريق الإبادة أو التهجير .

ولكن أعداد المهاجرين هو جانب واحد من القضية إذ يوجد جانب لا يقل عنه أهمية وهو الجانب الاستيطانى : فالدولة ترحب بالمهاجرين الجدد ليخلقوا توازنا مع العرب ، وعدم التوازن هذا يظهر أكثر ما يظهر فى الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧ حيث لا يقطن سوى ٧٠ ألف مستوطن يهودى بعد مرور ربع قرن من الاستيطان . ومعظم سكان اسرائيل يتزاحمون فى مثلث صغير من قرايوت فى الشمال الى اشدود فى الجنوب والقدس فى الشرق . فالجليل به أغلبية عربية والنقب ستكون فيه عما قريب أغلبية عربية ايضا (يشير لها الاسرائيليون بأنها أغلبية بدوية) . والضفة والقطاع ـ غنى عن القول ـ بهما كثافة عربية كاسحة . ولكن المهاجرين الجدد لا يكترثون كثيرا بالقيم اليهودية أو الصهيونية لذا لا يتجهون الى القدس التى تحيطها هالة من القداسة فى العقل اليهودى والصهيونى ، فهى لا تعنى لهم شيئا ـ ولذا لم يستوطن فيها سوى ٥,٣٩٧ أى ٨٪ من مجموع المهاجرين حتى آخر سبتمبر ١٩٩٠ والبالغ عددهم ٨٣ الف (على عكس المهاجرين فى السبعينات الذين اتجه ٢٥٪ منهم الى القدس) . ولا يتجه المهاجرون الجدد الى النقب (التى يمكن أن تستوعب مليون مهاجر حسب التقديرات الاسرائيلية) ، ولم يستقر منهم فيها سوى ٥٪ (استقر ٢٧ فى بيت شيميش ، و٤٠ فى ديمونا ، و١٨٧ فى ايلات) . أما غالبيتهم الساحقة فقد استقرت فى حيفا والسهل الساحلى الأوسط بين أشدود ونتانيا . وقد استقر ١٣,٦٩٥ الف فى حيفا ، و٨,٩١٧

فى تل أبيب ، و٥,٦٥٥ فى نتانيا . وتبلغ نسبة الذين استقروا فى المنطقة الوسطى (بما فيها تل أبيب) ٥٢٪ ونسبة الذين استقروا فى المنطقة الشمالية (التى تشمل حيفا) ٣٣٪ ، (أى استقر ٨٥٪ منهم فى أماكن مكدسة بالسكان) ويقال انه لا يستقر إلا ١٪ فى الضفة الغربية . ويرى اليشع افرات ، أستاذ الجغرافيا والتخطيط فى الجامعة العبرية ، انهم يفضلون المدن على المستوطنات الريفية ، ومن المدن يفضلون المدن القديمة فى قطاع الساحل الأوسط على مدن الاطراف . وهم لا يميلون الى الاستقرار فى المناطق المحتلة او مدن الاعمار أو الكيبوتسات على الرغم من كل محاولات الاحزاب الدينية والصهيونية إقناعهم بالاستيطان فيها . وهؤلاء المهاجرون المرتزقة يؤثرون الدعة ويحبون الترف ، ولذا يستقرون فى أماكن مأهولة ، قريبة من المراكز الاقتصادية والادارية ، أماكن متطورة تتمتع ببنية تحتية مادية جيدة بها مستوى متقدم من الخدمات ، وفيها فرص متميزة للسكن . وقد سيقت الأسباب التالية فى محاولة تفسير سبب استقرارهم على هذا النحو :

١ ـ يحاول المهاجرون الجدد الحصول على أكبر قدر من المنفعة ثمنا لهجرتهم لاسرائيل ، ولذا فهم يخططون مسبقا للسكن فى إحدى المدن الكبرى أو فى ضواحيها ـ أى أنهم ينوون استخدام الدولة واستغلالها بدلا من أن يدعونها تستغلهم . وكما قال يوسى كوتشيك (المدير العام السابق لوزارة الاستيعاب) : « إن اليهودى السوفييتى الذى تطأ قدماه نيويورك يقول فى نفسه : شكرا لله ، وشكرا للولايات

المتحدة الامريكية التى سمحت له بالهجرة اليها . ولكن عندما يصل المهاجر السوفييتى الى اسرائيل فانه يقول : يا دولة اسرائيل ، احمدى إله واشكريه ، واشكرينى أنا أيضا لاننى هاجرت إليك » (سكيراه حودشيت عدد ٣ ١٩٨٩ ، عمر سعادة ص ٨٥) .

٢ ـ يبدو أن المهاجرين السوفييت يصلون وعندهم معلومات محددة عن المناطق والمستوطنات المفضلة . كما أن اسلوب الاستيعاب المباشر الذى اتبعه الاسرائيليون أخيرا ، لتسهيل استيعاب المهاجرين ، يتيح الفرصة أمامهم إلى اختيار أماكن إقامتهم بحرية تامة .

٣ ـ يقال ايضا إن المهاجرين يتمتعون بمستوى تعليمى مرتفع ولذا فهم يتجهون الى مدن الساحل التى يتركز فيها حوالى ٨٠٪ من المنشآت الاقتصادية (لوموند نقلا عن القبس ٣٠ يناير ١٩٩٠) أما مدن الاعمار فهى تعانى من البطالة اولا ، كما أن ما فيها من أعمال لا يتناسب مع مؤهلاتهم . ومهما كان الامر فليس من المتوقع أن تحل الهجرة المشكلة الاستيطانية ، وقد حذر وزير الاستيعاب من تركز المهاجرين الجدد فى وسط البلاد قائلا : « إن بركة الهجرة يمكن أن تتحول الى لعنة ، لو تداعت الأطراف » ، أى تركت خالية ، وهرب كاينون : مواطنونا الجدد ـ الجيروساليم بوست ١٩ يناير ١٩٩٠) .

٤ ـ حاول أحد المعلقين الاسرائيليين (باليس ص ٧٠) ان يفسر نمط الاستيطان هذا على أساس انه اختيار سياسى

واع من جانب المهاجرين الجدد يستند إلى رفض للاقامة وراء الخط الأخضر ، أى انهم لا يؤيدون التوسع الصهيونى ويقبلون باسرائيل الصغرى لعام ١٩٤٨ لا اسرائيل الكبرى لعام ١٩٦٧ ، وأعتقد أن هذه المحاولة التفسيرية مثل جيد على كيف يمكن فرض أى معنى على الحقائق الصلبة ان ظلت بمعزل عن الحقائق الأخرى ، فهو تفسير يبدو معقولا للغاية وهو موثق امبيريقيا . ولكن بعد ربط هذه الواقعة ، عدم الاستيطان فى الضفة الغربية ، بمعرفتنا بوقائع أخرى (طموحات المهاجرين دوافع هجرتهم ـ نمط استهلاكهم ـ موقفهم من الاتحاد السوفييتى) يمكننا بكل طمأنينة استبعاد هذا التفسير .

بقى بعد ذلك أن نناقش امكانية تحويل المهاجرين الجدد الى مادة قتالية ، ومن المعروف انه تم تجنيد أعداد من يهود الفلاشاه فى الجيش الاسرائيلى ، ولابد أن الصهاينة يفكرون فى نفس الشيء بالنسبة للمهاجرين السوفييت ، ولكن ثمة صعوبات حقيقية ستعوقهم عن تحقيق مآربهم . فالمهاجرون الجدد ـ كما أسلفنا ـ مرتزقة ، باحثون عن المتعة ، ومن ثم لا يتوقع أن يسارعوا بالدفاع عن المثل الصهيونية أو أى مثل أخرى .، كما أن نسبة عالية للغاية منهم تتمتع بأعلى المستويات التعليمية ويعملون فى أهم التخصصات المهنية والأكاديمية وأدقها ومن ثم لا يشكل الانخراط في السلك العسكرى أى حراك اجتماعي بالنسبة لهم ، خاصة وأنه لا يوجد بينهم من له خبرة فى العمل العسكرى ، ومع هذا سيتم الاستفادة ولاشك من مؤهلاتهم وخبرتهم فى قطاع الصناعات العسكرية (ولكن حتى هذا أمر مشكوك فيه الى حد ما إذ أن المؤسسة العسكرية الصهيونية تعتقد أن من بينهم نسبة لا بأس بها من الجواسيس الذى يعملون لحساب الاتحاد السوفييتى الذى قام بتدريبهم وتسريبهم مع المهاجرين) . وحتى اذا قررت المؤسسة العسكرية تدريبهم على القتال ، فان هذا سيستغرق وقتا

طويلا وأموالا طائلة ، اذ لابد من استيعابهم فى المجتمع الاسرائيلى ودمجهم وتعليمهم اللغة العبرية قبل أن يتحولوا الى مادة قتالية ذات كفاءة عالية (وإن كان ينبغى الاشارة الى ان الجيش الاسرائيلى هو أهم مؤسسات الدمج والاستيعاب الصهيونية وأكثرها نجاحا) .

هذه هى ابرز القضايا الخاصة بالهجرة والمشكلة السكانية الاستيطانية . ولكن هناك قضايا أخرى ليست لها نفس الاهمية فى الوقت الحاضر ، ولكنها قد تكتسب مركزية وتزداد حدة بمرور الزمن . ونحن نعرف أن نصف يهود الاتحاد السوفييتى فوق سن الخمسين وأن ربعهم فوق سن الستين ، هذا يعنى ان الربع لن يعمل وانما يشكل عبئا على المجتمع الاسرائيلى ، كما أن الربع الاخر سيتقاعد بعد عدة سنوات - اى أن التجمع الصهيونى سيجد نفسه يجابه تلك المشكلة التى تواجهها المجتمعات التى يقال لها متقدمة ، وهى مشكلة المسنين ، خاصة ان التجمع الصهيونى يوجد فيه عدد كبير من المسنين يتزايد عددهم بسبب هجرة بعض اليهود الغربيين الذين يهاجرون إلى اسرائيل للتقاعد فيها لأن المعاشات التى يتقاضونها فى بلادهم تحقق لهم مستوى معيشى افضل فى المستوطن الصهيونى .

أما على المستوى الاجتماعى فمن المعروف أن كثيرا من المهاجرين السوفييت (خاصة من جورجيا) قد تركزوا فى اعمال الجريمة وتخصصوا فى جرائم بعينها من اهمها تزييف الأوراق المالية . .

وقد اشرنا إلى عدد النساء من المهاجرات اللائى يعملن بالبغاء ، مما يدل على ان أعدادا لا بأس بها من المهاجرين

سينخرطون فى أعمال الجريمة ، ربما بنسبة أعلى من الموجات السابقة .

كما يمكن أن نذكر مشكلة عدم التجانس التى يواجهها التجمع الصهيونى باعتباره مجتمع مهاجرين وهى مشكلة تعمق من تفككه وتقوض من تماسكه وتضعف من تضامنه ، وقد تقبل علم الاجتماع الاسرائيلى مقولة وجود أمتين واحدة غربية والأخرى شرقية . واذا كانت السنين الماضية قد خففت قليلا من حدة الانقسام فالهجرة الجديدة ستعمقها وستبين للجميع أن مقولة الأمة اليهودية مقولة وهمية . بل إنه يمكن أن نرى وجود انقسام حضارى بين اليهود الاشكناز من جيل الصابرا والقادمين الجدد . فهؤلاء القادمون عندهم عاداتهم وقيمهم وتطلعاتهم وسلوكهم التى تختلف عن عادات وقيم وتطلعات وسلوك الاسرائيليين .

ولابد من أن نتوجه ايضا إلى عنصر قد يبدو وكأنه لا صلة له بموضوعنا ، وهو ما يسمى ظاهرة اليورديم أو المرتدين ، كما يسمونهم بالعبرية فى المصطلح الصهيونى ، وهؤلاء هم مواطنو اسرائيل الذين يتركون « بلدهم » ويهاجرون منها (أى يرتدون عنها باعتبار أن الايمان بالارض هو جوهر اليهودية العلمانية أى الصهيونية) . ونحن نذكر هذا الموضوع باعتبار أن الزعم هو أن الهجرة السوفييتية ستحل مشكلة اسرائيل الاستيطانية والسكانية ، ولكن يبدو أن النزيف السكانى من الكيان الصهيونى ـ أى عدد النازحين منه ـ أعلى بكثير مما يتصور بعض الدارسين ، لقد كانت آخر التقديرات شبه الرسمية (عام ١٩٨٧) تذهب إلى أن عدد المهاجرين هو ما

بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ الف ، بينما كانت تذهب الشائعات الى ان العدد هو ٧٠٠ الف . ولكن يبدو أن الأعداد قد زادت ففى جريدة وست سايد سبيريت (١٨ فبراير ١٩٨٩) وهى نشرة مغمورة ولكن مصادرها موثوق بها تماما وأحدهم هو اتسيك دراى وهو مبعوث إسرائيل ، ملحق بالقنصلية الاسرائيلية ، مهمته اقناع « المرتدين » بالعودة . وقد صرح أن عددهم هو ٣٠٠ الف فى نيويورك ومثلهم فى لوس أنجلوس ، كما توجد جماعات صغيرة فى ميامى وشيكاغو ـ أى أن رقم ٧٠٠ الف قد تحرك من نطاق الشائعات إلى نطاق التقديرات شبه الرسمية ، وكما قال رونى زافير رئيس تحرير جريدة (اسرائيل شيلانو) (اسرائيلنا) أن الرقم يصل إلى مليون إن تم حساب أولاد المهاجرين .

ومن المتوقع أن يتزايد عدد النازحين بسبب وصول اليهود السوفييت والمشكلات الناجمة عن ذلك (ازدحام فى المساكن ، زيادة التوتر الاجتماعى ، نقصان الفرص) وبالفعل يقال إن عدد النازحين هذا العام ٤٠ الف (الأهرام ١٧ يوليو ١٩٩٠) . ويجب ملاحظة أن البطالة متفشية فى قطاعات معينة (مثل الهندسة والطب) كان ينزح منها أعداد كبيرة ، وأن نسبة عالية من المهاجرين الجدد سينضمون أو يحاولون الانضمام لها ويصعدون من أزمتها .

بل ويجب الا ننسى عدد النازحين من بين المهاجرين المرتزقة ذاتهم اذ يقوم بعضهم باقتراض المال من بعض المصارف متكلين على قوة الرواتب المرتفعة التى يتوقعون الحصول عليها فى مكان آخر فهم يدخلون الولايات المتحدة أو

كندا أو اوربا الغربية بصفة سياح ، ثم يحصلون عادة على اجازة اقامة بفضل اهتمام بعض أرباب العمل بهم . ولا نعرف على وجه الدقة عدد الذين نزحوا فالارقام خاضعة للرقابة ، ولكننا نعرف أن ١٨ الف قادم جديد سجلوا أنفسهم فى القنصلية السوفييتية طالبين الرجوع الى مواطنهم الاصلية ، (الاهرام ٣ نوفمبر ١٩٩٠) . وهؤلاء النازحون أو المطالبين بالنزوح يشكلون نزيفا على التجمع الصهيونى وعنصر خلخلة وقلق فيه . بل وقد بدأت تظهر بعض الأصوات الهامسة فى صفوف النخبة الحاكمة الاشكنازية ترى أن التساقط قد لا يكون فكرة سيئة (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) .

وقد أثار بعض العلماء الاسرائيليين المشكلة الايكولوجية الناجمة عن هجرة جماعية ضخمة مثل هذه . فبين اليشع افرات أن الهجرة ستؤدى إلى تحويل اسرائيل الى يابان أخرى . فبعد المليون الأولى ستضطر اسرائيل الى استقطاع كثيرا من أراضيها الزراعية لبناء المدن (الجيروساليم بوست ٢٠ أكتوبر ١٩٩٠) ، كما أن هناك مشكلة المياه المتفاقمة الذى سيؤدى وصول المليون الى زيادة حدتها . فإسرائيل تستغل ٢٥٪ من مصادر المياه المتاحة وهى أعلى نسبة فى العالم فهى تستهلك حاليا ١,٦ بليون متر مكعب من اصل ١,٨٥ بليون متر مكعب من المصادر المائية . ويقال إن ٤٠٪ من المياه المستهلكة فى اسرائيل هى مياه فلسطينية مصدرها الضفة الغربية تحديدا . ويسأله كاتب مقال بعنوان « الهجرة اليهودية الكبيرة .. تحتاج إلى مصادر مائية كبيرة » (الحياة ٥ مارس ١٩٩٠) .. اذا كان للسبعين الف مستوطن الذين

يعيشون اليوم فى ١٣٤ مستوطنة فى الضفة الغربية ٢٧٠ بئر تضخ ٢٠ مليون متر مكعب (فى مقابل ٢١٤ بئرا تضخ ١١ مليون متر مكعب يملكها الفلسطينيون) فماذا سيكون عليه الوضع في اسرائيل الكبرى خلال عقد الهجرة الكبرى من الاتحاد السوفييتي ، خاصة انه كان من المتوقع ـ قبل وصول المهاجرين ـ ارتفاع معدلات استهلاك المياه لاغراض الصناعة والاستعمالات المنزلية مع النمو السكانى الطبيعى ؟ هذه هى بعض المشكلات السكانية الناجمة عن الهجرة وهى كلها نتائج غير متوقعة يمكن تصعيدها وزيادة حدتها من خلال إعمال العقل والحركة ، كما يمكن للعدو تجاوزها إن قنعنا بالسكون .

الفصل السابع

البطالة والاسكان



من أهم المشكلات التى يواجهها التجمع الصهيونى نتيجة هجرة اليهود السوفييت مشكلة استيعابهم ، وأكثر جوانب هذه المشكلة حدة هو جانبها المباشر أى الاسكان . وحينما تم توطين يهود الشرق كانوا يلقى بهم فى مستعمرات الموشاف الجماعية أو فى المعابر . أما اليهودى السوفييتى فانه أمامه خيار الاستيعاب المباشر أى أن يختار مسكنا حيثما يشاء ، وتقوم وزارة الاستيعاب بدفع قيمة الايجار للعام الأول ، فان عجز عن تدبير منزل فبوسعه أن يطلب السكن فى واحد من ٤٦ مركز استيعاب تديرها الوكالة اليهودية .

وقد أدى تدفق المهاجرين إلى خلق أزمة مساكن ، ولكن فساد البيروقراطية الاسرائيلية المألوف عاد للظهور ، إذ نشب صراع بين المؤسسات المختلفة خاصة حينما اكتشفت المبالغ الهائلة المعتمدة ، فعاد الصراع التقليدى بين وزارة الاستيعاب والوكالة اليهودية وبين المؤسسات المختلفة المسئولة عن الاستيعاب داخل اسرائيل ذاتها . وحينما اقترح شامير تأسيس لجنة تنسيق بين الجهات المختلفة احتج كل من بيريتس ، وزير الاستيعاب ، وشمعون بيريس وزير المالية السابق (النيويورك تايمز ١٨ يناير ١٩٩٠) . وهو صراع لا يزال مستمرا بين شارون (وزير الاسكان) ومموداعى وزير المالية (الجيروساليم بوست ٩ أكتوبر ١٩٩٠) .

وقد قام الصراع بين هذه الشخصيات والجبهات على الرغم من أن مراكز الاستيعاب فى حالة يرثى لها ، تقول مجلة تايم (٧ أغسطس ١٩٨٩) أن هناك ٣,٨ مركز استيعاب لا يوجد فيها عدد كاف من الموظفين ، وهى مزدحمة تماما بالنزلاء الذين وصل عددهم عشرة آلاف مواطن جديد من الفقراء ، أما دانيال دورون ويورى ستيرن (وول ستريت جورنال ٢٩ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩٨٩) فقد وصفا إسرائيل بأنها غير معدة لاستقبال أعداد كبيرة من المهاجرين ، وقد أشارا إلى أن زيادة عدد المهاجرين بضعة آلاف العامين السابقين أدى إلى ظهور أزمة فى خدمات الاستيعاب والتوطين التى تشرف عليها « الدولة » . فأماكن السكن المؤقتة للمهاجرين مزدحمة ، ومن الصعب الحصول على مسكن دائم .

ولا يختلف تقرير النيويورك تايمز (١٧ سبتمبر ١٩٨٩) كثيرا عن ذلك ، إذ يؤكد أن مراكز الاستيعاب ممتلئة ، فمركز جيلو ـ على سبيل المثال ـ يسكن فيه ٣١١ أسرة ، بينما هو معد لاستقبال ٢٧٠ أسرة وحسب . ولم تجد سوى ١٥ أسرة عملا ، وحينما يصل المهاجر فإنه يوقع عقدا ينص على أنه سيمكث فى المركز الاستيعابى ستة أشهر وحسب ، ولكنهم عادة ما يمكثون فترة أطول من ذلك بكثير . وتفسر الجريدة عودة كثير من المهاجرين الأرجنتينيين على أساس هذا الفشل فى استيعاب المهاجرين وتدبير عمل لهم .

وتشير مجلة التايم (٧ أغسطس ١٩٨٩) إلى أن فترة الاقامة فى مراكز الاستيعاب قد تصل إلى مابين عامين أو

ثلاثة ، ولنأخذ على سبيل المثال حالة تيموثى والاسكندرا بيرازين اللذين انتظرا لمدة عشرين عاما ليحصلا على تصريح بالهجرة من الاتحاد السوفييتى ، ولكنهما بعد وصولهما وجدا أنهما عليهما أن يقضيا ثلاثة أعوام فى مركز استيعاب ميڤاسيريث صهيون بجوار القدس ليبدأوا حياتهم . ويقول تيموثى الذى يكد ويتعب ليعول أسرة من تسعة أشخاص : « لقد كذبوا علينا ولذا نشعر الآن أن لا مكان لنا فى هذه البلدة » . وهذه شكوى عامة بين المهاجرين الذين يشعرون أنهم مهملون تماما « ولايمد لنا أحد يد المساعدة ، نحن لا نطلب الكثير ولكن هل لأحد أن يخبرنى ما هو وضعنا ؟ وكيف يمكن أن نخرج من هذا المكان ؟ » أى مركز الاستيعاب ، وهو فى هذه الحالة فندق ميامى ، وهو فندق رخيص فى أشدود ، « لم أكتب خطابا واحدا لأصدقائى فى روسيا ، لا أعرف ماذا يمكننى أن أخبرهم ؟ » ، أو « أكتب لابنى (الموجود فى الاتحاد السوفييتى والذى ينوى أن ينضم لى) خطابات أذكر فيها أشياء طيبة عن اسرائيل لاننى لا أريد أن أفقده » .

وتزايد معدل البطالة يؤدى إلى إطالة المدة التى يمكثها المهاجر فى مراكز الاستيعاب . ويقول يواف بيك ، رئيس مجلس منظمات المهاجرين ومساعد مدير رابطة الأمريكيين والكنديين فى اسرائيل : « يمكن أن أخبركم عشرات القصص عن أسر تضطر إلى قضاء عدة أيام نائمة فى المطار ، والعثور على عمل ليس أسهل حالا ، وان وجدت نفسك حاصلا على مؤهلات عالية ، أعلى مما تحتاج إليه السوق ، فقد تجد نفسك تعمل فى تنظيف الشوارع » (تايم ٧ أغسطس ١٩٨٩) .

ولكن نظام الاستيعاب الجديد (المباشر) يتيح الفرصة امام المهاجرين لأن يبحثوا عن مسكن ، ويقال إن ١٠٪ فقط الآن من المهاجرين يوطنون فى مراكز الاستيعاب أما الباقون فيذهبون للبحث عن مساكن ، مما يعنى خضوعهم إلى آليات السوق الحر والعرض والطلب وهى أمور لم يألفوها بسبب خلفيتهم السوفييتية . ومما زاد الطين بلة بالنسبة لهم أن اسرائيل كانت تعانى من أزمة اسكان قبل وصولهم . وقد استغل أصحاب الشقق الوضع ـ على الرغم من الاعفاء الضريبى الممنوح لأى مالك مستعد لتأجير المساكن للمهاجرين ـ إذ يصر بعضهم على الحصول على عدة شهور مقدما قبل تجديد عقد الايجار السنوى كما يزيد البعض الآخر من الايجار . وقد زادت ايجارات الشقق ما بين ٥٠ ـ ١٥٠ دولار أى مايزيد على ٥٠٪ أحيانا . ففى ضاحية كارمئيل ارتفع ايجار شقة من أربع غرف الى ٣٠٠ دولار ، وهو ضعف الايجار منذ عدة شهور (الجيروساليم بوست ١٧ مارس ١٩٩٠) كما أن فى مستوطنة معالوت زادت ايجارات الشقق ٨٠٪ فشقة من ثلاث غرف أصبحت تكلف ٤٠٠ دولار (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) ، وقد اختفت تماما الشقق ذات الايجار المعتدل (١٥٠ دولار) مع آخر صيف ١٩٨٩ (يديعوت أحرونوت ١٣ يوليو ١٩٩٠) .

ويوجد نظام تمليك الشقق فى اسرائيل ، وتقوم الدولة الصهيونية باعطاء كل مهاجر ما قيمته ٥٠ ألف دولار لشراء شقة ، ولكن أسعار الشقق زادت هى الأخرى فأقل شقة تكلف ٨٠ ألف دولار (الانديبندات ١٠ مارس ١٩٩٠) . ولذا لم يتمكن سوى ألفى مهاجر من شراء شقق . ومما يزيد الأمور

صعوبة إصرار المصارف الاسرائيلية على أن يقدم لها المهاجرون خطابات الضمان وكل الأوراق والوثائق اللازمة ، الأمر الذى لا يتيسر لهم بحكم ظروفهم (الجيروساليم بوست ١٣ نوفمبر ١٩٩٠) .

ويقال إن مشاريع وزارة الاسكان تتضمن إنشاء ٤٥ ألف وحدة سكنية . ولكن لم يبدأ فى العمل سوى فى عشرها (الجيروساليم بوست ٣ نوفمبر ١٩٩٠) مع العلم بأن المطلوب هو ٢٥٠ ألف شقة بشكل مبدئى ، ويقدر الخبراء أن الوقت المطلوب لانشاء عمارة سكنية هو ٢٠ شهرا ، وأنه لابد من ٣٥ شهرا لبناء مجمع سكنى . واذا كان مهاجرو هذا العام ابتداء من سبتمبر ١٩٨٩ حتى أغسطس ١٩٩٠ هو حوالى مائة ألف فهم سيصلون الى نهاية فترة ايجارهم قبل أن يكون أى من هذه المنازل قابلا للسكن ، مما قد يضطر وزارة الاستيعاب الى دفع أجور مساكنهم لعام آخر أو عامين . ولكن سيكون قد تكدست عشرات الألوف الأخرى من المهاجرين (لو صدقت التوقعات الصهيونية) (باليس ص ٦٤) .

وقد طرح مشروع باستيراد منازل متنقلة ولكن لم يستورد منها سوى ٥٠٠٠ ، كما قدم اقتراح آخر باستيراد البيوت الجاهزة . وأحب هنا أن أتوقف قليلا لأصف ما حدث فى التجمع الصهيونى (الذى نتحدث دائما عن تماسكه وديناميته ..... الخ) اذ هدد حاييم هابرفلد ، أحد زعماء الهستدروت (نقابات العمال الاسرائيلية الصهيونية) « بأن الدماء ستجرى فى الشوارع » . وقد علقت الجيروساليم بوست فى افتتاحيتها (٢٥ يونيه ١٩٩٠) أن هابرفلد « لم

يكن يتحدث عن حرب شاملة أو عن هجوم ارهابي على نطاق واسع وانما كان يهدد الحكومة ان هى سمحت باستيراد مثل هذه البيوت » . وقد يتبادر للذهن لأول وهلة أنه فعل ذلك بهدف حماية الصناعة الاسرائيلية والعمال الاسرائيليين ولكننا نعرف أن شركة يوفال (لانتاج المنازل الجاهزة) كانت قد أفلست منذ عامين . لم إذن الدماء ؟ سنكتشف أن هابرفلد يزيد أن يقوم الهستدروت ذاته باستيراد المنازل ـ لتحقيق الأرباح ! وماذا عن المنازل الخالية فى ديمونا ؟ ومدن الاعمار ، ماذا عن الريادة والرواد ـ والحالوتسيوت والحالوتسيم ، سنكتشف أن المرتزقة الجدد يبحثون عن بلد خمس نجوم يكفل لهم كل سبل الراحة والترف .

ومع تزايد عدد المهاجرين ستتفاقم الأزمة حتى إن بيريتس صرح بأنهم قد يعيشون فى الخيام (الجيروساليم بوست ٢٧ أكتوبر ١٩٩٠) . وقد عبر بعض المهاجرين عن ضيقهم بالوضع . ولنأخذ على سبيل المثال ابرام رودشتاين الذى وصل فى ديسمبر ١٩٨٩ ، يقف رودشتاين هذا مع ابنه وابنته وزوجها وطفليها فى حجرة رطبة باردة لا يوجد فيها سوى موقف واحد للتدفئة . « لقد أعطونا كتيبات بالروسية تعدنا بـ ٣٠٠ جنيه استرلينى ولم يحصل ابنى أو زوج ابنتى على شىء ، وعلىّ أن أدفع ثمن الدواء الذى اشتريه لعلاج حالة القلب التى عندى . وقد أخبرونى أن النقود قد نفذت » .

أما آسيا شندروفا وهى طبيبة أطفال من موسكو فتحكى باكية كيف أن رجال الشرطة الاسرائيلية حاولوا اخلاءها من منزلها . « البيروقراطية هنا أسوأ من روسيا . لقد تمكنا من

البقاء إبان حكم هتلر ثم ستالين وظننا أننا سنحصل على الحرية فى وطن اليهود ، شعبنا . ولكنهم هنا يدقون على الأبواب أيضا فى منتصف الليل بأوامر اخلاء .. اننى أشعر أننى خدعت ـ مواطنة من الدرجة الثالثة » (التايمز ١٣ يناير ١٩٩٠) .

وقد يقول قائل إن هذه مشكلات طبيعية وعادية ، وقد يكون الأمر كذلك فى ظروف طبيعية ، ولكن المادة البشرية التى نتعامل معها ـ كما نؤكد ونكرر ـ مادة تتسم بعدم القدرة على التحمل وارجاء التوقعات . وقبل أن نختتم هذا الجزء لابد من أن نشير الى ما حدث لأناتولى التمان وهو من زعماء المنشقين الصهاينة فى الاتحاد السوفييتى . وقد طلب التمان الهجرة من الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٨ وحاول اختطاف طائرة عام ١٩٧٠ هو ومجموعة من اليهود السوفييت فى عملية سميت « بعملية الزواج » . وقد قبض على كل من اشترك فى هذه العملية ، وحكم عليهم بأحكام سجن طويلة ، وقد نجح التمان فى الوصول إلى إسرائيل فى نهاية الأمر عام ١٩٧٩ واستقبل استقبالا حافلا : مديح من رجال السياسة ، رحلات للخارج ومقابلات صحفية ، واستقر التمان فى كيبوتس ياجور (وهو الكيبوتس الذى « تبناه » أثناء فترة سجنه) ولكنه ترك الكيبوتس بعد أربعة أعوام ، ولا يذكر الأسباب فى خطابه للجيروساليم بوست ، ولعله سئم الاشكال الجماعية للحياة .

ثم استقر التمان فى شقة تمتلكها شركة اسكان تابعة للحكومة (اميدار) لأنه لم يكن عنده من المال ما يكفى لشراء شقة ، ثم بدأ يعمل فى مصنع سولتام ، ولكن المصنع أغلق

أبوابه ولم ينجح التمان في أن يجد عملا لمدة عام . وفى نهاية الأمر عثر على عمل نظير ٢,٦٣ شيكل فى الساعة (أى حوالى دولار وثلث) . وحين تقدم بطلب مساعدة من قسم سجناء صهيون فى فرع الوكالة اليهودية فى حيفا أخبره الموظف المختص أنه يحق له الحصول على عون فى حالتين اثنتين : لو كان قعيدا أو لو ترك البلد ثم عاد بعد عامين أو ثلاثة . ولم يستطع أن يحصل التمان حتى على المساعدة التى يمنحها معهد التأمين القومى للفقراء لأنه كان يمتلك سيارة (لم يكن بمقدوره فى واقع الأمر أن يستخدمها لأنه لم يكن عنده ما يكفى من المال لتغطية قيمة التأمين) . وفى عام ١٩٨٣ استقر التمان فى الدور الأرضى فى شقة فى أحد مبانى اميدار القديمة وكان عليه أن يتحمل العفونة والرطوبة على الحوائط ، وكانت المواسير تنفجر من آونة لأخرى ، وتغطى أرض الشقة بالقذارة والعفن .

وقد تقدم التمان بعد ذلك بعدة شكاوى لاميدار التى أرسلت فى نهاية الأمر لجنة لتفحص الشقة ووجدتها بالفعل غير صالحة للسكن ، ثم حولت حالته الى شيكموتا التى تقوم بتصليح البيوت المتهدمة وتجديدها ، ومر عام دون اتخاذ آية اجراءات ، فاضطر لترك شقته ليعيش مع بعض الأصدقاء حين خصصت اميدار له شقة أسوأ من سابقتها .

ويعيش التمان سجين صهيون الشهير فى الشارع تقريبا لأنه لا يمكنه أن يمكث مع أصدقائه أكثر من ذلك ، ويختم خطابه للجيروساليم بوست (٣٠ سبتمبر ١٩٨٩) بما يلى : « يقال إن الوكالة اليهودية ودولة إسرائيل تقومان بمساعدة

سجناء صهيون ، وعلى سبيل المثال قال أحد كبار المسئولين فى الوكالة اليهودية إن سجناء صهيون السابقين يحق لهم أن يحصلوا على تسهيلات تأمينية خاصة لشراء شقة وللحصول على العناية الطبية وخلافه .

ولكن خلال العشرة أعوام التى عشتها فى إسرائيل لم يتصل بى أى مكتب من المكاتب المسئولة عن رفاه سجناء صهيون السابقين إلا حينما عقدت حفلات الاستقبال الصاخبة التى نظمت بعد وصولى ، أحب أن أعرف عن حق ما إذا كان لا يزال بوسعى أن أحصل على أى شكل من أشكال المساعدة فى إسرائيل ؟ » .

ولكن يجب أن ننظر إلى أزمة المساكن من منظور آخر فهى لها جانب مظلم وهو أن هذه الأزمة ذاتها قد تدفع بالمرتزقة باتجاه الضفة الغربية حيث يوجد سكن مدعوم ، خاصة بعد أن تتكدس الأعداد فى المدن الاسرائيلية المزدحمة . ورغم أن هذا لم يحدث حتى الآن على نطاق واسع ، إلا أن ما يحدث فى مستوطنة اريئيل قد يتحول من كونه واقعة أو حادثة ليصبح نمطا متكررا ، ولذا لابد من مراقبته بحذر حتى نزيد من المقدرة التنبؤية لنماذجنا التفسيرية ومتتالياتنا الاحتماليه . واريئيل هى مستوطنة « فى السامرة » (كما تقول الجيروساليم بوست ١٠ فبراير ١٩٩٠) : مدينة صغيرة تعدادها ٨ آلاف مما يجعلها من أكبر المستوطنات ، تقع بالقرب من مدينة نابلس أى أنها فى قلب الضفة الغربية . ومع هذا لم يجد المرتزقة الجدد أى مانع من السكن فيها ، فالمستوطنة كانت قد أسست بنية تحتية لاستقبال المهاجرين من جنوب افريقيا

وأمريكا اللاتينية الذين لم يحضروا . ويشير عمدة المدينة ، رون نخمان (كما جاء فى جريدة الحياة ٣١ يناير ١٩٩٠) الى القرار الخاص « ببناء حوالى ألفى وحدة سكنية جديدة على هضبة جميلة ضمت أخيرا الى أملاك اريبل . وتعهدت شركة أمريكية ببناء تلك الوحدة بطريقة حديثة جدا وتم الاستغناء عن العمال العرب خوفا من قيامهم بأعمال تخريبية فى الأبنية . وهذه الطريقة الأمريكية الحديثة تشمل بناء قاعدة اسمنتية يقوم عليها بيت جاهز مكون من طابقين الأول يضم صالة كبيرة والثانى يضم ثلاث غرف نوم . وتساوى تكلفة هذه الشقة نصف تكلفة البيوت الأخرى ، لذلك وعدت الشركة الأمريكية أن تسلمها كل شهر حوالى عشر شقق وبهذه الطريقة تستطيع المستوطنة استقبال أى عدد ممكن من المهاجرين . أما عن ايجاد عمل للمهاجرين فقد طرح مشروع لبناء مختبرات للعلماء السوفييت مما يتيح لهم فرصة اجراء بحوث خاصة بهم » . ويحاول رون نخمان بالتعاون مع شارون وزير التجارة والصناعة والوكالة اليهودية توسيع المستوطنة عن طريق توظيف أموال طائلة وجلب المهاجرين اليها . وعلى كل تضم المستوطنة بعض الصناعات المهمة مثل مصنع أجهزة الكومبيوتر البسيطة وهى الصناعات التى يمكن لليهود السوفييت أن يعملوا فيها.. وأخيرا يوجد فى اريبل جماعة روسية كبيرة ، بل وقد استوعبت حوالى ثمانين عائلة فى الفترة الأخيرة .

ولاريبل منافع أخرى للمرتزقة ، فهى « جميلة ، جوها جميل ، لايوجد عرب فيها » (النيويورك تايمز ٢٨ يناير ١٩٩٠) . ويظهر تدنى مستوى المهاجرين الجدد السياسى

وخساستهم فى أقوال هذا النقاش الذى يبلغ من العمر ٥٦ سنة والذى هاجر من روسيا البيضاء ويسمى جريجورى كاتسمان ، فقد قال إنه لم يكن يعرف أى شىء عن اريبل قبل أن يحضر الى هنا . « كل ما سمعت عنها أنها ليست داخل حدود اسرائيل . ولكن هذا لم يضايقنى كثيرا لأن الشىء الأساسى هو أننى لم أضطر لدفع مبلغ كبير لشراء شقة . فالسياسة لا تهمنى كثيرا » . (هل تجار الشنطة كثيرون فى الاتحاد السوفييتى ؟) وقد عرف كاتسمان عن اريبل من خلال مكتب عقارات متخصص فى التعامل مع المهاجرين (فهو يبحث عن وطن عقارى ، وطن يشتريه بسعر بخس اذ لا فرق فى عقل المرتزق بين البلاد وبين الفنادق) . ولا يختلف أعضاء أسرة يانكفتش كثيرا عن النقّاش النفعى من روسيا البيضاء : « قالوا لنا إن الشقق أرخص وأن الجو جميل ، فالشقة أربع غرف ايجارها ٢٨٠ دولار فى الشهر » (يابلاش) . وماذا عن الانتفاضة ؟ عرفوها للمرتزقة بشكل بسيط « عزب يلقون حجارة » وبما أن « هناك مستوطنون عاشوا هنا لمدة ١٢ سنة من قبل دون خوف فلم نخاف إذن ! » . وهذا هو أيضا موقف ايجور بلكين (عمره ٢٥ سنة طباخ من لنينجراد) ، فهو لا يعرف شيئا عن حقوق الانسان أو التاريخ أو حتى الجغرافيا ، ولذا فالحجر يظل حجرا ـ جسم مندفع نحوه ـ لا توجد وراءه سنوات طويلة من الاضطهاد والصراعات والمخيمات والأطفال المحترقين بالنابالم (فزيد قد ضرب عمروا وخلاص) . « ومن الممكن أن يصيبنى حجر فى لنينجراد » . أما بخصوص توطين المهاجرين فى الأراضى المحتلة (أما بخصوص النساء التى تقتل والأطفال التى تداس) فان ايجور الطباخ لا يكترث

كثيرا : « عندى الآن الحق أن أعيش أينما أريد » . (الجيروساليم بوست « اريبل فى عين الشمس » هرب كايئون ١٠ فبراير ١٩٩٠) .

إن المادة البشرية القتالية المرتزقة والتى تفر من الشمس والضفة الغربية يمكن ان تتحول بسبب الضائقة السكانية الى مادة قتالية ضارية تأتى على الاخضر واليابس . ويمكن هنا ان نضرب مثلا آخر على حقيقة صلبة تتلاشى تماما او تتحول من خلال حقيقة اخرى ، قد تكون أقل صلابة منها . من المعروف أن المهاجرين السوفييت هاربون من الاشتراكية ومؤسساتها وقيمها ولذلك فهم يرفضون الاستيطان فى الكيبوتسات لانها تذكرهم بالبلد الذى فروا منه . هذا هو الوضع حتى الآن ! ولكن من المعروف أن الكيبوتسات قد تكون مؤسسات ذات طابع تنظيمى جماعى ولكنها لا علاقة لها بالقيم الاشتراكية أو قيم المساواة ! فهى مقامة على أرض مغتصبة من العرب وتستبعدهم كما تستبعد اليهود الشرقيين ، بل ان الكيبوتسات تحولت إلى مؤسسات اشكنازية ارستقراطية تتمتع بأعلى مستوى معيشى فى اسرائيل . ومن ثم قد يكتشف المهاجرون الاشكناز ان التنظيم الجماعى انما هو فلسفة ادارية لتنظيم عملية السلب وتوزيع الغنائم ، ولعلهم حينما يذهبون إلى الكيبوتسات ويرون بأنفسهم المتاحف وحمامات السباحة والتليفزيونات الملونة والرحلات السياحية ، لعلهم حينما يرون ذلك سيتدفقون عليه ، خاصة ان الكيبوتسات فى حالة ازمة مالية وبشرية ، إذ ان عدد سكانها اخذ فى التناقص منذ عدة سنوات . وبالفعل بدأت تظهر فى الصحف الاسرائيلية اشارات لهذا الاحتمال ،

وبدأت القيادات الكيبوتسية تتحدث عن محاولة « تحويل » الكيبوتسات الى بيت المهاجرين الأول (الجيروساليم بوست ٢٦ أكتوبر ١٩٩٠) . وقد حضر حاييم هيرتزوج رئيس الدولة احدى الاحتفالات بمرور ثمانين عام على انشاء اول كيبوتس واشار إلى أن الحركة الكيبوتسية هي « جوهر الصهيونية » . ويبدو أن المؤسسة العمالية الاشكنازية قد تحاول تحقيق بعض المكاسب عن طريق جذب المهاجرين الجدد اليها وتجنيدهم سياسيا في صفوفها ، والكيبوتس قد يكون هو اداتها في ذلك . وقد اسست بعض الكيبوتسات معاهد لتعليم اللغة العبرية للوافدين . وتشير صحيفة الجيروساليم بوست الى أن اريل شارون وزير الاسكان [اليميني الرجعي] لن يتردد في التعاون مع الكيبوتسات (اليسارية الاشتراكية الخ) في عملية توفير الاسكان للمهاجرين ، فالصهيونية هي الهجرة الاستيطانية .

ويشير مقال بعنوان « هم سود ونحن بيض » (افيجيل جتمان ، الجيروساليم بوست ، ٤ أغسطس ١٩٩٠) الى تصريح بيريتس أن « الاسكان هو أقل مشكلاتنا ازعاجا » باعتبار أن البطالة هي المشكلة الحقيقية ، خاصة بسبب أزمة الاقتصاد الاسرائيلي . فالبطالة في الكيان الصهيوني تقترب من ١٠٪ على المستوى القومي (وصلت الى ٢٠٪ بالنسبة للمرحلة العمرية ١٨ ـ ٢٤ ، و٣٥٪ في مدن الاعمار) . وقد زاد عدد العاطلين ممن يتلقون تعويضات عن البطالة والتي تصرف لمدة ثلاثة شهور إلى ٥٢,٢٠٠ في يناير ١٩٩٠ ـ اي بزيادة ٦٢٪ عن يناير ١٩٨٩ . وقد زاد العدد مرة أخرى الى ٥٧ الف في فبراير من العام نفسه بالقياس الى ٣٩ الف في

فبراير ١٩٨٩ - أى بزيادة ٤٦٪ . هذا الرقم هو رقم من سجل اسمه فى مؤسسة التأمين القومى . والواقع أن عدد المتعطلين يبلغ ١٥٠ ألف منهم ، وقد سجلت مصلحة العمل عدد ٩٣,١٠٠ باحث عن العمل . وتقول الصحف أنه يوجد وظيفة واحدة لكل خمس اشخاص (الجيروساليم بوست ١٧ فبراير ٤ و ٩ و٣١ مارس ١٩٩٠) . وقد بين رئيس مصلحة العمل ديفيد مينا أنه يوجد ٧٠ عالم رياضة وإحصاء لكل وظيفة واحدة شاغرة فى هذا المجال . اما النسبة فى التخصصات الاخرى فهى ١/٦ فيزيائى و١٥ ممن يعملون فى العلوم الاجتماعية والانسانية و١٣ اقتصادى و٩ مهندسين و ٢ ممن يعملون فى حقل الالكترونيات وهندسة الكمبيوتر . أما بالنسبة لبرمجة الكمبيوتر والمحاسبة والصيدلة فلا يوجد ازمة (الجيروساليم بوست ١٧ مارس ١٩٧٠) .

وهذه الاحصائية هامة إذ تبين أن البطالة ترتفع بين العلماء وذوى المؤهلات العالية ممن تكتظ بهم اسرائيل (على عكس الهجرة فى الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٩٠ التى ضمت نسبة عالية من يهود جورجيا القليلى الثقافة وانصاف المهرة) . وكما اسلفنا فقد أعلن أكثر من مسئول اسرائيلى عن أن من المتوقع أن تكون مؤهلات المهاجرين السوفييت أعلى بكثير من مستوى المؤهلات المطلوبة لسوق العمل الاسرائيلى حيث تتركز حاجة الاقتصاد الاسرائيلى على العمال الفنيين والعمال غير المهرة ، وهى المهن التى يرفض الاسرائيليون القيام بها ، ويفضلون البطالة والعيش على مخصصات الضمان الاجتماعى بدلا من القيام بها . وقد صنفت الوكالة اليهودية وظائف ومهن المهاجرين المتوقعين بناء على معلوماتها

المسبقة عن اليهود السوفييت ، وبناء على العينة التى وصلت بالفعل ، على النحو التالى :

٥٢,٦٪ وظائف أكاديمية .

٢١,٣٪ ياقات زرقاء .

٢٢٪ ادارى وتجارى وخدمات .

٣,١٪ وظائف أخرى .
(الجيروساليم بوست ١٧ فبراير ١٩٩٠) .

والمعروف أن اسرائيل تخرج ٢٦٠ طبيبا متدربا سنويا (نزح منهم أعداد كبيرة) الى جانب مئات المهندسين وعلماء البحوث والموسيقيين ، ولدى اسرائيل ست فرق موسيقية ، وتفيض جامعاتها بالعاملين الزائدين عن الحاجة .

وقد إثبتت الاحصائيات الأخيرة عن المهاجرين الذين وصلوا فى الفترة من يناير حتى آخر سبتمبر صدق التوقعات وان هذا هو النمط الذى سيسود فمن بين ٨٣ الف مهاجر وصلوا بالفعل يوجد ١١,٥٠٠ مهندس (أى حوالى ١٢٪ من كل المهاجرين) و٢٥٧٨ طبيب و١٥٢٥ اقتصادى و١٤٥٢ عازف موسيقى و١٠٧٧ سائق و٣٧٣ حلاق و٢٨٤ مصور و٢٤٥ طبيب أسنان و٢٤١ كيميائى ، و١٩٧ طباخ و١٨٧ نحات و١٤٢ عالم احياء و١٣٧ مصلح ساعات ويوجد معهم قاضيان وشرطى ومخبر وعشر سعاة بريد ! (الجيروساليم بوست ١٩ اكتوبر ١٩٩٠) ولنتخيل مدينة مثل تل أبيب أو

حيفا حينما يتزايد أطباء الاسنان فيها خلال عام واحد مائة أو مائتين بخلاف خريجي الجامعات الاسرائيلية ، أو يصلها خمسمائة عازف أو ربما الف و١٨٧ نحات (في الوقت الذي تحتاج فيه هذه المدن لعمال مهرة أو غير مهرة) . ومن المعروف أن إحدى المشكلات الاساسية التي يواجهها الاقتصاد الاسرائيلي هو تضخم قطاع الخدمات على حساب القطاع الانتاجي . ويبدو أن هذا العيب البنيوي سيزداد عمقا مع تزايد الهجرة .

ومن الطريف أن البطالة لم تطل العاديين وحسب وانما وصلت إلى بعض زعامات المهاجرين ، ولنغطي سيرة أحد أبطال حركة الرفض اليهودية الصهيونية في موسكو وفي تل أبيب وهو الاسكندر باريتسكي . قام باريتسكي بتأسيس « جامعة يهودية » . معاناة باريتسكي في مدينة خاركوف الأوكرانية فأرسل إلى أحد معسكرات العمل في سيبيريا لمدة ثلاثة أعوام ، ومن ثم كان واحدا من أهم « سجناء صهيون » . وهي العبارة التي كانت تطلق على نشطاء حركة الرفض الذين كانت السلطات السوفييتية تلقي القبض عليهم وتودعهم في السجن بسبب نشاطهم الصهيوني واستمرت فترة معاناة باريتسكي ورفضه لمدة أثني عشر عاما ، ظل خلالها صابرا منتظرا أن يبدأ حياته الجديدة ، ثم هاجر في نهاية الأمر إلى اسرائيل عام ١٩٨٨ ، واحتفل بعيد « استقلال » اسرائيل الأربعين في فيينا وهو في طريقه لتحقيق أحلامه في صهيون . ولكنه بعد وصوله وقع ضحية البطالة المتفشية ، ولذا فهو يقيم الآن في مركز ميفاسيريت صهيون للاستيعاب الذي يعد واحدا من أحسن مراكز الاستيعاب وأفخرها . ونسبة

البطالة بين المقيمين فيه حوالى ٥٠٪ ، وعلى الرغم من أن باريتسكى يعمل مهندسا اليكترونيا (أى أن تخصصه نادر) ودعى لإلقاء محاضرة فى مجال تخصصه فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا إلا أنه لا يجد عملا لأن المؤسسة الصهيونية تشك في أن كل مهاجر سوفييتى يبحث عن عمل فى قطاع التكنولوجيا المتقدمة العسكرية قد يكون جاسوسا ، ويعلق باريتسكى على هذا الوضع قائلا : « لقد منعت من الهجرة طيلة هذه السنوات لأننى مطلع على أسرار الدولة [السوفييتية] والآن حينما أبحث عن عمل [فى أسرائيل] يقال إنه لا يمكن توظيفى لأسباب أمنية » . ثم يضيف باريتسكى : « مازلت آمل أن أجد شيئا هنا ، ولكن إن لم أنجح ، فسأبحث فى مكان آخر » (الجويش ويك ٢ يونيه ١٩٨٩) .

ومما يجدر ذكره أن أرقام البطالة التى سبق وأشرنا إليها لا تعكس أعداد المهاجرين السوفييت ولذا « يتوقع أن يسوء الأمر فى الشهور المقبلة » (الجيروساليم بوست ١٧ فبراير ١٩٩٠) ، وأن يصل معدل البطالة الى ٢٥ ـ ٣٠٪ لا بسبب تزايد المهاجرين وحسب وإنما بسبب تخرج أربعين ألف مهاجر يدرسون العبرية ، وسيبدأون فى البحث عن عمل فور تخرجهم فى نهاية العام ، وحينئذ ستبدأ « المنافسة الحتمية على العمل وستكون أكثر شراسة وعنفا وشخصية » على حد قول بيريتس (الجيروساليم بوست ٤ أغسطس ١٩٩٠) الذى أشار أيضا إلى أن ربع المهاجرين وحسب من الباحثين عن عمل قد نجحوا فى مساعيهم .

وهناك عدة حلول لأزمة البطالة من بينها شد الأحزمة على البطون (الجيروساليم بوست ١ سبتمبر ١٩٩٠) مما سيؤدى إلى تفجر الصراعات الطبقية ذات المضمون العام والاثنى (كما سنبين لاحقا) . ومما يفاقم المسألة أن المرتزقة الجدد يعانون من (أو يتمتعون بـ) درجة عالية من التوقعات والتطلعات . وقد استخدم يتسحاق بيريتس بعض استعارات الخطاب الدينى والصهيونى لتهدئتهم فقال لهم : « حينما ترك اليهود مصر لم يسألوا عما إذا كان هناك عمل فى الصحراء وما إذا كان هناك وظائف للأطباء .. إن كرههم للاضطهاد وحبهم للحرية كان عظيما الى درجة أنهم لم يسألوا حتى « ماذا سنأكل هناك ؟ » . وبالطبع قوبل ذلك بسخرية شديدة إذ رد عليه ليف سيمر (طبيب يبلغ من العمر ٣٣ عاما) ردا مفعما بالمنفعة واللذة : « الحياة فى حالة سيولة ، نحن نعيش الآن وهنا . لا يمكن أن نعود إلى آلاف الأعوام ونقول « هكذا يجب أن تكون الحالة الآن » (هرب كاينون « الحرية أهم من الوظائف » الجيروساليم بوست ٤ ابريل ١٩٩٠) . ولابد أن سيادة الوزير قد أفحم لأنه يعرف مسبقا أن هؤلاء المهاجرين لا يحلمون ولا يحملون أى مثاليات (كما قال شارانسكى) .

وفى مجال البحث عن مخرج من الأزمة طرح تصور إمكانية إعادة تدريب المهاجرين ، فسيعاد تدريب الأطباء ليشغلوا وظائف ممرضين ومدرسى علوم وفنيين فى المعامل (الجيروساليم بوست ١ سبتمبر ١٩٩٠) . وغنى عن القول إن مثل هذا الحل سيصعد من حدة المشكلات إذ أنه يعنى هبوطا فى السلم الاجتماعى لجماعة بشرية جاءت لتحقق حراكا اجتماعيا ، وسيزيد من الاحتكاك بينهم وبين الأعضاء

السابقين فى التجمع الصهيونى . وهناك تصور أن المهاجرين سيحلون محل العمالة العربية فتعالج النتائج السلبية للانتفاضة على الاقتصاد الاسرائيلى وتحل مشكلة العمالة العربية المتغلغلة فى الاقتصاد الاسرائيلى خاصة فى القطاعات الانتاجية والمتواجدة بأعداد كبيرة فى قاعدة الهرم الانتاجى (مما يشكل مشكلة أمنية للتجمع الصهيونى) . وقد صرح رئيس اتحاد أصحاب المصانع فى اسرائيل أن القطاع الصناعى بالتعاون مع الحكومة يستطيع أن يستوعب ٣٠ ألف مهاجر جديد يعملون فى الصناعة خلال السنتين المقبلتين حيث أن فرص العمل سوف تزيد عندما يتم استبدال عمال المناطق المحتلة والأجانب بعمال من المهاجرين (عمر سعادة ، ص ٨٠) . وقد أصدرت الحكومة الاسرائيلية توجيها لكل أصحاب الأعمال الاسرائيليين تطلب منهم اثبات انه لا يمكن الاستغناء عن مستخدميهم العرب واحلال يهود محلهم (الجيروساليم بوست ٢٩ أكتوبر ١٩٩٠) .

ولكن مثل هذه التوجيهات تتجاهل طبيعة المهن التى يشتغل فيها العمال الفلسطينيون من الضفة والقطاع والتى لاتتناسب مع المؤهلات الأكاديمية التخصصية التى يحملها معظم المهاجرين من الاتحاد السوفييتى . فهل يمكن أن يتم تشغيل مهندسى الالكترونيات والأطباء والخبراء السوفييت عمال بناء ، أو عمالا زراعيين فى اسرائيل ؟ أى هل يمكن تحويل نخبة متعلمة كانت على قمة الهرم الانتاجى فى مجتمع متقدم الى بروليتاريا فى قاعدة الهرم الاسرائيلى ؟ أى هل يمكن قلب هرم بوروخوف العتيد . وبوروخوف هو منظر ما يسمى بالصهيونية الاشتراكية وكان يرى أن المشكلة

الأساسية بالنسبة لأفراد الجماعات اليهودية فى الغرب انهم يتركزون فى قمة الهرم الانتاجى (أطباء ومهندسين ومحامين) ولا يوجدون فى قاعدته (عمال وفلاحين) أى أن معظم اليهود يعملون بالأعمال الفكرية والمكتبية والمهن الحرة ولا يعملون فى الوظائف اليدوية . كما أن الوظائف التى يقوم بها العرب شاقة ، وقد قال أحد أصحاب المحلات أن كل المهاجرين السوفييت الذين عرض عليهم وظائف رفضوها لأنها تبدأ الساعة الثانية والنصف صباحا (بعد منتصف الليل) وتتطلب القيام بأعمال جسدية شاقة . (الجيروساليم بوست ٢٩ أكتوبر ١٩٩٠) . هذا بخلاف انخفاض أجور العمال العرب ، وهذا كان الدافع الأول والأساسى فى عملية استئجارهم . وكما أسلفنا تحول الاستعمار الصهيونى من استعمار استيطانى احلالى الى استعمار لونى لايطرد العرب وانما يستغلهم كعمالة رخيصة وسوق للبضائع . ومع هذا يمكن لهذا الوضع ألا يستمر ، ويمكن لآليات السوق الشرسة أن تدفع بالمهاجرين الروس وغيرهم ليحلوا محل العرب .

وتكاليف استيعاب المهاجرين السوفييت لا يمكن أن توصف الا بأنها مذهلة . وقد بينت أحدى الصحف أن هجرة ٢٠٠ ألف مهاجر إلى إسرائيل تعادل هجرة ٣٠ مليون مهاجر الى الولايات المتحدة ، أما هجرة نصف مليون فتعادل هجرة ٧٥ مليون الى الولايات المتحدة . وتتضارب التقديرات الخاصة بتكاليف الاستيعاب فقد ذهب بلوتسكير فى يديعوت أحرونوت (١٣ يوليو ١٩٩٠) إلى أن تكلفة استيعاب ٢٤٠ ألف شخص تصل الى ٢٢,٥ مليار دولار : ٧,٥ مليار للسكن ، ١١,٥ مليار للتشغيل (العمالة) ، ٢ مليار للبنية التحتية ،

١,٥ مليار للمبالغ التى تسلم للمهاجرين لدى وصولهم .

أما الجيروساليم بوست (٢٧ سبتمبر ١٩٩٠) فقد ذهبت الى أن تكاليف استيعاب ١٠٠ ألف مهاجر (وهو عدد المهاجرين من سبتمبر ١٩٨٩ حتى أغسطس ١٩٩٠) وصل ٤ بلايين دولار (ولا يشمل ذلك تكاليف الاسكان والاستثمارات لخلق وظائف) . وتحدثت بعض الصحف الأخرى عن تكاليف استيعاب مائة ألف مهاجر بأنها خمسة بلايين (بليونان للإسكان وثلاثة بلايين للمصاريف الأخرى) (نيويورك تايمز ٢٠ أكتوبر ١٩٨٩) . وقد نشرت البوست فى ٢٤ فبراير ١٩٩٠ (نقلا عن تقرير بنك هابوعاليم فى مقال بعنوان « التدفق سيؤدى إلى البطالة » بقلم جاليت ليبسكى يونيه ١٩٩٠) أنه من بين ٩٠ ـ ١٠٠ ألف مهاجر يوجد ٥٥ ألف أعمارهم مناسبة للعمل مما يعنى ضرورة ايجاد ستين ألف فرصة عمل سنويا لمنع ارتفاع البطالة ، (ونحن نعتقد أن المطلوب أكثر من ذلك لاستيعاب الشباب الاسرائيلى غير المهاجر) ، وبينت الجريدة أن هذا الأمر يحتاج مبلغ ٣,٥ مليار بليون ، ومعدل نمو يصل الى ٨٪ فى العام وزيادة الصادرات بنسبة ١٣٪ . كما أن استيعاب ١٠٠ ألف مهاجر يحتاج الى ٢,٢٥ بليون دولار ثمنا للأثاث والأجهزة الجديدة . وهذا يعنى أن رقم ٢٢,٥ بليون دولار لاستيعاب ربع مليون مهاجر ليس أمرا مبالغ فيه ، فإذا تصورنا أن عدد المهاجرين هو نصف مليون فالمطلوب هو ٤٥ بليون دولار . والسؤال هو من سيدفع الفاتورة ؟

وستحاول إسرائيل دون شك حل المشكلة على الطريقة المألوفة ـ المعونات الخارجية من الولايات المتحدة وابتزاز

يهود العالم (أى يهود الولايات المتحدة) . وأؤكد فى دراساتى أن اسرائيل استثمار استراتيجى (كنز استراتيجى كما يحلو لبعض الصهاينة والأمريكيين أن يقول) وليست استثمارا اقتصاديا مباشرا . ولذا فالغرب على استعداد لتمويل اسرائيل بطريقة تتجاوز حسابات الربح والخسارة المباشرة اذ أن العائد المطلوب هو عائد استراتيجى ، وهذا يفسر البلايين التى صبت فيها منذ نشأتها حتى الوقت الحالي . ولكن الفاتورة هذه المرة باهظة للغاية . ولا أعتقد أن الولايات المتحدة ذاتها قادرة على دفعها وبالسرعة المطلوبة ، ومع هذا فهى قد تعهدت بتقديم قرض طويل الأجل الى اسرائيل بقيمة ٤٠٠ مليون دولار للمساهمة فى عملية اسكان اليهود السوفييت ، ولكن غنى عن القول أن هذا المبلغ ضئيل للغاية .

أما يهود الولايات المتحدة فالمطلوب منهم حوالى بليون دولار ، وكان توقع المؤسسة الصهيونية أنهم سيهرعون ويدفعون كما فعلوا عام ١٩٦٧م ، ولكن يبدو أن التوقعات كانت من باب الأمنيات إذ بدأت تحيط الشكوك بهذه الامكانية ، وقال حاييم هزتزوج ، رئيس الدولة الصهيونية : « مع الأسف لم ينضم لنا يهود العالم بكل قوتهم فى هذه المعركة » (النيويورك تايمز ١٨ يناير ١٩٩٠) .

وقد ألقى شامير باللوم على القائمين على حملات التبرعات واتهمهم بعدم إدراك جوهر الثورة « الناجمة عن هجرة مئات الآلاف من المهاجرين » ، وطالب الشعب اليهودى (أى يهود العالم) بأن يضاعف من تبرعاته عشرة أو عشرين مرة . ولكن

ما لم يدركه شامير أن مصادر التمويل آخذة فى النضوب مما يجعل من المستحيل الاستجابة لندائه . فحتى لو ضاعف يهود العالم تبرعاتهم فإنها لن تتجاوز ـ من ناحية قيمتها الحقيقية ـ تبرعاتهم لعام ١٩٧٥ ، كما أن تبرعات يهود العالم فى الماضى كانت وتغطى نسبة مئوية لابأس بها من نفقات الدولة الصهيونية ، ولكن هذه التبرعات لايزيد فى الوقت الحالى عن ١,٥٪ من ناتج إسرائيل القومى ، كما لايتجاوز العائد من بيع سندات إسرائيل نفس النسبة ويعود هذا إلى نمو إسرائيل وتوسعها ، كما يعود إلى إنصراف يهود العالم عن حملات التبرع . فقد لوحظ أن ١,٠٪ من كبار المتبرعين يدفعون ٢٥٪ من كل التبرعات ، وأن ١٠٪ من المتبرعين يدفعون ٨٠٪ منها ـ أى أن صغار المساهمين من الجماهير اليهودية لم يعودوا يتبرعون للدولة الصهيونية تقريبا . وقد لوحظ أن كبار المتبرعين هم عدة أفراد تم استئناسهم واستيعابهم ، ولكن هذا يعنى أيضا أن المنظمات الصهيونية واليهودية أصبحت معتمدة عليهم تماما لاستمرار بقائها ومن ثم تواجه أزمات مالية حادة حينما يمتنعون ـ لسبب أو لآخر ـ عن دفع تبرعاتهم . ومن الملاحظ أن هؤلاء المتبرعين من كبار السن ومن الأجيال القديمة ، أى أن خلفيتهم فى الغالب أوربية ، أو أنهم من أبناء المهاجرين مما يعنى وجود رابطة عاطفية « بالوطن القديم » وبالهوية القديمة . ويترجم هذا نفسه إلى ارتباط بالمنظمات اليهودية والصهيونية باعتبارها منظمات تعبر عن هذه الهوية ، وإلى تبرعات لها . هذا على عكس أبنائهم المتأمركين المندمجين الذين لاتربطهم رابطة قوية بالمؤسسات اليهودية ومن ثم لن يستمروا فى التبرع للمنظمات اليهودية والصهيونية . كما أن كون كبار المتبرعين

مسنين يعنى أن رحيلهم سيؤدى إلى تسارع نضوب المصادر المالية الحالية ، ويلاحظ أن من أهم مصادر التمويل فى الوقت الحالى هى التركات التى يوصى بها كبار المتبرعين للمنظمة الصهيونية ، ورغم أن مثل هذه التركات تحل كثيرا من المشكلات إلا أنها فى نهاية الأمر « تبرع أخير » لن تليه تبرعات أخرى .

وثمة عنصر آخر لابد من ذكره فى محاولة تفسير نضوب تبرعات يهود العالم وهو أن الجماعات اليهودية بدأت تنفق جزءا كبيرا من التبرعات التى تجمعها على الخدمات المحلية مثل المدارس اليهودية وبيوت العجزة وقد تزايدت الحاجة إلى ذلك إبان حكم ريجان الذى قطعت حكومته كل المعونات عن مؤسسات الخدمة الاجتماعية ، وتبلغ نسبة ما تنفقه الجماعات على نفسها فى الوقت الحاضر ثلثى كل التبرعات التى تقوم بجمعها .

وأحب أن أشير هنا إلى قضية مهمة وهى : الفرق بين الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية ، أما الأولى فهى صهيونية من يقرر الهجرة والاستيطان فى فلسطين ، أما الصهيونية التوطينية فهى صهيونية اليهودى الذين يكتفى بإرسال الدعم المالى لتوطين يهودى آخر ، ويمكن أن نشير إلى نوع ثالث وهى صهيونية « النشيطين عن بعد » ـ أى هؤلاء اليهود الذين ينضمون إلى المنظمة الصهيونية العالمية ويتظاهرون لصالح اسرائيل ويهيجون ضد الاتحاد السوفييتى لانقاذ اليهود السوفييت ويجمعون الأموال من الصهاينة التوطينيين ولكنهم لا يهاجرون قط . وقد عرف أحد الظرفاء الصهيونى بأنه يهودى يأخذ معونة مالية من يهودى ثان

لتوطين يهودى ثالث فى أرض الميعاد . والدافع وراء الصهيونية التوطينية كان دائما « الدفاع عن الذات » ، لا « حب صهيون » . فيهود العالم الغربى الذين اندمجوا فى مجتمعاتهم وحققوا حراكا اجتماعيا غير عادى وحصلوا على مكانة اجتماعية متميزة وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من الطبقات والنخب الحاكمة ، هؤلاء اليهود كانوا يشعرون أن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية كانت مهددة بجحافل يهود شرق أوربا التى بدأت تصل اليهم مع نهاية القرن التاسع عشر . وقد أيد هؤلاء المشروع الصهيونى ودعموه ماليا لا حبا فى صهيون وانما خوفا من المهاجرين اليهود ، إذ أن هذا المشروع وعد بتحويل تيار الهجرة عنهم إلى فلسطين . ولكن يبدو أن المشروع الصهيونى لم ينجح تماما فهذه الجحافل تصل دائما الى الغرب خاصة الولايات المتحدة ، أينما سنحت لها الفرصة ، إذ أن حبها للجولدن مدينا يفوق حنينها لصهيون بمراحل . ولذا نجد أن بعض الصهاينة التوطينيين يغيرون استراتيجيتهم أحيانا وبدلا من دفع الاعتمادات للصهاينة فانهم يحتفظون بها للانفاق على عمليات استيعاب المهاجرين ، أى أنه بدلا من الاستراتيجية التوطينية تظهر استراتيجية استيعابية هدفها الاسراع بدمج المهاجرين الوافدين حتى لا يهددوا مواقع اليهود الأصليين ، خاصة أن هؤلاء المهاجرين ـ كما أسلفنا ـ تحولوا إلى الجريمة المنظمة ، ولو تركت الأمور على عواهنها لزادت سوءا . هذا الوضع سيؤثر حتما على يهود الولايات المتحدة ، وقد جاء فى الجيروساليم بوست (١٣ يناير ١٩٨٩) أن يهود الولايات المتحدة فى حاجة إلى ٦٠ مليون دولار أكثر من العام الماضى للمساهمة فى توطين المهاجرين الجدد . وقد أظهر نشيطو

الهجرة السوفييتية فى إعلانهم الذى سبق الاشارة إليه ، تفهما لهذا الوضع وحاولوا أن يهدئوا من روع يهود الولايات المتحدة حتى يمكن تحويلهم من صهاينة توطينيين يرسلون بهم إلى إسرائيل إلى صهاينة استيعابيين يمدون لهم يد العون للاندماج فى المجتمع الأمريكى :

« نحن نعرف أن مصادر بلدكم محدودة ، وأن تدفق المهاجرين سيجهد بشكل خطير إمكانات الجماعة اليهودية الأمريكية ، ولكن يجب أن تضعوا فى الاعتبار أنه حالما يتم استقرار هؤلاء المهاجرين (اليهود السوفييت) وحالما يتم تحولهم إلى عناصر منتجة فإن العائد منهم من الضرائب وحدها سيكون أكثر مما أنفق عليهم » (الميامى جويش تريبيون ٢٠ أكتوبر ١٩٨٩) .

وماذا عن الحكومة الاسرائيلية ذاتها ؟ لم ترصد الحكومة أكثر من ٩٠٠ مليون دولار لانفاقها على مختلف مجالات الاستيعاب . ولكن من المعروف أن الاقتصاد الاسرائيلى لا يمكن أن يستوعب هذا الفيض من مئات الألوف من المهاجرين ، فهو ليس كالأسفنجة الكبيرة (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) و٢٢ بليون دولار هو قيمة نصف الناتج القومى ، كما أن الاقتصاد الاسرائيلى ليس فى أحسن احواله إذ أنه توقف عن النمو منذ ١٢ سنة (بلوتسكير يديعوت أحرونوت ١٣ يوليو ١٩٩٠) . وقد وصل التضخم ٢٠٪ وثمة برنامج تقشف فى سنته الخامسة (الايكومومست نقلا عن القبس ٢٠ مايو ١٩٩٠) . وكما تقول مجلة الميدل ايست : عند انشاء اسرائيل عام ١٩٤٨ استوعبت مايزيد على ٧٠٠ ألف يهودى من الدول العربية لأنه فى ذلك الوقت كان

الاقتصاد لايزال فى مرحلة طفولته ، وكان مسموحا بالتدخل الحكومى واسع النطاق فيه . وبعد ٤٢ عاما لم يعد بالامكان تنفيذ نفس الوسائل . فأكثر من ثلث السكان يعملون الآن فى القطاع العام ، وعمال هذا القطاع هم الأقل انتاجا بين سائر دول العالم الغربى ، والكيبوتسات مدينة بما يبلغ اجمالية حوالى ٤ مليارات دولار [فى الواقع مديونية الكيبوتس أعلى من ذلك بكثير] ، وبرامج الرعاية الصحية والتعليم على وشك الانهيار ، وصناعات « كور » التى تعتبر أكبر تجمع صناعى مختلط فى اسرائيل تطالب بخمسين مليون دولار من الحكومة لانقاذها من الانهيار ، والعديد من المصدرين يواجهون خطر فقدان أسواقهم الرئيسية بعد توحيد أوربا ، ولم يحدث أى تقدم فى مبيعات مايزيد على ١٩٠ شركة تملكها الحكومة . ويقول مسئول بوزارة المالية الاسرائيلية : « إسرائيل ليست فى موقف القادرة على تحمل أية أعباء اقتصادية اضافية وخاصة اذا كانت هذه الأعباء من النوع الذى لا يعطى ثمارا عاجلة » (ميدل ايست نقلا عن القبس ٨ يوليو ١٩٩٠) .

ولن يؤدى وصول المهاجرين إلا إلى تفاقم المشاكل الاقتصادية (خاصة فى المراحل الأولى) فالأموال التى ستتوفر فى أيديهم على هيئة منح ومعونات ، والخدمات التى سيستفيدون منها ، والسلع التى سيستهلكونها ستؤدى إلى انخفاض مستوى المعيشة ، إذ أن الخدمات سيتقاسمها عدد أكبر من الناس ، كما أنها ستؤدى إلى زيادة العجز فى الميزان التجارى ، لأن المهاجرين سيستهلكون سلعا كان بوسع إسرائيل تصديرها . بل إن التضخم قد يأخذ فى التزايد خاصة أن الحكومة تطبع أوراق النقد بسرعة غير عادية !

وهنا لابد من أن نذكر أثر الانتفاضة المجيدة ، فقد أكدت الايكونومست ان الانتفاضة وراء الكساد الاقتصادى (القبس ٢٠ مايو ١٩٩٠) ، وبين بلوتسكير أن من أهم أسباب الأزمة الاقتصادية الراهنة حالة الحرب المستمرة مع الشعب الفلسطينى التى أدت إلى ركود اقتصادى منذ ثلاث سنوات . وبين أرييه الياف أن الانتفاضة تصفى دماء إسرائيل من النقد الذى تحتاج إليه لتوطين الروس (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) . والانتفاضة من منظور النيويورك تايمز (١٧ سبتمبر ١٩٨٩) قد لا تشكل مشكلة مباشرة بالنسبة لمعظم الاسرائيليين إلا أن المتاعب الاقتصادية التى تسببت فيها أدت إلى خلق عقبات مخيفة فى الاسكان والعمالة ، عقبات يجد المهاجرون أنه من المستحيل التغلب عليها . فالانتفاضة أثرت على السياحة ، أهم مصادر النقد الأجنبى فى اسرائيل . كما أن مقاطعة السلع الاسرائيلية أغلق أهم أسواق التصدير أمامها . وقد « أغرق هذا اسرائيل فى كساد عميق » . كما أن المشكلات التى يواجهها قطاع الاسكان (أكثر القطاعات الاقتصادية تأثرا بالانتفاضة) من أهم الأسباب لظهور أزمة المساكن .

وقد انتهز دعاة الاقتصاد الحر هذه المناسبة لينسبو أزمة الاستيعاب الى بنية الاقتصاد الاسرائيلى « الاشتراكية » أى التى تسيطر عليها البيروقراطية العمالية ، ولذا فهم يطالبون بتوسيع نطاق القطاع الخاص وتقليص القطاع العام ، ويساعدهم فى ذلك المفكر الاقتصادى الأمريكى ملتون فريدمان (الجيروساليم بوست ٢٢ فبراير ١٩٩٠) الذى طرح اقتراحا بخصوص اعطاء المهاجرين بعض المبالغ التى ستقدمها الحكومة للانفاق على الاستيعاب حتى يفتحوا مصانعهم ويبدأوا أعمالهم التجارية ويبنون بيوتهم داخل اطار

اقتصاديات السوق الحر (الجيروساليم بوست ١٩ سبتمبر ١٩٩٠) .

بل إن بعض دعاة الاقتصاد الحر قد وصلوا الى درجة غير عادية من الجرأة اذ هاجموا المفهوم الصهيونى الخاص بملكية الأرض من قبل الشعب اليهودى (ممثلا بالوكالة اليهودية) وحظر بيعها للأفراد والاكتفاء بتأجيرها لليهود وانشاء مستوطنات زراعية فى كل أرجائها . وقد وصفوا هذه الرؤية الصهيونية بأنها « عقدة الأرض » لدى الحرس القديم ، أتوا بها من شرق أوربا ، وهى لا تؤدى إلا إلى رفع سعر الأرض (يشكل ثمن الأرض ٤٠٪ من ثمن أى عقار) . ويطالب دعاة الاقتصاد الحر بتحرير الأرض أى باتخاذ سياسات أكثر تساهلا فى مسألة بيعها ونسيان مسألة قداستها وطهرها وضرورة التركيز على الزراعة (التى لاتشكل سوى ٢ ـ ٣٪ من الناتج القومى) وتجاوز مسألة توزيع السكان على كل مناطق إسرائيل الجغرافية . وقد قال دانيال دورون ، وهو من أهم المفكرين الاقتصاديين الاسرائيليين المدافعين عن الاقتصاد الحر « إن سياسة توزيع السكان قد أحرزت نجاحا ـ فقد وزعناهم على سيدنى (استراليا) وجوها نسبرج (جنوب أفريقيا) ونيويورك » (الجيروساليم بوست ١٩ سبتمبر ١٩٩٠) . ولاشك أن هذه الجرأة تدل على ان دعاه الاقتصاد الحر قد يستغلون هذه الفرصة للقضاء على البقية الباقية من الاشكال الجماعية فى الملكية والادارة والتى تشكل الأساس المادى للمؤسسه العمالية الأشكنازيه . ولاشك أنهم لو نجحوا فى هذا فإن طبيعة النظام السياسى الاسرائيلى ستتغير بشكل جوهرى .

كما يجب ألا نستبعد ان سرعة التحرك الصهيونى قد تحول

الفائض البشرى الذى يسبب مشكلة البطالة فى الوقت الحالى الى عنصر إنتاجى ، داخل اشكال تنظيمية مبتكره فى المستقبل . وقد كتبت منذ مده عن مشروع صهيونى ينطلق من حقيقة معاصره وهى إن رأسمال عصر العلم هو العقول ، كما كانت النقود رأسمال عصر الصناعة ويهدف الى تحويل اسرائيل إلى أول مجتمع فى عصر الفضاء وأكثر المجتمعات تركيبا من الناحية التكنولوجية والعلمية والثقافية ، وبذا تصبح اسرائيل قوه عظمى صغيرة فى صادرات التكنولوجيا وتحل مشكلة ميزان المدفوعات . وقد طرح هذا المشروع فى اطار محاولة ربط يهود العالم بالمستوطن الصهيونى بحيث يمكنهم المساهمة فيه والمشاركة فى مشاريعه بل وقضاء أوقات طويلة فيه دون أن يهاجروا إليه بالضرورة . ومثل هذا المشروع يمكن أن يبعث من جديد كى يحل مشاكل إسرائيل الاستيعابية ثم الإنتاجية . وبالفعل نشرت الجيروساليم بوست (١٣ نوفمبر ١٩٩٠) أن يتسحاق موداعى وزير المالية قد بدأ يفكر فى تأسيس مركز لشركات التكنولوجيا المتقدمة ، سيطلق عليه « سليكون النقب » مثل وادى السليكون الشهير فى كاليفورنيا الذى يعد أكبر تركيز لشركات الكومبيوتر فى العالم . والهدف منه هو المساعدة فى استيعاب المهاجرين وتشجيع النازحين الاسرائيليين على العودة . وهذا ليس بمخطط أو خطة بعد وإنما مجرد فكرة (على حد قول موداعى) ورغم صعوبة تنفيذه فهو ليس بمستحيل ، ويمكن أن نستيقظ يوما لنجد أن ما كان متتالية محتملة بعيدة الاحتمال حقيقة قائمة ..

الفصل الثامن :

العداء للقادمين

عادة ما يُقابَل الوافدون فى كل المجتمعات البشرية بشىء من العداء بسبب الاختلاف فى اللغة والشكل والسلوك . ولكن بعد فترة قصيرة إن أثبت الوافدون أنهم لا يشكلون خطرا على أعضاء هذا المجتمع ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وأنهم قادرون على التكيف مع المجتمع الجديد وإن ساهموا فيه بشكل ايجابى وتحولوا إلى عناصر منتجة ، فإن المجتمع يبدأ فى قبولهم .

وفى تصورى أن مقومات الاحتكاك بين الوافدين الجدد وأعضاء التجمع الصهيونى مرتفعة للغاية على المستويات الاقتصادية والطبقية والاجتماعية . وقد أشرنا من قبل إلى الصراع الثقافى الذى قد يحدث داخل التجمع الصهيونى بين المستوطنين من جيل الصابرا والقادمين الجدد الذين يحملون ثقافة وقيما روسية . أما على المستوى الطبقى فتوجد قطاعات عديدة داخل التجمع الصهيونى لن يسعدها كثيرا وصول هؤلاء المهاجرين السوفييت وخاصة حينما تبدأ الدولة الصهيونية فى تقديم المساعدات لهم وفى توفير شتى أنواع الخدمات المجانية وتدبير المسكن لهم وحرمانهم هم منها .

فسكان مدن التطوير يخشون من القادمين (الأهرام ٣ فبراير ١٩٩٠) خاصة أنها أصبحت بؤرة للبطالة ، فحسب ما

جاء فى الجويش برس (٢٢ ـ ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩) أعلنت الحكومة الاسرائيلية أن ٤٣ مستوطنة ، تضم ١٦٪ من سكان إسرائيل ، أصبحت مراكز بطالة إذ بلغت نسبة البطالة فيها من ٩,٤٪ إلى ٢١,٦٪ .

وبما أن كثيرا من المهاجرين هم من المهنيين ذوى المؤهلات العالية (الياقات البيضاء) فإن كثيرا من المهنيين الاسرائيليين يشعرون بشيء من القلق من مزاحمة الوافدين ، خاصة بعد الغاء مشروع اللافى الذى كان سيفتح فرصا أكبر للعاملين فى الالكترونيات وغيرها من المجالات التى تتطلب مستوى تعليميا متقدما .

ولابد من أن تفكير الحكومة الاسرائيلية فى أن تحل مشكلة التمويل « من خلال الاسرائيليين » على حد قول شامير (النيويورك تايمز ١٨ يناير ١٩٩٠) سيزيد من حدة التناقض بين الوافدين والمستوطنين القدامى . وعبارة شامير مبهمة إلى حد كبير ، ولكن بدأت تتضح بعض معالمها إذ يبدو أن الحكومة الاسرائيلية بدأت تطبع مزيدا من الأوراق المالية الاسرائيلية وتحول ميزانيات من مشروعات مختلفة لتركز على تمويل مشروعات الاستيعاب (الصنداى تايمز ، القبس ١٤ فبراير ١٩٩٠) . ويذهب أحد الكتاب فى الفاينانشيال تايمز إلى أن الهدف من المبالغة فى أرقام المهاجرين « هو تهيئة الرأى العام الاسرائيلى حتى يكون مستعدا لتقديم التضحيات » (القبس ٤ مارس ١٩٩٠) .

وستؤدى الهجرة إلى الاستقطاب الطبقى فى التجمع الصهيونى ، وقد بين بلوتسكير أن الهجرة ستلحق الأذى

بالصناعات العسكرية لأن تخفيض ميزانية الدفاع أصبح ضروريا ، هذا فى الوقت الذى سيستفيد أصحاب الشقق [الذين كسبوا خلال ثلاثة شهور عدة مئات الملايين من الدولارات فى الوقت الذى خسر فيه المستأجرون بنفس المعدل] ، كما سيحقق مقاولو البناء وقطاع المستوردين والموردين أرباحا طائلة . وطبعا فإن المستفيدين سوف يلتزمون الصمت وسوف يتحول المتضررون إلى قطاعات احتجاج : أغنياء الحرب فى مقابل الفقراء الجدد .. وكل مجموعة ضغط متضررة من الهجرة (كل فرقة مدرعات فى الجيش على حد قول بلوتسكير) لا تنطلق إلا من مصلحتها الضيقة . وستتمزق إسرائيل من جراء التوترات الداخلية ، وستزداد الكراهية وستظهر الفتنة - أى أن الهجرة ستزيد من حرارة المجتمع الطبقية ، ومن ثم سيطرح هذا السؤال : « هذه الموجة الهائلة من المهاجرين ستتم على حساب من ولصالح من ؟ » (يديعوت أحرونوت ١٣ يوليو ١٩٩٠) .

ولعل هذا يظهر فيما يسمى بمدن الخيام ، فمع تزايد وصول المهاجرين الذين تزودهم الوكالة اليهودية بالمعونات ضاعف أصحاب المساكن أجور شققهم - كما أسلفنا - بل واختفى الفائض السكنى المتوفر حتى نفذت الشقق المعروضة للايجار بسعر معقول (يوجد اسكان لوكس فى إسرائيل ، وقد قرأت عن شقة فى تل أبيب إيجارها فى العام ٨٠ ألف دولار ، كما قرأت إعلانا آخر عن شقة ثمنها مليون دولار) . ولذا أفلست قطاعات من المستأجرين وعجز الألوف من الشباب والعاطلين والعجزة عن دفع الايجار واضطروا للسكنى فى خيام وأكواخ خارج المدن . وقد ظهرت ٣٠ مدينة خيام فى إسرائيل تضم حوالى ١٥٠٠ أسرة تنقسم إلى ثلاث مجموعات :

١ ـ المحتجون الأصليون الذين لهم أعمال ثابتة ولكنهم لم يعد بوسعهم الاستمرار فى دفع إيجار الشقة بعد زيادته .

٢ ـ الفقراء الذين يعيشون على الاعانات الحكومية والذين كانوا يبحثون عن مسكن حتى قبل الهجرة .

٣ ـ هؤلاء الذين فشلوا فى دفع أقساط رهن شققهم أو منازلهم ومن ثم فقدوا حقهم فى المساعدة المالية من الحكومة . « نحن سود وهم بيض » (الجيروساليم بوست ١٤ أغسطس ١٩٩٠) . وقد أصبح سكان الخيام من أهم القضايا التى تشغل الرأى العام فى إسرائيل خاصة بعد أن ضربوا بعض خيامهم فى حديقة الكنيست . ويتنبأ بعض أعضاء الكنيست أنه ستظهر جماعات احتجاج أكثر عنفا كلما ازدادت الفجوة بين الذين تركهم القطار والوافدين الجدد . وهذا هو الذى حدا بالجيروساليم بوست لأن تقول إن الاسرائيليين « يحبون الهجرة ويكرهون المهاجرين » (٣١ يناير ١٩٩٠) .

وقد كتب مات نيسفسكى ، الكاتب الإسرائيلى الفكاهى ، صاحب مقال « العمود / الطابور الخامس » مقالا عن الصراع المحتمل بين الوافدين وأعضاء المجتمع (الجيروساليم بوست ١٨ أغسطس ١٩٨٩) . يبدأ المقال فى مكتب التوظيف فى إسرائيل ويدخل شاب تبدو عليه علامات الذكاء فيسأله الموظف ماذا تعمل ؟ فيقول : « مهاجر جديد » . فيفهم الموظف انه من الوافدين ويسأله أى وظيفة تود أن تشغلها ؟ فيجيبه الشاب « مهاجر جديد » .

ـ نعم فهمت أنك « مهاجر جديد » ولكن ما نوع العمل الذى تود تأديته ؟

ـ مهاجر جديد .

فيبتسم الموظف إذ يتحقق من أن الشاب لا يفهم العبرية ويتحدث معه ببطء شديد .

ـ الـــ فــــ ـت

مــ مـــ هـــ هــــ ا جـــ جـــ ر

جــــ د يــــ يـــ د .

حسنا أين ولدت ؟

فيجيبه الشاب : « بتاح تكفا » . وعند سماع هذه العبارة تغمر الدهشة وجه الموظف تماما ، إذ أن بتاح تكفا هى أول مستوطنة صهيونية فى فلسطين والمولود فيها يعنى أنه ينتمى إلى جيل الصابرا ـ أى أنه ليس وافدا وإنما ولد على أرض فلسطين المحتلة ـ وأن لغته الأولى هى العبرية . ولعل الكاتب يود أن يقول لنا أن بتاح تكفا هى اسرائيل ، وأن الشاب هو كل أعضاء المجتمع الصهيونى ، وحينما يطلب الموظف من الشاب تفسيرا يجيب هذا بقوله :

ـ سمعت أن لديكم وظائف للمهاجرين الجدد . وأنا عاطل عن العمل .. ولذا قررت أن أكون مهاجرا جديدا .. وقد سمعت أن هناك مئات الملايين من الدولارات لتأهيل المهاجرين

الجدد . لم لا يعاد تأهيلي حتى أصبح مهاجرا جديدا ؟ فمثلا يمكنني ان اتعلم كيف أتحدث بالعبرية الاساسية . ويمكن ان اتحدثها بلهجة رديئة ، وسارتدى ملابس مضحكة مثل المهاجرين الجدد .. انظر ، انا مستعد ان اضحى بكل هذه الامور ، لقد سرحت من الجيش منذ عام ولم اعثر بعد على عمل . اسمع ان كثيرا من اصدقائى ينزحون عن هذا البلد ولا اريد أن افعل ذلك فانا مؤمن بالصهيونية ، واحب هذا البلد ، وإذا كانت الطريقة الوحيدة للبقاء هنا هى ان اصبح « مهاجرا جديدا » محترفا حسنا إذن سأفعل ذلك . اعرف أن هذا يعني انني ساصبح عضوا فى اقلية محتقرة وان ابدأ من نقطة الصفر وان أعاني من صدمة حضارية وان اشعر بالحنين نحو وطنى الأصلي .. كل شيء .. لا مانع عندى ! إذا كان هذا هو المطلوب فانا على استعداد للقيام به ، ساكون مهاجرا جديدا مثاليا .. سأقضى وقتا قصيرا فى معهد تعلم العبرية . وسأتكيف تماما فى الجيش ـ وأعدك ان اطلب كل شيء مثل المهاجرين الجدد ، وسأبقى هيئة الاستيعاب فى حالة قلق حيث أنني لن أكف عن الشكوى بخصوص كل ما احتاج إليه .

وقد رسم لنا الكاتب صورة فكاهية دقيقة للمهاجر الجديد وموقفه الاستهلاكي وبحثه عن الترف وشكواه المستمرة ، عند هذه النقطة يظهر الموظف تعاطفا نحو الشاب ولكن تظهر مشكلة وهى أن حفيظة النفوس الخاصة به تدل على انه ولد فى بتاح تكفا وبالتالى من المستحيل تصنيفه « مهاجرا جديدا » ، فيخبره الشاب انه لا يوجد مشكلة البتة ويطلب ستكر (ورقة لاصقة) . وحينما يستفسر الموظف عن السبب يخبره الشاب أن وزارة الداخلية تصدر ورقات لاصقة تقول إن

المعلومات الواردة بحفيظة النفوس ليست دليلا قانونيا على القومية . عند هذه النقطة يرفض الموظف ويعرفه أن الورقات اللاصقة التى تصدرها وزارة الداخلية تشير إلى قضية من هو اليهودى ، وتعنى أن من يسجل نفسه يهوديا فيها لا يعنى بالضرورة أنه قد تهود حسب الشريعة فالإشارة هنا ـ كما يقول الموظف ـ إنما هى الى التهود غير الشرعى ، وهنا يقول الشاب : وماذا عن وصمة الانتماء إلى جيل الصابرا ؟ طيلة حياتى ؟ .

والعبارة الأخيرة تلخص الموقف تماما ، وتبين الصراع المرتقب بين الوافدين والمستوطنين القدامى .

ومن اهم القطاعات التى بدأت تعبر عن مخاوفها من القادمين الجدد المؤسسة الدينية واليهود المتدينين . ومخاوفهم تستند إلى أن القادمين جاءوا من مجتمع تعرضوا فيه إلى دعاية الحادية لمدة سبعين عاما ورؤيتهم للحياة دنيوية إلى أقصى حد ففقدوا كل علاقة مع قيم دينهم وشعائره . ومن المعروف أن المعابد اليهودية تتقاضى من المصلين ما يشبه ضريبة دخول لأداء الشعائر ، والضريبة هى بمثابة تبرع للانفاق على المعبد . ولتشجيع المهاجرين السوفييت على الذهاب للمعبد فى عيد روش هاشاناه (رأس السنة اليهودية) وهو من أهم الاعياد اليهودية الغيت هذه الضريبة بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من تزايد معدلات العلمنة فى المجتمع الاسرائيلى إلا أن عدد من يذهب إلى المعبد اليهودى فى هذا العيد (وعيد يوم الغفران) عالية للغاية تصل احيانا إلى ٥٠٪ . أما المهاجرون السوفييت فلم يذهب

منهم إلا أقل من ١٠٪ (الجيروساليم بوست ٩ سبتمبر ١٩٩٠) . ويظهر مدى انفصالهم عن شعائر دينهم حينما تقوم المحكمة الحاخامية التي تحاول معرفة ما إذا كانوا يهودا أم لا بطرح بعض الأسئلة عليهم بخصوص الشعائر اليهودية ، والنتيجة ان معظمهم لا يعرفها ولا يتذكر منها إلا أشياء غامضة مثل « كانت أمى تطبخ خبزا مثلث الشكل فى مارس » أو « في بعض الليالى كان أبى يوقد شمعدانا » ، وهكذا (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠).

بل يمكن القول إن هؤلاء المهاجرين ليسوا منفصلين عن شعائر دينهم وحسب وإنما أيضا عن أى قيم أخرى . وقد أشرنا إلى الجرائم والأمراض الاجتماعية الأخرى مثل البغاء التى يحضرها المهاجرون معهم . والمجتمع الصهيونى ذاته يعانى من كثير من الأمراض الاجتماعية (فعدد المحلات التى تتاجر فى المجلات والأشياء الاباحية آخذ فى التزايد فى القدس ، وشارع ذرنجوف فى تل أبيب يوجد فيه أشكال من الاباحية والمتع الجنسية الشاذة من الصعب وجودها فى كثير من عواصم الدول الغربية المتقدمة) . ولذا فوصول مثل هؤلاء لابد من أن يزيد الأمور سوءا . ولكن هذه قضية ذات طابع بنيوى ولذا فليس من المتوقع أن تتفجر .

وذلك على عكس قضية تعريف اليهودى (من هو اليهودى ؟) فهى مطروحة دائما ولكن أعيد طرحها ، من منظور جديد ، مع وصول اليهود السوفييت . وكنا قد أشرنا من قبل إلى ما يلى :

١ ـ وجود أعداد من غير اليهود ضمن المهاجرين .

٢ ـ وجود أعداد من أشباه اليهود ، أى اليهود من أبناء الزيجات المختلطة ، ومن اليهود اسما الذين لا علاقة لهم باليهودية (سوى الجد المدفون فى روسيا) واليهود غير المختتنين ـ اى ان أشباه اليهود هؤلاء ليسوا يهودا من منظور الشريعة اليهودية .

وقد أشرنا من قبل إلى احتجاج بيريتس وزير الاستيعاب وقوله هل نقوم بتاسيس دولة غير يهودية . وقد أكد ديرى وزير الداخلية أن معظم من يهاجر ليسوا بيهود ويأتون لأن قانون العودة يعطيهم الحق في ذلك (كما أشار إلى انهم مرتزقة أيضا ستجدهم بعد قليل ، بعد التهام المعونات ، جالسين على حقائب السفر مرة أخرى لتحقيق مزيد من الحراك والالتهام) ، وقد بين كلاينر أن توطين واستيعاب مهاجرين غير يهود هو ترف لا يمكن للدولة اليهودية تحمله (الجيروساليم بوست ١٢ يوليو ١٩٩٠) ولذا طالب أن يعدل القانون بحيث ينص على أن الجد اليهودى الذى ينتسب إليه المهاجر لابد من أن يكون مقيما فى إسرائيل (٢٠ يوليو ١٩٩٠) . وقد اتهمت المؤسسة الصهيونية وزير الداخلية والاستيعاب (عضوا شاس وهو حزب دينى سفاردى) بانهما يعطلان الهجرة بل قد يدمرانها (١٧ فبراير ١٩٩٠) وأيدها فى ذلك المتحدثون باسم حركة اليهودية الاصلاحية . ولكن إذا كانت قضية قانون العودة قضية نظرية بالنسبة ليهود الولايات المتحدة فهى مشكلة حقيقية ومباشرة بالنسبة للمهاجرين الجدد ، إذ ان وزارة الداخلية ترفض تسجيل بعض المهاجرين يهودا وبالتالى لا يحصلون على التسهيلات التى تمنحها الوكالة اليهودية لهم . وكما قال روبرت جولان

رئيس رابطة المهاجرين فى الاتحاد السوفييتى « هذه القضية » ، وليس مشكلة الاستيعاب ، « هى الأهم » (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠)، وقد طالب يوسف جول (الجيروساليم بوست ١٩ يناير ١٩٩٠) « ببريستوريكا حاخامية » . وقد وعدت الحاخامية بالتعاون مع المؤسسة الحاكمة في هذا المضمار فصرحت أنها مدركة مدى ضخامة المشكلة وأعلنت انها لن تبذل أى محاولة من جانبها كى تفرض على المهاجر ذى الأصل غير اليهودى أن يتهود وأنها ستقيم محاكم تهويد خاصة لمن يرغب منهم فى التهود . ولكن الذى حدث هو أنها ارسلت الحاخام بنحاس جولد شميت ليشرف على محكمة حاخامية عُرّف هدفها الأساسى بانه التحقق من هوية المهاجرين وهم بعد فى موسكو لتفويت الفرصة على مدعى اليهودية بين القادمين الجدد والذين يحتجون بأن الوثائق الدالة على هويتهم توجد هناك . وقد وصف ميخائيل تشلينوف اجراءات التحقق من الهوية بأنها مسالة مذلة (الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) ، وهو يرى أن اختيار اليهود على أساس الشريعة اليهودية مسألة لا يمكن تحملها (الجيروساليم بوست ٣ فبراير ١٩٩٠) .

ولكن المشكلة الحقيقية للمهاجرين تبدأ عادة حينما يلجأ احدهم إلى المحاكم الحاخامية ليعقد زواجه أو ما شابه من احوال شخصية إذ أن الحاخامية لا تبدى أى تنازل أو تسامح فى هذه الحالة ، فهى لابد من أن تتحقق من أصوله اليهودية قبل ابرام عقد الزواج ، وعلى كل من يريد أن يحصل على زواج أو طلاق شرعى حتى لا يوسم اولاده بأنهم مامزير (أى

أطفال غير شرعيين) أن يخضع إلى مراسم التهود ، وهى طويلة ومعقدة .

بل أن تهود المرأة يتطلب أن تقف عارية في الحمام الطقوسى (المكفية) تحت عيون ثلاثة حاخامات ، وليس من المتوقع أن تقبل مجموعة بشرية مثل اليهود السوفييت الخضوع لمراسم التهود . (وقد رفضت من قبل غالبية « يهود » الفلاشاه أن تخضع لهذه المراسم رغم أن خلفيتهم الدينية كان لابد من أن تسهل عليهم تقبل مثل هذه الشعائر) .

وكما يقول يوسف جول : « من الأكيد أن هذا المجال سيأتى لنا بمتاعب لا نهاية لها لعدة سنوات » . كما قال آخر « إن عملية التحقق من خلفية المهاجرين قد تؤدى إلى توقف الهجرة تماما » . وفي تصورى أن هذا القول فيه كثير من المبالغة ، فالهجرة اليهودية السوفييتية أمر متعلق بحركيات مركبة لا يمكن لعنصر واحد أن يغيرها تماما على هذا النحو . ومع هذا فالمبالغة ، مثل الاستعارة ، تأخذنا أحيانا إلى جوهر الواقع ، ولاشك في أن موقف المؤسسة الحاخامية سيشكل واحدا من أهم عناصر الطرد خاصة بالنسبة لمادة بشرية لا يمكنها أن تفهم ، ولو بشكل بدائى ، العقلية الدينية والمطلقات .

وهناك مشكلة أخرى ستواجهها اليهوديات المهاجرات ، وتتلخص المشكلة فى أن كلا من الزواج والطلاق فى الاتحاد السوفييتى يتمان أمام محاكم مدنية ، وتعترف المحاكم

الحاخامية بمثل هذه الزيجات وحسب ولكنها لا تعترف بالطلاق ، إذ أن المرأة اليهودية لا تعتبر مطلقة إلا إذا حصلت على قسيمة طلاق تسمى « جت » يعطيها زوجها لها ، وإن طلقت ولم تحصل على « الجت » فهي « عجونة » اى مطلقة ولكنها مربوطة ، لا يحق لها الزواج من رجل آخر . وأن حدث وتزوجت من رجل آخر فثمرة مثل هذا الزواج تعد أطفالا غير شرعيين . ومع تآكل الأسرة فى الاتحاد السوفييتى ، كما هو الحال فى معظم المجتمعات التى يقال لها متقدمة ، فإن نسبة الطلاق مرتفعة وكثير من المطلقات يتزوجن مرة أخرى دون جت . وهن على كل لم يسمعن به قط فيهوديتهن فى إساسها تصنيف ومجرد كلمة ترد على جواز السفر ، وسيكون بين المهاجرين عدد كبير من المطلقات المربوطات ، العجونة (الجيروساليم بوست ١٨ سبتمبر ١٩٨٩) .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا واقعة دالة تلقى الكثير من الضوء على عقلية المهاجرين الجدد وهويتهم ، إذ لوحظ أن ٤٪ فقط منهم ذكروا انهم مطلقين (الجيروساليم بوست ١٩ اكتوبر ١٩٩٠) وهذا يتناقض مع ما عندنا من معلومات . ولا يوجد تفسير لهذه الظاهرة سوى أن المهاجرات قد عرفن بالمشكلات التى قد تثيرها المؤسسة الدينية ، ولذا آثرن تغيير البيانات بدلا من المواجهة ، وهى حلول تدل على المرونة الفائقة والاستعداد غير العادى للتكيف حسب الظروف بما فى ذلك تغيير الهوية والتاريخ ! .

وقد يحق لنا أن نثير قضية قد تصبح فى غاية الأهمية فى المستقبل القريب ، فكل مجتمع إنسانى يقوم على أساس عقد اجتماعى ، يتضمن اتفاقا على مجموعة من الأهداف النهائية

أو المطلقة التى لا يمكن اخضاعها للتساؤل . وبالنسبة للكيان الصهيونى عرفت الصهيونية بأنها الهجرة والاستيطان أو الهجرة الاستيطانية ، وهذا أمر مفهوم باعتبار أن المشروع الصهيونى مشروع استعمارى استيطانى . ولكن مع اندلاع الانتفاضة فى الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ تصاعد السخط فى صفوف المستوطنين الصهاينة فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ وفى المؤسسة العسكرية ضد المستوطنين الصهاينة فى الضفة ، باعتبار أنهم هم المسئولون عن الانتفاضة ، وأنهم هم الذين أغرقوا التجمع الصهيونى وأدخلوه فى دوامة الانتفاضة التى لا تريد أن تنتهى والتى ثبت عجز الجيش عن اخمادها . وبدأت تظهر فى صفوف النخبة قطاعات مهمة تطالب بوقف الاستيطان فى الضفة والانسحاب منها وبالتفاوض أو الحوار مع الفلسطينيين ، أو حتى المنظمة وبالسماح بانشاء دولة فلسطينية فى المناطق المحتلة . وكل هذا يعنى فى واقع الأمر سقوط جزء مهم من العقد الاجتماعى الصهيونى وتآكل الاجماع بخصوص الاستيطان . ونحن لانستبعد أن يحدث شىء مماثل بخصوص الهجرة ، فمع تصاعد الاحتكاك بين الوافدين الجدد والمستوطنين ، قد يسقط الاجماع الصهيونى بخصوص الهجرة ، ولو حدث مثل هذا ، فإنه سيشكل تطورا جوهريا فى تاريخ الكيان الصهيونى وفى رؤيته لنفسه ولأسطورة الشرعية التى يستند إليها ، كما أنه سيعيد صياغة علاقته مع يهود العالم ، ولعل شيئا من هذا القبيل قد بدأ يحدث فى صفوف اليهود الشرقيين والسفارد .

ويمكن القول إنه ثمة تداخل ـ شبه كامل ـ بين الطبقات

والانتماء الاثنى فى اسرائيل إذ أن معظم السفارد ويهود الشرق - رغم أنهم يشكلون أغلبية المجتمع - ينتمون إلى الشرائح الدنيا من المجتمع الصهيونى من الناحية الطبقية والتعليمية ومنظور المكانة ، بينما يهيمن الاشكناز على المراكز القيادية الحساسة فى مختلف مجالات النشاط فى اسرائيل (السياسية والثقافية والنقابية) ويشكلون الشرائح الأعلى فى المجتمع . ولذا تحدث بلوتسكير عن « بروز الفوارق الاجتماعية بين الطوائف » وهى عبارة دقيقة توحد بين الفوارق الاجتماعية والاثنية وتعادل بينهما .

وقد نجح الاشكناز فى الاستمرار فى الهيمنة السياسية فلم يظهر حزب واحد قوى لليهود السفارد والشرقيين ، ومع هذا اضطر الاشكناز - فى الآونة الأخيرة - الى تقديم « تنازلات عديدة للشرقيين بسبب تكاثر عددهم على صعيد نسبة تمثيلهم فى السلطات المختلفة » ، كما باشرت الدولة بتخصيص جزء من مواردها لتحسين الظروف الاقتصادية (عمر سعادة ص ٨٤) .

ولكن مع وصول المهاجرين الجدد سيعود التحيز الاشكنازى ضد الشرقيين فى كل المجالات الى الظهور اذ سيتم استقطاع آلاف الدولارات من ميزانيات الصحة ، والتعليم ، والخدمات الاجتماعية لتأمين الموارد اللازمة من أجل استيعاب اليهود السوفييت .

وقد حاول أحد المتحدثين الصهاينة الاشكناز (عضو الكنيست يوسى بيلين الذى جاءت أمه من روسيا) إن يقدم

الرؤية الصهيونية الاشكنازية فى الموضوع : « ان كل موجة هجرة تأتى معها بقدر من المرارة ، ولكن هذه بلد صهيونية ولذا فالهجرة لها أولوية ، وعلى الذين لا مأوى لهم أن يتفهموا الموقف » . وقد رد عليه شيمون شطريت عضو الكنيست (عن التحالف) والمسئول المالى للوكالة اليهودية وهو من أصل مغربى (مستخدما منطقا صهيونيا) : « الجميع أبناؤنا وليس من المعقول أن تحضر مهاجرين من لنينجراد وترسل بأبنائنا إلى لوس أنجلوس . نحن نريد زيادة السكان ، لا تبادل السكان » (الجيروساليم بوست ١٤ أغسطس ١٩٩٠) . وفى مقام آخر قال أن استيعاب أسرة من مهاجرى الاتحاد السوفييتى يكلف نفس المبلغ اللازم لمنع نزوح ستة من الاسرائيليين (هآرتس ٢٤ أكتوبر ١٩٨٨ ، عمر سعادة نقلا عن الأرض ٣٠ أكتوبر ١٩٨٨) . واقترح شطريت أن يتم تحويل الأموال المخصصة لاستيعاب المهاجرين السوفييت الى تحسن أوضاع التعليم وحل المشكلات الاجتماعية .

ويظهر التمييز العنصرى ضد الشرقيين فى جميع المجالات ولكنه يظهر بشكل صارخ فى مجال الاسكان ، وقد لاحظ كاتب مقال « نحن سود وهم بيض » تواتر هذه العبارة بين سكان المدن / الخيم اذ أن معظم سكانها من أبناء المهاجرين من البلاد العربية والشرق الذين ألقى بهم فى المعابر (وهى معسكرات بنيت لاسكانهم بشكل مؤقت ومع هذا استمرت اقامتهم فيها لعدة سنوات) . وقد ارغموا على السكنى فى هذه المعابر أو فى مزارع الموشاف الجماعية ولم يعطوا قط خيار الاستيعاب المباشر كما يحدث للمهاجرين السوفييت . ونفس الوضع حدث بالنسبة للفلاشاة الذين

هاجروا منذ حوالى خمس سنوات ولايزالون مقيمين فى مراكز الاستيعاب ولا يسمح لهم بالبحث عن سكنهم الخاص ، بل لابد من أن ينتظروا حتى تقرر السلطات أنهم قد تعلموا ما يكفى من العبرية ، وصاروا أهلا للسكن الدائم الذى سيختار لهم (هآرتس ٤ مايو ١٩٩٠ باليس ص ٦٣) . وقد لاحظت الصحف الاسرائيلية (الجيروساليم بوست ١٠ فبراير ١٩٩٠) أن عمدة معالوت (فى الجليل) قد منع الفلاشاة من الاستيطان على الرغم من حاجة المستوطن للكثافة البشرية اليهودية ، وسارع بالترحيب بالقادمين الجدد البيض ! (ولكن يبدو مع تزايد عدد المهاجرين وتفاقم المشكلات الناجمة عن استيطانهم طالب بوقف هجرة اليهود السوفييت ، الجيروساليم بوست ٢ نوفمبر ١٩٩٠) . لكل هذا قال يامين سويسة (وهو يهودى شرقى يشار له بأنه زعيم الخيام) : « لن نستقبل المهاجرين من روسيا بالتصفيق فالهجرة من روسيا نقمة على دولة اسرائيل لا بركة عليها ، إذ لا يمكن أن نخبر الشرقيين انه « لايوجد » ثم نقول للمهاجرين الاشكناز « يوجد » . ثم تفوه بالمحظور إذ قال : « وإذا كان اصطلاح « انتفاضة » قد أضيف إلى القاموس ، فليس من الصعب إضافة مصطلح « انتفاضة اجتماعية » (عودة المارد الطائفى لليلى جاليلى ، هآرتس ١٠ ديسمبر ١٩٨٩ نقلا عن الأرض العدد ١ السنة السابعة عشر ١٩٩٠) - أى أن الشرقيين سيقلدون الفلسطينيين ويقومون هم أيضا بانتفاضتهم .

وراديكالية سويسة تعبر وبشكل مثير عن انقسام المجتمع الاسرائيلى تجاه الهجرة الاستيطانية على أساس أثنى (ربما لأول مرة فى تاريخه) ، وهى راديكالية لا تقتصر على

المصطلح الجرىء بل تتجاوزها وتأخذ شكل اجراءات محددة إذ كتب سويسة رسالة مفتوحة لكل من الرئيس الأمريكى ، جورج بوش ، والزعيم السوفييتى ، جورباتشوف يطالبهما فيها بوقف هجرة اليهود السوفييت .

ولا يمكن فهم راديكالية موقف سويسة هذا الا فى ضوء الخطر البنيوى الذى تشكله الهجرة على الشرقيين ، وكما يقول الدكتور محجوب عمر (« الوجه الآخر للهجرة اليهودية الروسية » القدس ١٥ مارس ١٩٩٠) « إذا كان المهاجرون اليهود الروس يطرحون تحديا مباشرا أمام العرب الفلسطينيين ، سواء الذين يعيشون داخل الخط الأخضر أو فى الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، فانهم يشكلون أيضا تحديا مباشرا لليهود الشرقيين داخل المؤسسات الاسرائيلية والتجمع الاسرائيلى » . فهم يهددون طموحات الشرقيين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . أما على المستويين الاقتصادى والاجتماعى فمن المعروف أن المهاجرين الجدد لأى مجتمع يشغلون عادة الشريحة السفلى فيه مما يؤدى إلى تحرك بعض الجماعات الأخرى إلى أعلى ، كما حدث لليهود وللايطاليين فى الولايات المتحدة على سبيل المثال . ولكن الكيان الصهيونى يعامل المهاجرين الاشكناز الجدد معاملة خاصة ، ولذا حذر أرييه الياف (الجيروساليم بوست ٢٤ فبراير ١٩٩٠) من أنه إن استوعب التجمع الصهيونى الاشكناز ووضعهم أعلى السلم سيحدث تصادم دون شك ، ولكن هذا هو ما يحدث بالفعل . إذ لاحظ عالم الاجتماع الاسرائيلى دانيال مامان أن المهاجرين السوفييت المتعلمين يدخلون التجمع الصهيونى فى أعلى مستوياته ولذلك يدخلون

فى منافسة مع هؤلاء الذين يحاولون تحقيق شيئا من الحراك » (الجيروساليم بوست ١٤ أغسطس ١٩٩٠) .

أما على المستوى السياسى فقد أشار سويسة إلى أن القوة العددية هى التى دفعت بأبناء الطوائف الشرقية إلى مركز السياسة الاسرائيلية وهم يخشون أن يفقدوا هذه الورقة . فالخوف ليس فقط خوفا على مصادر الرزق وإنما على القوة السياسية التى اكتسبوها من خلال التوازن الديموغرافى الذى يعمل لصالحهم ، ثم قال فى عبارة طريفة : « لن تفقد أصواتنا الانتخابية أهميتها وحسب بعد وصول مليون أخرى من الاشكناز ، بل إن ديفيد ليفى ذاته سيصبح غير ذى موضوع » . (عودة المارد الطائفى هآرتس ١٠ ديسمبر ١٩٩٠) . وليفى ، بعد تعيينه وزيرا للخارجية ، أصبح أهم شخصية يهودية شرقية فى المؤسسة الحاكمة ويشغل أعلى وظيفة وصلها أى يهودى شرقى فى تاريخ المستوطن الصهيونى .

وظهور شخصيات مثل سويسة وشطريت تدل على أن اليهود الشرقيين قد وصلوا إلى مستوى من الوعى السياسى يجعل من الصعب على المؤسسة الاشكنازية التلاعب بهم واستغلالهم كما كانت تفعل فى الماضى . والخطاب السياسى الذى يستخدمونه ، رغم حذره الشديد ، يدل على أنه بدأ يتخلص من أية مضامين صهيونية ويهدد العقد الاجتماعى الذى يستند له التجمع الصهيونى . ولاشك أن هجرة اليهود السوفييت قد تساهم فى بلورة هذا الموقف إذ أنها تؤكد المضمون الاثنى للصراع الطبقى ، والمضمون الطبقى للصراع الاثنى .

الفصل التاسع :

برنامج التصدي



بعد هذا العرض السريع لجوانب قضية خروج اليهود السوفييت واحتمال هجرتهم الاستيطانية فى فلسطين المحتلة ، يمكننا أن نقترح بعض الخطوط العريضة لتحرك عربى ، ولكن قبل أن نفعل ذلك قد يكون من المهم أن نثير بعض القضايا الاجرائية والمنهجية :

أ) هذا البرنامج يهدف إلى تحديد بعض أشكال التحرك للتصدى لهجرة اليهود السوفييت وليس « لتحرير فلسطين بأكملها » . ورغم أن محاولة التصدى هذه هى جزء من جهادنا الأشمل نحو تحرير الأرض الا أنه يظل مجرد جزء من كل ، وفى اطار حدود هذا البحث وأهدافه لا يمكن أن نخوض فى غمار برنامج الحد الأقصى مثل المطالبة باستخدام سلاح البترول أو الاستثمارات العربية أو دعم الانتفاضة ، فهذه أمور أعتقد أن غالبيتنا ـ ان لم يكن كلنا ـ متفق على ضرورتها لتحقيق الهدف الاستراتيجى الأكبر ، وعدم تعرضنا لها لا يعنى أننا نسقطها من اعتبارنا .

ب) النموذج الاسرائيلى فى الحركة نموذج جراحى (أى مثل العملية الجراحية) فالكيان الصهيونى قادر على الحركة بكفاءة هائلة إن كان تحركه فى جبهة واحدة لانجاز هدف محدد فى وقت محدد فى موقف يتسم بالوضوح والبساطة ،

ومن هنا نجاحه فى الحروب النظامية المختلفة ، ومن هنا أيضا فشله في لبنان وفى قمع الانتفاضة ، فالموقف الذى قابله فى الحالتين الأخيرتين يتسم بالتركيب والاستمرارية والابهام وعدم التحدد ومن هنا فشله فى فرض ارادته أو قواعد اللعبة التى يهواها ويجيد لعبها . وأعتقد أن المنتفضين ادركوا ذلك بذكائهم الفطرى ولذلك يتسم نموذجهم النضالى بما أسميه التكامل غير العضوى وهو نموذج به ثغرات يكاد يكون مساميا مما يكفل له الحركة التى قد تكون بطيئة ولكنها مستمرة ومبدعة .

وفى تصورنا أنه فى مجابهة النموذج الجّراحى ينبغى أن يكون تحركنا على جميع المستويات الرسمية والشعبية ، الصديقة والمعادية ، اليهودية والعربية . كما أن برنامج التصدى يجب أن يلاحق المهاجرين أينما كانوا : فى الاتحاد السوفييتى قبل خروجهم ، فى البلاد التى ينزلوا فيها بعد خروجهم ، وفى أسرائيل بعد وصولهم . المهم خلق مواقف مركبة للعدو تربكه فيتعثر وتنكشف أكاذيبه وتتبلور تناقضاته .

جـ) يتسم العدو الصهيوني بكفاءته العالية فى التحرك الاعلامى وهذا يعود الى عدم اصراره على التصريح بنواياه بخصوص الحد الأقصى : (دولة من النيل إلى الفرات أو أمن إسرائيلى / أمريكى يفرض على المنطقة وتدور الأمة العربية بأسرها فى فلكه) . كما أن هناك عادة من ينوب عنه فى التحرك الاعلامى . ويقف هذا على طرف النقيض من التحرك الاعلامى العربى حيث يصر الجميع أن نصرخ بأعلى صوتنا فى كل مكان وزمان حتى ولو كنا أمام كاميرات التليفزيون

المتخصصة في الكذب ، نصرخ بأن هدفنا هو تحرير كل تراب فلسطين اليوم قبل غدا . ومثل هذا الصراخ يضر بالقضية ، فطرح هذه الشعارات يسبب لنا الحرج ، كما أن الاعلام ذا اللون العربي الفاقع يفقد كثيرا من مصداقيته في عالم الكلام المصقول والسلع المغلفة . ومن يصرخ بهذه الطريقة لا يثق في جماهيرنا التي تعرف أنه لكل مقام مقال وان التحرير الشامل هو هدف الجميع ولا داعي للثرثرة الدائمة . ولعل المنتفضين قد لقنونا درسا في هذا ، فمنشوراتهم لم تتحدث حتى الآن عن تحرير يافا وحيفا ـ مع أن أي طفل صغير يعرف أن تحرير نابلس يعني في نهاية الأمر تحرير كل الأرض السليبة .

وبوسعنا الآن اقتراح بعض الخطوط العريضة لتحرك عربي ، وقد قال شارانسكي ، زعيم اليهود السوفييت المقيم في إسرائيل ، إن « الكثير يتوقف على ما سيحدث لأول عشرة أو خمسة عشر ألف مهاجر سوفييتي .. يجب أن يشعر المهاجرون بعد وصولهم أن الأمور تتحرك . وحتى لو اضطروا للبقاء في مساكن مؤقتة لمدة عامين ، يجب أن يعتقدوا أن الأشياء تتقدم وأنهم في نهاية الأمر سيحصلون على وظيفة جيدة وشقة دائمة » (الجيروساليم بوست ٢١ أكتوبر ١٩٨٩) أي أنه ليس من المهم تحقيق الأحلام المستحيلة وإنما المهم الاستمرار فيها حتى يستمر تدفق المهاجرين . وهو بذلك يعطينا ملامح التحرك العربي ، فهو لابد من أن يكون سريعا وشاملا ومركبا وطويل النفس ، ويهدف إلى فضح الأسطورة الصهيونية أمام العالم وأمام المهاجزين . وهذا التحرك لابد من أن يتم في عدة مجالات وعلى عدة مراحل

زمنية مختلفة ، وأن ننظر إلى الواقع لا من خلال صيغ وأفكار جاهزة وثابتة وإنما من خلال متتاليات افتراضية ممكنة ومحتملة فى المدى القريب أو البعيد ، وأعتقد أن نقطة البدء لابد من أن تكون مصدر المادة البشرية ، الاتحاد السوفييتى . ويجب ابتداء أن نضع فى اعتبارنا نقطتين أساسيتين :

١ ـ أن هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتى ليست جزءا من المخطط اليهودى القديم (الذى بدأ منذ آلاف السنين كما يظن أصحاب هذا الرأى) ولا هى جزء من المؤامرة الشيوعية بعد أن أخذت شكلا جديدا (كما يحلو للبعض الآن أن يقول) وإنما هى نتيجة تحولات بنيوية عميقة حدثت للمجتمع السوفييتى لها جذور تاريخية وحضارية واجتماعية ذات امتداد طويل . ومثل هذه التحولات ونتائجها لا يمكن وقفها من خلال المساعى السياسية والدبلوماسية مهما بلغت من ذكاء وصقل . وخروج اليهود السوفييت هو جزء من عملية خروج أخرى تضم العديد من غير اليهود .

٢ ـ أن الاتحاد السوفييتى ـ على حد قول الدكتور أسعد عبدالرحمن ـ قد أصبح دولة عظمى من الدرجة الثانية . وفى ظل هذا الواقع الجديد علينا أن نلاحظ كيف أن الاتحاد السوفييتى قد بدأ يتحدث بلغة المصالح على نسق دول أوربا الغربية والولايات المتحدة ، ومن الطبيعى أن يأتى الحديث بهذه اللغة على حساب عدد من المبادىء ، وبخاصة تلك المبادىء التى حكمت علاقة الاتحاد السوفييتى مع دول العالم الثالث وقضاياه .

ومن مصالح الاتحاد السوفييتى الآن الحصول على التكنولوجيا المتقدمة من الغرب والمعونات الاقتصادية والا يهاجمه الغرب الآن حتى يمكنه أن يحقق الانتقال من مرحلة الشيوعية إلى مرحلة جديدة لم تتضح ملامحها بعد - أى أن الاتحاد السوفييتى - نظرا لحاجته الماسة للغرب - على استعداد لإظهار قدر كبير من المرونة والتنازل تجاه المطالب الغربية ، وعدم اكتراث بالقيم الأممية ومساندة المقهورين وما شابه من قيم هى جزء من ميراثه القديم الذى لم يعد يشكل أسطورة الشرعية بالنسبة له فى المرحلة الجديدة !

وإذا كان العنصر الأول هو تحول بنيوى على مستوى البنية التحتية فإن العنصر الثانى هو تحول على مستوى البنية الفوقية (إن أردنا استخدام مصطلح شبه ماركسى) - والتحولات التى تحدث على هذين المستويين فى الوقت نفسه عادة ما تكون عميقة إلى أقصى حد ، كاسحة إلى أقصى حد .

ويمكننا القول إن الاتحاد السوفييتى - على مستوى من المستويات - قد لحق أخيرا بركب الحضارة الغربية الحديثة ، بعد أن انعزل عنها لمدة سبعين عاما ، وأحد الملامح الاساسية لهذه الحضارة وقوانين بنيتها هو تصدير مشكلاتها خارج حدودها ، وفرض فواتير تقدمها على الآخرين . وهذا ما يفعله الاتحاد السوفييتى فى الوقت الحاضر - أن يتبنى النمط البلفورى (نسبة إلى بلفور) أى أن يصدر فائضه البشرى إلى الشرق (وبطبيعة الحال عندما تغلق الولايات المتحدة أبوابها فى وجه اليهود السوفييت بعد التهييج من أجلهم وبعد

خلخلة وضعهم فى بلادهم ـ فإنها تفعل الشىء نفسه وتنتمى لنفس النمط) .

بعد تحديد هذا الإطار العام لخروج اليهود السوفييت يمكننا الآن أن نحدد بعض ملامح التحرك وهو لابد من أن يكون على المستويين الرسمى والشعبى ، سواء فى الاتحاد السوفييتى أم خارجه . والمستوى الرسمى فى الاتحاد السوفييتى ينقسم إلى الأجهزة المباشرة والبنية الرسمية . ولكن هناك قنوات الاتصال غير المباشرة والبنية غير الرسمية ، أما الأولى فأمرها معروف للجميع ، على عكس الثانية ، أى البنية غير الرسمية ، فهى ما قد يحتاج لشىء من الايضاح . ولا أزعم أننى على علم بتركيب وزارة الخارجية السوفييتية وآليات النظام السياسى الدقيقة هناك ، ومع هذا لابد من أن هناك « لوبى عربى » فى وزارة الخارجية السوفييتية ، وقد قرأت عنه فى الصحف الإسرائيلية . ويرى هذا اللوبى أن من مصلحة الاتحاد السوفييتى ألا يناصب الدول العربية العداء وأنه كى يستمر فى كونه دولة عظمى (أو حتى شبه عظمى) لابد من أن يتحالف مع هذه الدول كجزء من رصيده الاستراتيجى العالمى . ولابد من أن هناك فى وزارة الخارجية السوفييتية عناصر آسيوية إسلامية تتمتع عندها برصيد من التعاطف المبدئى ، وقد أشار ڤلاديمير نوسينكو (وهو متخصص فى شئون الشرق الأوسط فى معهد الاقتصاد العالمى والعلاقات الدولية فى أكاديمية العلوم فى موسكو) إلى الكثيرين فى وزارة الخارجية ممن لايزالون متعاطفين مع الموقف المعادى إلى إسرائيل (على عكس

جورباتشوف وشيفرنادزة فقد وصفهما بأنهما "تقدميان"

(الجيروساليم بوست ٧ نوفمبر ١٩٩٠) ، لابد من اكتشاف هذا اللوبى وتشجيعه حتى يمدنا بالمعلومات وحتى يتم ممارسة الضغط من خلاله وتوصيل الرسائل إلى القيادة السوفييتية بطريقة كفءة وسريعة .

ولعل من أهم الرسائل التى يجب أن تصل إلى القيادة السوفييتية هو حجم الغضب الشعبى العربى مما حدث ، ولابد من التلويح بأن الجماعات الإسلامية فى العالمين العربى والإسلامى قد تبدأ بفتح قنوات مع الساخطين والمنشقين فى الجمهوريات الإسلامية . كما أنه لابد من التلويح بأن مصالح الاتحاد السوفييتى فى المنطقة قد تضار . نحن فى عالم وثنى فى جوهره لا يفهم القيم المطلقة كثيرا ، ولكنه يفهم لغة الارقام كما لم يفهمها أحد من قبل ، والخطاب الذى لا يصاحبه الأرقام الخاصة بموازين القوى والمدفوعات يذهب ادراج الرياح . قد لا نحب هذه الحقيقة ، وهى حقيقة كريهة ولا شك ، إلا انها الحقيقة الاساسية فى العالم الغربى الآن ـ خاصة بعد البريسترويكا .

ولكننا يجب الا نطلب من الاتحاد السوفييتى مطالب غير معقولة نعلم سلفا أنه لن يمكنه تنفيذها . فمطلب وقف الهجرة (حتى ولو ظل بالنسبة لنا هدفا استراتيجيا مهما نسعى له بكل السبل) هو مطلب مستحيل . ولذا قد يكون من الاصوب البحث عن مستويات اخرى من العمل كأن نحاول إبطاء الهجرة وتقييدها . وفى هذه الدائرة يمكن أن تدخل المجر ورومانيا أيضا باعتبارهما محطات الترانزيت .

ولا أعرف ما طبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية

القائمة والمحتملة بين الدول العربية من جهة ، ورومانيا والمجر من جهة أخرى . وهل يمكن الضغط فى هذه الجبهة خاصة أن هذه الدول فى حاجة إلى الاستثمارات والبترول ؟ ويمكن مطالبة كل هذه الدول الإقلال من حركة الطيران من موسكو ، حتى نبطىء من عملية الخروج . بل اننى أعتقد ان عملية الإبطاء يجب أن تكون هدفا أساسيا ، لانه كلما أبطأت عملية الخروج ، وأخذت ثمانى سنوات بدلا من اربع على سبيل المثال ، فهذا يعنى اعطاء فرصة لأعداد أكبر من العازمين على الهجرة على إعادة النظر فى مواقفهم . كما أن الأمور قد تستقر فى الاتحاد السوفييتى وقد تتفتح فرص جديدة وقد تزول بعض عناصر الطرد التى سببت الفزع ، ولكن الأهم من هذا كله أن الإبطاء فى عملية الخروج يعنى إمكان تسريب أعداد اكبر إلى الولايات المتحدة وفتح مراكز جذب أخرى .

ويجب علينا فى هذه التحركات الا نطالب إلا بما يتفق مع قوتنا الذاتية ومع مقدرتنا الفعلية على الضغط ، والمطالبة بالإبطاء فى عملية الخروج بدلا من إلغائها أو وقفها تماما طلبا معقولا إذ أنها لن تحرج السلطات السوفييتية (أو السلطات المجرية والرومانية) أن قبلت التعاون . كما ان عملية الإبطاء يمكن أن تتم فى لباقة دون أن تحدث ضجة إعلامية . هذا لا يعنى ان نقلع عن المطالبة بوقف الهجرة ، بل يجب إن نستمر فى ذلك وأن نسعى إلى تحقيقه . ولكن هذا هو مطلب الحد الاقصى ، ولا يوجد مبرر للاصرار عليه والتمسك به وحده ، وهذا ما نعنيه بمواجهة الواقع بمتتاليات مختلفة .

اما على المستوى الشعبى فالتحرك لابد من أن يكون أكثر تركيبا ، فهو يجب أن يتم من خلال منظمات شعبية عربية وغير عربية وعربية / امريكية وغربية . كما يجب التحرك من خلال ما يعرف باسم المنظمة الواجهة Front Organization وهى منظمة محلية تؤسس خصيصا لتحقيق هدف محدد وعاجل ، تعمل من داخل قوانين البلد ، ويتم تمويلها من الخارج . ومعظم الجماعات المتعاطفة مع اليهود والصهاينة هى من هذا النوع .

ولابد من أن يكون التحرك بين أعداء اليهود وأصدقائهم ، وبين الصهاينة وأعدائهم ، ولنبدأ بالمؤسسات الدينية والثقافية الروسية اليهودية إذ لابد من أن نشجعها ونضخ فيها بعض الاموال ، إذ أن مثل هذه المؤسسات هى التى تشكل مركز الجذب ليهود الاتحاد السوفييتى ، فهى ستكون المجال الذى يمكنهم التعبير عن هويتهم الروسية اليهودية أو اليديشية من خلاله . واعتقد أنه ليس من الصعب إيجاد القنوات . والجماعات اليهودية المعادية للصهيونية كثيرة فى انحاء العالم ، وهم جماعات قد تكون صغيرة ولكنها تضم اعضاء على درجة عالية من المثالية تناضل وحيدة ضد الصهيونية باعتبارها عقيدة علمانية تتهدد العقيدة اليهودية بل وتراث يهود العالم بالزوال . وجماعة الناطورى كارتا من أهم هذه الجماعات وقد أعلنت عن معارضتها لهجرة اليهود السوفييت . ولعلنى لا أذيع سرا حين أشير إلى أن أعضاء هذه الجماعة هم الذين تحركوا حتى منحت الولايات المتحدة للمهاجرين السوفييت ـ ابتداء من السبعينات ـ مكانة اللاجىء السياسى وبذا لم يدخلوا ضمن النصاب المسموح به

للمهاجرين العاديين ، مما سهل عملية هجرتهم إلى الولايات المتحدة وتم تحويل سيل الهجرة اليهودية إليها من فلسطين .

كما أنه توجد جمعيات كثيرة فى الولايات المتحدة وغيرها من بلدان غرب أوربا تدعو إلى بعث ثقافى يهودى فى الدياسبورا - أى خارج فلسطين المحتلة . وهؤلاء يرون أن الدعوة الصهيونية لنفى الدياسبور أى استغلالها وتصفيتها هى دعوة إجرامية ذات طابع إبادى genocidal . ومثل هذه الجمعيات يمكنها أن تبدأ حملة لتأكيد حق اليهود السوفييت فى البقاء فى وطنهم وتطوير هويتهم اليهودية الروسية والتمتع بجميع الحقوق المدنية والسياسية والدينية - وكل هذا يتعارض مع المخطط الصهيونى الذى يهدف إلى تحويل كل بقاع الأرض إلى مناطق طرد لليهود . كما يمكن أن تقوم هذه الجمعيات بحملة لتأكيد حق اليهود السوفييت فى الهجرة إلى اى بلد يختارونه ، فالهجرة القسرية الجديدة لاسرائيل منافية لحقوق اليهودى فهى تهدر حقه فى حرية الاختيار نتيجة سد منافذ الاستيعاب فى دول العالم . وكان من الممكن الاستفادة من تصريحات ميخائيل كلاينر (رئيس لجنة الاستيعاب فى الكنيست) فى هذا المضمار فقد صرح ان اسرائيل « رفضت ان تصبح فنلندة رابع محطة ترانزيت للمهاجرين السوفييت ، لان الفنلندين وضعوا بندا يقول عندما يصل المهاجرون الى فنلندة يجب أن يتمكنوا من إعادة النظر فيما اذا كانوا يرغبون فى الهجرة الى اسرائيل او الى ملاذ آخر .. فهذا سيعيد ظاهرة التساقط » (الجيروساليم بوست ٢٤ يوليو ١٩٩٠) . كان من الضرورى أن تقام حملة إعلامية مكثفة حول هذا الموضوع لاثبات أن هجرة اليهود السوفييت إنما هى عملية

تهجير وأن الهدف ليس انقاذهم وانما توطينهم فى فلسطين المحتلة وتسخيرهم لخدمة الدولة الصهيونية وأهدافها . وأخيرا يجب أن تطالب جمعيات حقوق الانسان الاتحاد السوفييتى بإعطاء المهاجرين السوفييت الحق فى العودة إلى أوطانهم . وأعتقد أن المؤسسة السوفييتية يمكنها التعاون فى هذا المضمار فمعاداة اليهود فى روسيا (والاتحاد السوفييتى) كانت دائما ظاهرة شعبية إلى حد كبير ، بينما كانت البيروقراطية الحاكمة تسعى إلى حل المسألة اليهودية عن طريق دمج اليهود فى المجتمع . وتأييد حقوق اليهود المدنية والسياسية هو أيضا تأكيد لانتمائهم إلى أوطانهم وحقهم فى الاندماج فيه . كما أن السعى إلى مثل هذه الأهداف لا يتناقض مع الصورة التى يود أن يذيعها النظام السوفييتى الحالى عن نفسه ، وهى فى نهاية الأمر امتداد للخطاب السياسى الغربى وللدفاع الشرس إياه عن حقوق الإنسان خاصة الإنسان اليهودى السوفييتى !

ويجب ألا ننسى حقوق إنسان آخر : الانسان الفلسطينى فالهجرة السوفييتية تتم على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فى أرضه . وهناك فى القانون الدولى ما يجعل مثل هذه الهجرة الجماعية والاستيطان فى بلد الآخرين امرا غير مشروع . وقبل ترك الموضوع ، يجب الإشارة إلى الاقتراح الذى طرحه الأستاذ محمد حسنين هيكل وهو أن نطلب وضع الهجرة من الاتحاد السوفييتى تحت إشراف المفوضية العامة لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة - أو تحت أى إشراف دولى آخر - ويمكن أيضا المطالبة بإيجاد

نوع من المراقبة الدولية لمتابعة الاستيطان فى الضفة الغربية باعتباره خرقا للقوانين الدولية .

ويتسم هذا الجانب من التحرك المقترح انه ومن خلاله يمكن تجنيد جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان فى العالم بأسره وتجنيد شخصيات يهودية وغير يهودية للمساهمة فيه ، فهو دفاع عن حقوق الإنسان بشكل عام ، ولا يمكن لاحد ان يرى أن الدفاع عن حقوق الإنسان فيه معاداة لليهود . وهذه الحملة لن تثير حفيظة الاتحاد السوفييتى بل تمكنه من التعاون مع العرب بشأنها إلى ابعد حد ، إذ لا يمكن ان يتصدى لها إلا العنصريون الاغبياء والصهاينة .

وأود هنا أن أثير قضية فى غاية الخطورة وهى قضية التمييز بين الاستيطان فى فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ (خلف « الخط الأخضر » فى المصطلح الاسرائيلى) وتلك التى احتلت عام ١٩٦٧ (« المناطق » فى المصطلح الاسرائيلى أيضا) ، وهذا التمييز وهمى ولا يمكن مراقبته او التحكم فيه ، فان تكونت كتلة بشرية داخل المستوطن الصهيونى فانها ستصبح لها حركياتها المستقلة ، وقد يمكن عزلها خلف الخط الاخضر بضعة أيام او شهور ، ولكن عند نقطة ما ـ مع تراكم الاعداد ومع تفاقم الأزمة الاقتصادية ومشكلات الاسكان والاستيعاب ـ فإنها ستنفجر لامحالة وستؤكد بنيتها التوسيعية ، وهى بنية تتجاوز نوايا الافراد ودعوتهم ومخططاتهم . ولكن لا مانع بتاتا من استخدام هذا الخط بسبب فائدته الاعلامية . وقد يكون من الضرورى الا يتورط فيه أى متحدث عربى لان هذا التمييز يتضمن قبولا

ضمنيا لا لاحتلال فلسطين وحسب وانما للرؤية الصهيونية للدولة اليهودية باعتبارها دولة يهود العالم ، ولذا يجب أن تقوم إحدى منظمات الواجهة بهذه العملية .

ثم نأتى إلى أهم العناصر - أى اليهود السوفييت المرشحين للهجرة . هؤلاء يجب أن تنظم بينهم حملة إعلامية عنيفة وسريعة . وقد نشرت الجويش ويك (١٩ أكتوبر ١٩٨٩) أن فيلم فيديو يتحدث عن مفاتن إسرائيل سيوزع عليهم ، ولعله الفيلم الذى أعده شارانسكى ويسمى « وطننا فى اسرائيل » (تايمز ١٣ يناير ١٩٩٠) أو لعله غيره . مهما كان الأمر فإن كثيرا منهم يميل الى تصديق ما جاء فى المادة الدعائية الاسرائيلية لانهم يظنون ان كل ما سمعوه عن اسرائيل خطأ ، مجرد بروباجندا (مثل موقف المواطن العربى من البيانات الحكومية الموضوعية الرسمية) . وكثير من المهاجرين يكتشفون الحقيقة المرة بعد وصولهم الى صهيون . وثمة نكتة يتداولها المهاجرون تصف احساسهم بالخديعة نتيجة لتصديقهم الدعاية الصهيونية « عن رجل تقى كان فى طريقه إلى الجنة ولكنه لم يمكنه مقاومة زيارة جهنم وعند وصوله لها أخذ يتمتع بالخمر والنساء والاغانى ، ولذا طلب نقله إليها ، وقد اجيب إلى طلبه ولكن عندئذ بدأت الشياطين فى تعذيبه وحينما يشكو من الخديعة يخبره حارس جهنم : لقد كنت سائحا أما لآن فانت مهاجر » (التايمز ٢٧ مارس ١٩٩٠) وإذا عرفنا أن كثيرا من المهاجرين إلى إسرائيل يذهبون إليها فى بادىء الأمر مع رحلات سياحية من الاتحاد السوفييتى ويتعرفون على ما تقدمه من متع فيقررون الهجرة اليها على أثر ذلك ، إذا عرفنا ذلك فإن الجنة هى

ولاشك الجولدن مدينا (الولايات المتحدة) أما جهنم فهى اسرائيل والمخدوع هو المهاجر ! وهو الذى يتعذب ثمنا لبلاهته وتصديقه المادة الاعلامية المصقولة .

والمهاجرون لا يصدقون ايضا الحديث عن الانتفاضة (« عرب يلقون حجارة ») ولكن بعضهم يكتشف الحقيقة ايضا بعد وصولهم إسرائيل ويكتشفون مدى خطورة الموقف « سمعنا قصصا عن سيارات تحرق ، وحتى عن اطلاق الرصاص » . كما قال جريجورى فى مركز ميفا سيريت صهيون للاستيعاب (ديلى تلجراف ٢٩ مارس ١٩٩٠) . لابد أن يعرف هؤلاء المرتزقة حقيقة الموقف فى إسرائيل ، وأن يشاهدوا مناظر الانتفاضة وأن يطلعوا على أشكال النضال قبل ذلك حتى يستقر فى روعهم أنها ليست مسألة عابرة . كما لابد من أن يعرفوا أنهم منذ جاء المهاجرون الروس اليهود الأول (الذين كان يقال لهم المسكوب نسبة إلى موسكو) بدأت الحرب ، وأن بيوتهم لهذا السبب كانت تأخذ شكل السور والبرج ، وأن هناك انتفاضات وثورات أعقبها حرب تلو حرب بعد إعلان الدولة وحركات فدائية ثم الانتفاضة تتويجا لكل هذا النضال السابق . لابد من أن يفهم المهاجرون المرتزقة أنهم غير مقبلين على نزهة خلوية ، كما تحاول الدعاية الصهيونية أن تصور لهم الأمر ، وإنما سيستوطنون أرضا لن يهدأ أهلها حتى يستعيدوها ، ولذا فهم قد قاتلوا من أجلها فى الماضى وينوون الاستمرار فى الجهاد من أجلها فى الحاضر والمستقبل .

ثم يجب أن يدرك المهاجرون المحتملون حجم المصاعب التى سيواجهونها فى أرض الميعاد . ومن ثم يجب التركيز

على الملامح العسكرية للمجتمع الصهيونى وقانون الخدمة العسكرية والتردى الاقتصادى الذى يعانى منه التجمع الصهيونى . ويمكن أن نذكر لهؤلاء المهاجرين المرتزقة أن مئات الألوف من مواليد إسرائيل قد لجأوا إلى أمريكا ، وأن يهود العالم الغربى لا يهاجرون قط إلى إسرائيل (وإن كان لا مانع لديهم من توطين اليهود الآخرين) . ويمكن هنا طرح تساؤل بالنيابة عنهم : من هو وراء إغلاق أبواب الولايات المتحدة أمام الهجرة ؟ ولم لم تهيج الجماعات اليهودية كعادتها ضد معاداة السامية ؟ هل يريدون التخلص منهم بأى ثمن ؟

واحب أن أثير هنا قضية أثارها معى بعض أصدقائى وهى ماسموه الضمير الاشتراكي لهؤلاء المهاجرين ، والافتراض هنا أن هؤلاء المهاجرين أتوا من مجتمع مبنى على المثل الاشتراكية والمساواة ومعاداة الامبريالية ، مجتمع وفر لسكانه مجموعة من المعلومات عن الصهيونية واستيطانيتها ومذابحها ضد العرب لم توفرها المجتمعات الغربية لاعضائها . ومن ثم يجب التوجه إلى هؤلاء من منظور اخلاقى . وبالفعل أسس أحد المهاجرين فرعا لحركة السلام الآن فى موسكو (فى مايو ١٩٨٨) وقد اجتمع اثنان من اعضائها مع ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية (باليس ص ٧٠) ، ولكنى أعتقد أن هذا هو الاستثناء الذى يثبت القاعدة . فهؤلاء المهاجرون بمجرد أن تطأ اقدامهم ارض فلسطين قد تحولوا بنيويا الى مغتصبين مهما كانت طبيعة الايديولوجية التى يؤمنون بها ولا يعقل أن يقوم أحد باغتصاب ارض آخر ليقوم بالدفاع عن حقوق الضحية المهدرة وينادى

باحترامها الا اذا كان هذا الشخص مغفلا كاملا او مصابا بحالة حادة من انقسام الشخصية . وهؤلاء المهاجرون ـ كما اسلفنا ـ وبناء على العينات المتاحة شخصيات نفعية ليس لها ولاء واضح الا للحراك الاجتماعى ، وهى تعيد اكتشاف هويتها اليهودية او تفبركها لتحقيق اهدافها . ومع هذا رأيت ان اذكر هذه النقطة ـ رغم عدم اقتناعى بها ـ حتى نضعها ضمن المتتاليات المحتملة ، حتى وإن كانت بعيدة الاحتمال .

ولابد من جمع الاحصائيات عن مصير المهاجرين السوفييت الذين سبقوهم وقصص الفشل بينهم ، وكم منهم يود العودة ؟ وكم منهم نجح فى الفرار إلى الولايات المتحدة ، وكم عدد الذين يفكرون فى الفرار ولكنهم تورطوا فى إستلام شقق لا يمكنهم تسديد ثمنها وفى الحصول على خدمات عليهم ان يدفعوا تكلفتها قبل ان يهاجروا ؟ كم منهم وضعت هويته موضع الشك ؟ يجب ان يفهم هؤلاء المهاجرون اصطلاحات مثل « تهود حسب الشريعة » اى على يد حاخام ارثوذكسى او « مامزير » اى طفل غير شرعى و« عجونه » اى المطلقة المربوطة . وهى مصطلحات لا يفهمونها البتة ويمرون عليها مرور البلهاء بسبب خلفيتهم الثقافية ، ومع هذا فإنهم سيجدون أنفسهم ليسوا يهودا لانهم لم يتهودوا حسب الشريعة ، كما سيكتشفون ان ابناءهم « مامزير » وان زوجاتهم « عجونة » . وليس من الصعب جمع المعلومات عن بعض سجناء صهيون وبعض الرافضين الذين يقفون فى طوابير المتعطلين ، او يقضون سحابة يومهم فى مراكز الاستيعاب . وليس من الصعب تجهيز فيلم فيديو وثائقى عن الموضوع . وحينما كنت اعمل فى الجامعة العربية اتذكر ان

إفرام سيفلا ، وهو أحد قادة اليهود الجورجيين ، كتب كتابا عن أوضاع المهاجرين السيئة بل وصور فيلما داخل إسرائيل ، في حوزة الجامعة نسخ منه . وقد جاء في الجيروساليم بوست (٢٧ أكتوبر ١٩٩٠) أن المهاجرين قد عبروا عن قلقهم من أنهم سيضطرون للعيش في خيام عند وصولهم .

ولابد من أن يعين على الفور مندوب خاص للجامعة العربية أو منظمة التحرير الفلسطينية في موسكو تكون وظيفته إدارة الصراع وجمع المعلومات وتقديم الاقتراحات وتنفيذ البرامج المقترحة . فالمجتمع السوفييتي ليس مجتمعا مفتوحا ولابد من أن هناك كما كبيرا من المعلومات المتداولة التي لم يدونها أحد ، رغم أهميتها الكبيرة . كما أن هذا المندوب سيزودنا بمعلومات محددة لا عامة تزيد من مقدرتنا على التنبؤ والحركة . فمعرفتنا على سبيل المثال أن يهود موسكو أكثر اندماجا في محيطهم الحضاري من يهود جورجيا ، وأن نسبة التساقط بين يهود كييف تصل إلى ٩٢٪ ، هذا النوع من المعلومات الذي يتسم بالخصوصية يحسن من أدائنا كثيرا ، إذ يمكننا أن نركز على التجمعات اليهودية الكبيرة في المدن الروسية باعتبار أنها تضم أكبر عدد وأكثرها قابلية للذهاب بعيدا عن فلسطين .

كما أن معرفتنا بالمهاجرين السوفييت كعناصر بشرية مرتزقة ، توظف يهوديتها في الحراك ، قد يفتح لنا فرص تجنيد بعض العناصر بينهم سواء كانوا في داخل فلسطين أو خارجها ، ومن خلال تجنيدهم يمكن التركيز على الفضائح

وافتعال الأحداث . وأرجو ألا يفهم من وصفى للمهاجرين بأنهم مرتزقة أنهم ليسوا شرسين ولا مقاتلين . فالجندى المرتزق قد يقاتل بضراوة ربما أشد من المجاهد ، خاصة إذا حوصر وتهدد الخطر « رزقه » أى طموحاته المادية . كل ما أود تأكيده أنه يقاتل لا من أجل مثل عليا وإنما من أجل أهداف مادية ، ومن ثم فإننا بوسعنا التسلل من خلال هذه الثغرة ، فهو فى نهاية الأمر يمكن شراؤه ، فالمرتزق يعرض نفسه دائما للبيع ، أليس هذا هو قانونه الأساسى ؟

المجال الأخير للحركة هو البلاد التى يمكن أن نسرب إليها الهجرة اليهودية (التى تتجه إلى هناك إن تركت وشأنها) . وهذه الدول هى أساسا الولايات المتحدة ثم استراليا ونيوزيلندة وكندا ، ثم أخيرا بعض دول أوربا . ولنبدأ بالولايات المتحدة . أعتقد أنه يجدر بالدول العربية التى تبالغ فى الهجوم على الاتحاد السوفييتى والجماعات التى تصب جام غضبها على امبراطورية الشر الالحادية (التى تداعت) أن يوجهوا بعضا من هذا إلى الولايات المتحدة . ويجب أن نتذكر أنه إذا كان القرار السوفييتى نابعا من حركيات بنيوية كبرى لا يمكن للنظام السوفييتى الحاكم ضبطها أو التحكم فيها ، فإن القرار الأمريكى هو فعل سياسى محض يهدف إلى خدمة المستوطن الصهيونى ، ويمكن من الناحية النظرية أن يلغى غدا . ولذا لابد من أن تمارس الدول العربية شيئا من الضغط حتى تخفف الولايات المتحدة قليلا أو كثيرا من القيود المفروضة على الهجرة . ومرة أخرى هذا طلب معقول لأقصى حد ، فنحن لا نطالب هنا بإلقاء « اليهود فى البحر » بل العكس نحن نطالب بحمايتهم بوضعهم على الشاطىء

الأمريكى ، خاصة ومن الواضح أن هذا هو مطلب غالبيتهم الساحقة . وأعتقد أن هذا لو حدث فإنه لن يخفف من وطأة الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين المحتلة ، بل وقد يصفيها تماما . وإلى جانب الضغط العربى الرسمى يمكن تجنيد كثير من الجماعات والشخصيات اليهودية وغير اليهودية لصالح هذه الحملة .

والإعلان الذى نشره اليهود السوفييت فى احدى الصحف الأمريكية والذى أسلفنا الاشارة اليه يصلح نموذجا يحتذى . وأعتقد أنه يمكن للجماعات المسيحية من أصل روسى أو أوكرانى فى الولايات المتحدة أن تتحرك فى هذا المجال . فإغلاق باب الهجرة أمام اليهود السوفييت هو بالضرورة إغلاق الباب أمام العناصر المسيحية . ومن ثم يمكن لهذه الجماعات أن تتحرك للمطالبة بحق المسيحيين فى الهجرة ، ويمكن للجاليات العربية فى الولايات المتحدة أن تلعب دورا فى هذا المجال .

كما يجب دراسة قوانين الهجرة فى كل البلاد التى يمكن تسريب اليهود إليها ، فإن كان هناك فرص وثغرات فإن هذه المعلومات لابد من أن تنقل إلى المهاجرين المحتملين . ولابد من التركيز على استراليا ونيوزيلندة . كما أن كندا قد تكون إمكانية جيدة باعتبار أنها تضم نواة سفاردية وأخرى اشكنازية ، ووجود النواة أمر أساسى للهجرة . ولعلنا لو نجحنا فى تقوية النواة اليهودية الموجودة فى استراليا فإنها قد تصبح هى الأخرى منطقة جذب . أما بالنسبة لأوربا فإن الحديث الصهيونى الممل عن الهولوكوست قد يمكن توظيفه

لصالحنا ، فقد حان الوقت أن « تكفر أوربا عن خطاياها » بعد أن فتكت باليهود فيها حتى أصبحت Judenrein خالية من اليهود . عليها أن تتحمل جزءا من « مسئوليتها التاريخية » ، وتعيد فتح محطات الترانزيت ، وتقبل كوتا أو نصاب من المهاجرين فى أوربا ـ مثلما ساعدت المهاجرين من ڤيتنام ـ تعويضا عن الستة ملايين الذين قرأنا عنهم الكثير .

ولعله قد يكون من المفيد التركيز على ألمانيا بالذات فهى من المنظور الأوربى عليها دين كبير لليهود بسبب « جريمتها » تجاههم وقد حان الوقت لدفعه . ولا أدرى لم لا تفتح ألمانيا أبوابها على مصراعيها لأبناء أو أحفاد ضحاياها ؟ لماذا تكبدهم مشقة السفر ؟ ويجب أن نتذكر أن ثمة علاقة خاصة بين يهود الاتحاد السوفييتى والثقافة الألمانية ، فاللغة اليديشية هى لهجة من اللغة الألمانية (فى الواقع يصعب تسميتها لغة مستقلة) والثقافة اليهودية فى شرق أوربا ووسطها كانت أساسا ألمانية اذ أن كل الحركات الفكرية الحديثة بين اليهود ألمانية النشأة : حركة الاستنارة ، واليهودية الاصلاحية ، واليهودية الارثوذكسية ، وعلم اليهودية ، وأهم المفكرين الدينيين اليهود (مارتن بوبر وليوبايك وهرمان كوهين وفرانز روزنزفايج) ألمان يكتبون بالألمانية ، وكذا أهم المفكرين والصهاينة (هرتزل ونورداو) . ولغة المؤتمرات الصهيونية الأولى كانت الألمانية ، بل أنه كان ينظر إلى اليهود في الدول السلافية (بولندا وروسيا وغيرها) باعتبارهم عنصرا ألمانيا ، ولذا حينما كانت تضم ألمانيا جزءا من بولندا كانت تعتبر اليهود جزءا من الكثافة البشرية الألمانية (وعلى كل حينما استوطن

اليهود في بولندا في العصور الوسطى استوطنوها مع التجار الألمان وكان يطبق عليهم القانون الألماني !) . ألا يصلح هذا أساسا ايجابيا يكمل الميراث السلبي ؟ أليس هذا تراثا حضاريا مشتركا ؟ ويبدو أن هناك هجرة يهودية سوفييتية بالفعل الى ألمانيا فقد وصل ٢٥٠٠ يهودى سوفييتى ، كما تقدم عشرة آلاف بطلب تأشيرات هجرة للقنصلية الألمانية في كييف . بل وظهر أن الحكومة الائتلافية فى ألمانيا الشرقية توفر حقوق الاقامة والعمل آليا لهم « فهى وسيلة جيدة للتعامل مع ماضينا » ـ على حد قول رئيس لجنة الهجرة فى ألمانيا الشرقية ، (الجيروساليم بوست ١٢ يوليو ١٩٩٠) . ومن المفارقات أن مكتب تقديم المشورة للمهاجرين يقع فى مبنى قديم كانت تشغله وزارة الإعلام إبان الحكم النازى والتى ترأسها جوبلز . ويبدو أن حكومة ألمانيا الغربية تحاول أن توقف هذا السيل العرمرم المحتمل بأن تفرض نصابا معينا ، وأن تمنح حق الهجرة لليهود من أصل ألماني وحسب . ولكن ـ كما هو متوقع بعد عشرات السنين من الحديث عن الهولوكوست ـ ظهرت معارضة للاجراءات المقترحة فقال ديتريش فيستيل ، وهو أحد زعماء حزب الخضر : « لم يفرض نصاب حينما أرسل الألمان باليهود لأفران الغاز ، ويجب ألا يفرض نصاب الآن » (ألا يصلح هذا شعارا لحملة إعلامية مثيرة يشترك فيها فلسطينيون ويهود سوفييت وبعض الخضر ؟) . وقد قدم حزب الخضر مشروع قرار للبرلمان الألماني يطالب بإعطاء اليهود السوفييت الحق فى الهجرة بلا قيد أو شرط وبلا حدود ، وقد حول المشروع إلى لجنة لمناقشته (تايم ١٩ نوفمبر ١٩٩٠) ربما لقتله . وهذه فرصة

ذهبية لابد من اغتنامها ، ولابد من الايعاز لبعض المنظمات اليهودية والليبرالية واليسارية بالتهييج ، فمثل هذه المنظمات تحدث ضجة غير عادية حينما يرسم أحد صليبا معقوفا على شاهد قبر يهودى ، وأعتقد أنه ليس من الصعب تحريكها للدفاع عن حق يهود الاتحاد السوفييتى الاستيطان فى ألمانيا المتحدة ! مع العلم بأن المؤسسات الصهيونية تجد أنه من المحرج للغاية أن تحاول وقف مثل هذه الجهود إذ أن هذا يفضح التناقض الأساسى الكامن فى الفكر والحركة الصهيونية ـ ان الصهيونية تهتم بالدولة اليهودية ولا تهتم باليهود ، بل وتسخرهم لخدمتها .

يبقى بعد ذلك الجبهة الثالثة وهى العالم العربى وهذا ينقسم إلى قسمين داخل فلسطين وخارجها والتحرك على المستويين الحكومى والشعبى . أما على المستوى الرسمى فقد أسلفنا الاشارة إلى بعض نواحيه .

أما المستوى الشعبى فيمكن للجماعات الشعبية أن تعبر عن رأيها للاتحاد السوفييتى ، ويمكن للشيوعيين العرب أن يلعبوا دورا مهما فى هذا المضمار فهم ولاشك لايزال لهم اتصالات مع بعض العناصر المهمة داخل النخبة الحاكمة فى الاتحاد السوفييتى وغيره من الدول التى كانت اشتراكية . ويمكن لهذه الجماعات أن تمارس أنواعا مختلفة من الضغط لا يمكن للحكومات ممارستها .

وقد بات من الضرورى كذلك تأسيس جمعيات فى كل العالم الاسلامى مهمتها فتح قنوات مع مسلمى الاتحاد السوفييتى ومراقبة البيروقراطية الروسية العسكرية التى قد

تتخذ موقفا قوميا عنصريا ، وتعود إلى النمط القديم حينما كانت القوات القيصرية تضرب بيد من حديد على يد الإينورودتسى أى الأقليات والشعوب غير السلافية . وقد صرح أوليج جورديفسكى - رئيس المخابرات السوفييتية السابق فى لندن - وكان عميلا مزدوجا هرب الى الغرب عام ١٩٨٥ قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه - صرح بأن موسكو لن تتردد فى استخدام القوة فى أذربيجان والأماكن المماثلة . فالقوقار هامة للغاية من الناحية الاستراتيجية كما أن القيادة السوفييتية أقل أكتراثا بردة الفعل الشعبية هناك . على عكس الدول البلطيقية ، فهى - على حد قوله - متحضرة للغاية ، ومرتبطة بالغرب مما يجعل التدخل الحربى هناك أكثر صعوبة (تايم ٥ مارس ١٩٩٠) . مثل هذه الجمعيات ستشكل لاشك اداة ضغط ، كما أنها مسألة حيوية هامة حتى خارج اطار الصراع العربى - الاسرائيلى . ونحن لا نطالب هنا بالتدخل فى الشئون الداخلية للاتحاد السوفييتى وانما بمراقبة سلوكه ازاء الشعوب الاسلامية لنرى هل يتفق سلوكه مع ما يدعى هو من انفتاح واهتمام بحقوق الانسان أم لا - أى أنه يجب محاكمته من منظور ما يطرحه هو من قيم وادعاءات ، ومقارنة موقفه من المسلمين بموقفه من الشعوب والأقليات الأخرى .

وربما قد حان الوقت لبعث مشروع سفينة العودة مرة أخرى على ألا تشرف عليها المنظمة وإنما جهة شعبية يستحسن أن تكون غير عربية . ويمكن أن يقوم بالتنظيم والإشراف تحالف من عدة جمعيات عربية يمكنها المناورة بكفاءة . ولتحمل سفينة العودة هذه المرة عددا كبيرا من المسنين الذين طردوا عام ١٩٤٨ ، وليكن الشعار هو أنه إذا

كانت أرض فلسطين قادرة على استيعاب مليون يهودى سوفييتى فما قولهم فى ربع هذا العدد من الفلسطينيين ؟ ويمكن هنا أن نهيب بالإحساس الخلقى اليهودى الذى تتحدث عنه كل المراجع الغربية التى أقرأها والتى أجد صعوبة بالغة فى العثور على ثمرته فى الكيان الصهيونى . يجب أن نلجأ للحيل والألاعيب فالإعلام العالمى يحتاج دائما إلى حوادث مسرحية ولابد من أن نزود آلته النهمة بما يحتاج من مادة . فيمكن مثلا تجنيد بعض كبار الشخصيات لمصاحبة العائدين ، ولابد من أن هناك من المختصين ممن يمكنهم طرح تصورات أكثر إبداعا وإثارة وتسلية من اقتراحاتى .

ولكن العبء الأكبر يقع على المنتفضين فى الداخل : فلابد من أن يعرفوا بيوت المستوطنين الجدد وأن يركزوا عليها بحيث يضطر العدو أن يضعهم تحت حراسة مشددة خاصة ، تسبب لهؤلاء المرتزقة الباحثين عن اللذة فى الحياة الدنيا الضيق الشديد وفقدان الشهوة والشهية . ولابد من أن تذاع هذه الحقيقة : إن المنتفضين سيعاملون المهاجرين الجدد معاملة خاصة جديرة بهم ، وكما قال أرييه إلياف : « قيصر الهجرة على حد قول الجيروساليم بوست (٢٤ فبراير ١٩٩٠) لو ازدادت الانتفاضة سخونة ، أو لو اندلعت حرب كاملة فان الروس سيفرون بكل بساطة من اسرائيل . ونحن هنا لا نتحدث عن الإرهاب وإنما عن عملية مضايقة واعية مستمرة تجعلهم يبحثون عن المتعة فى مكان آخر . وإذا كان المستوطنون القدامى يتحدثون عن الزراعة المسلحة فليتحدث هؤلاء عن الرفاهية المسلحة ، واذا كان الاستيطان فى الضفة الغربية أصبح مكيف الهواء (استيطان دى لوكس على حد

قول زئيف شيف ، المعلق العسكرى الاسرائيلى) فليكن اذن مكيفا بالهواء مزودا بالسلاح وجميع الأدوات الدفاعية . كما أنه يمكن السعى لتسعير التناقضات داخل الكيان الصهيونى بين الشرقيين وبين المؤسسة الدينية من جهة ، والوافدين من جهة أخرى ولابد من أن نتذكر كلمات شارانسكى الخاصة بأول عشرة آلاف مهاجر .

وبما أن إدارة الصراع تتطلب معلومات محددة لابد وأن يوجد مندوب داخل إسرائيل مهمته ضمان تدفق المعلومات . وهذا أمر ليس صعبا ، فالمجتمع الصهيونى منفتح نسبيا خاصة بالنسبة للمؤسسات والأفراد الغربيين . ولابد من أن موردخاى التشولار كتب دراسات لم تترجم إلى اللغات الأوربية . كما أنه لابد من أن مراكز البحوث التابعة للجامعة العبرية والمتخصصة فى شئون اليهود السوفييت ويهود شرق أوربا عندها كم هائل من المعلومات المتحيزه وغير المتحيزة ، ويمكن لمراكز البحوث الفلسطينية المساهمة فى هذا الجانب . ولكن المندوب فى الداخل سيظل ذا أهمية حيوية إذ سيمكنه متابعة الصحف حتى غير المهمة منها ، كما أن إحساسه بنبض أعضاء التجمع الصهيونى سيكون أكثر مباشرة . ويمكن أن تنشر صحيفة محلية يصدرها بعض اليهود الشرقيين خبرا فى غاية الأهمية لا نكتشفه إلا بعد أسبوعين ، على سبيل المثال .

إن ادارة الصراع تتطلب عملية رصد وتصنيف دائمه للمعلومات المتاحة ، ولكل ما يستجد منها حتى نعرف الكيان الصهيونى من الداخل حق المعرفة بكل تناقضاته وصراعاته وتحركاته ، وبكل ما يطرأ عليه من تغيرات . ولابد من توصيل

بعض هذه المعلومات لليهود السوفييت فى وطنهم حتى يمكن لبعضهم أن يعيد النظر . ولابد من توفيرها لليهود الشرقيين أيضا حتى يظلوا واعين بالتمييز الطبقى والعنصرى ضدهم . بل ويمكن توفير معلومات عن خلفية بعض اليهود الوافدين للمؤسسة الدينية حتى تؤجج من حدة الصراع . فالمعلومات أساسية لإدارة أى صراع بشكل ذكى . ونحن لانعنى بالمعلومات هنا قصاصات الصحف واستطلاعات الرأى العام والموضوعية المتلقية الموثقة ، وإنما نعنى المعلومات التى يتم جمعها وتفسيرها وربطها لنستخلص منها نماذج تفسيرية يتم مراكمة المعلومات من خلالها ، فإما أن تزداد النماذج تفسيرية ويقينية أو يتم تعديلها وإعادة صياغتها . أما المعلومات التى نراكمها فى الوقت الحالى فهى توثيق للبديهيات الواضحة والعموميات الشائعة .

وأخيرا سأضرب مثلين على إدارة الصراع : واحد لا يستند إلى المعلومات الدقيقة العامة والخاصة التى ينتظمها نموذج تفسيرى ، وانما يدور فى اطار الصيغ والقوالب الفكرية الجاهزة والتلقى السريع لمعطيات الواقع . ويقف الآخر على طرف النقيض منه . أما المثل السلبى فهو بخصوص اليهود القرائين فى العالم العربى . فكثير من المفكرين العرب وصناع القرار ينظرون إلى أفراد الجماعات اليهودية غير المتجانسين ، المتنافرين أحيانا فيما بينهم (شأنهم شأن اى جماعة بشرية) ، باعتبارهم « يهودا » والسلام ، على الرغم من أن الواقع التاريخى والفعلى يناقض ذلك تماما ، فاليهود القراؤون هم يهود يؤمنون بالتوراة ، وهذا هو العنصر الوحيد المشترك بينهم وبين اليهود الحاخاميين أو التلموديين ، إذ أن القرائين لا يؤمنون بالتلمود (نظرا لتأثرهم بالفكر المعتزلى الإسلامى العقلانى) . وقد انقسموا عن

وقد اتسعت رقعة الخلاف بين الفريقين حتى أن الحاخاميين يكفرّون القرائين ـ حتى الوقت الحاضر . وبينما كان أسلافنا يعرفون الفرق بينهما (يتحدث المسعودى عن اليهود القرائين فى مقابل السماعيين ، أى الذين يؤمنون بالتلمود الذى يقال له أيضا الشريعة الشفوية أى المسموعة غير المكتوبة) ، فإن الدول العربية فى الأربعينات لم تكن تدرك الفرق ، ولذا هاجر القراؤون مع من هاجر من يهود .

ومن ثم تم تحويل عنصر بشرى كان من الممكن تجنيده فى صفنا إلى عنصر ساخط علينا مضطر للانضمام إلى أعدائه رغم أنفه للقتال ضدنا دفاعا عن النفس . ويمكن أن نقارن موقفنا هذا بموقف القوات النازية إبان الحرب العالمية الثانية . فحين احتلت هذه القوات مناطق فى الاتحاد السوفييتى تضم يهودا قرائين وتم القاء القبض عليهم ، تقدم هؤلاء بشكوى إلى القوات النازية ، وبينوا اختلافهم الجوهرى عن اليهود الحاخاميين . فأرجأت القوات النازية اتخاذ أى اجراءات بصددهم ، وأجريت بعض الدراسات والحرب العالمية الثانية مستعره ووافق النازيون على وجهة نظر القرائين ، وبالتالى لم يتم إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال وإنما تم تجنيدهم فى القوات النازية .

والقراؤون لا يزالون يعانون الويلات فى إسرائيل إذ لا تعترف الحاخامية بهم يهودا ولا تعترف بالطلاق الذى يتم على يد حاخام قرائى (تماما كما هو الحال مع اليهود السوفييت) . ويبدو أن كثيرا من عرب الداخل لا يعرفون من أمرهم شيئا . وقد سألت عنهم كثيرا من أصدقائى الذين

اليهود الحاخاميين منذ القرن التاسع الميلادى وأصبحت لهم مدارسهم وفكرهم ومفكروهم .

يعيشون فى الأرض المحتلة ، فلم يدلنى أحد على مصيرهم ، ويخلط البعض بينهم وبين يهود الناطورى كارتا الذين هم من أهم جماعات اليهود الحاخاميين ، ومعادون تماما للصهيونية ، من منظور حاخامى (ومن ثم فهم لايعترفون بالقرائين يهودا) . وغنى عن القول إن ملفات المعلومات التى تحتفظ بها الحكومات العربية ليس فيها أى شىء عن اليهود القرائين .

وقد وقعت فى يدى أخيرا إشارة وحيدة لهم فى بريد القراء فى الجيروساليم بوست (١٣ يناير ١٩٩٠) تشير إلى وجود أعداد منهم فى مدينة رام الله (مع يهود من الهند وجورجيا وأثيوبيا) . كما أن موسوعة اليهودية التى صدرت هذا العام تذكر الرقم ٢٠ ألفا ، ولا ندرى هل هذا هو عددهم فى فلسطين المحتلة وحسب ، أم أن هذا هو عددهم فى العالم وبذا يضم الخمسة آلاف الموجودين فى الاتحاد السوفييتى ؟ ما يهمنا فى هذا الموضوع أنه يوجد قطاع داخل الجماعات اليهودية يمكننا التعامل معه بشكل مختلف حينما تتوافر عندنا المعلومات الدقيقة (لا العامة) عنه والنماذج التفسيرية المركبة والشاملة . وتجاهلنا للقرائين حتى الوقت الحاضر ناجم عن جهل بخريطة الهويات والانتماءات اليهودية .

فى مقابل ذلك أحب أن أذكر واقعة الأخ دانيال ، كنموذج على كيفية إدارة الصراع . توجد إشكالية أساسية داخل العقيدة اليهودية وهى أنها عرّفت اليهودى أنه « من ولد لأم يهودية » ، والمشكلة تكمن فى أنه حينما يتخلى اليهودى عن عقيدته ويصبح ملحدا فإنه مع هذا يظل يهوديا . وقد استفاد الصهاينة الملحدون من هذا الوضع ، إذ أصبح فى مقدورهم الزعم بأنهم يهود رغم عدم إيمانهم لا بالله ولا بالتوراة (وأرجو ملاحظة أن هناك اختلافا جوهريا هنا بين التعريف

اليهودى لليهودى والتعريف الإسلامى لليهودى ، فنحن لا نعترف باليهودى الملحد يهوديا ، فحسب التعريف الإسلامى لابد من أن يؤمن اليهودى بالله والتوراة كى يحسب يهوديا ، مما يعنى أن الصهيونية ليست حركة يهودية من منظور إسلامى على الرغم من ادعاء أصحابها أنهم يهود) . ورغم أن المؤسسة الدينية لم تكن سعيدة بهذا الوضع ، خاصة أن قيادة « اليهود » وقعت فى يد العناصر الصهيونية ، فإنها آثرت الصمت باعتبار أن هذا هو تعريف الشريعة وعليها تقبله .

وهنا تحركت الكنيسة الكاثوليكية (الفاتيكان) المدركة للإشكالية ولأزمة اليهودية المعاصرة وللتناقضات الناجمة عن ظهور الدولة الصهيونية ، فأذنت للأخ دانيال بالهجرة إلى إسرائيل . والأخ دانيال هو اليهودى البولندى أوزولد روفايزين الذى ولد لأبوين يهوديين ولكنه أثناء الحرب العالمية الثانية لجأ إلى دير للراهبات هربا من النازيين وأثناء فترة اختبائه اعتنق المسيحية ثم أصبح راهبا ، وقد هاجر الأخ دانيال وطلب الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة الذى يعطى الجنسية لكل يهودى يعود إلى وطن الأجداد . وقد رفضت وزارة الداخلية اعطاءه الجنسية بمقتضى قانون العودة وعرضت عليه الجنسية عن طريق التجنس ، ولكن حيث أن الهدف من الهجرة كان تفجير المشكلة من الداخل ، فإن الأخ دانيال رفض العرض ورفع قضية فى المحكمة العليا ، وبين فى عريضة الدعوى أنه إذا كانت الشريعة اليهودية تعترف بالملحد يهوديا ، فمن باب أولى يمكنها اعتبار المسيحى يهوديا ، فالشريعة اليهودية تقرر أن اليهودى لا ينسلخ بتاتا عن دينه اليهودى مهما بلغت ذنوبه (حسبما جاء

فى كتاب السنهدرين فى التلمود) . وقد رفضت المحكمة العليا طلبه عام ١٩٦٦ وقالت فى حكمها أنه وفقا « للعرف » المعمول به فإن كل من يغير دينه بدين آخر يعد غير يهودى ، إذ أنه اختار أن ينفصل عن مصير « الشعب اليهودى » وتاريخه - أى أن المحكمة اضطرت أن تحل العرف محل الشريعة . واضطرت المؤسسة الدينية أن تقبل بهذا الحكم الذى يؤسس اليهودية ذاتها على أساس العرف ، أى أساس علمانى . ولم يفق المستوطن الصهيونى بعدها ، إذ أخذت القضية فى التفاقم ولاتزال من القضايا الأساسية التى تؤدى إلى انقسام التجمع الصهيونى وإلى تصعيد الخلافات بينه وبين يهود العالم وكما سلفنا أطلت المشكلة برأسها مرة أخرى مع وصول اليهود السوفييت .

ويمكن القول إن التناقضات الكامنة كانت ستنفجر إن عاجلا أم آجلا ، وهذا هو منطق الكسالى المهزومين ، فإن التناقضات يمكنها أن تبقى كامنة خامدة ثم تنفجر بعد قرنين من الزمان . كما أنه لو تفجرت بشكل تلقائى دون عملية تصعيد واعية من الخارج فإن العدو يمكنه أن يجد تسويات وصيغ مهادنة ، كما أنه يمكنه أن يحيطها بالصمت فلا يشعر بها أحد (ومن يسمع عن القرائين الآن ، على سبيل المثال ، وعن القمع الواقع عليهم ؟) .

لابد من إدارة الصراع بطريقة تتسم بالشمول والدقة والسرعة ، ومما يكسب القضية إلحاحا ما قاله شارانسكى بشأن العشرة آلاف الأولى ، ويمكننا أن نضيف أن اليهود السوفييت هم آخر مصادر المادة القتالية للكيان الصهيونى . وقد أخبرنى أحد اليهود المعادين للصهيونية أن المؤسسة

الصهيونية سعت لوقف الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتى فى أواخر السبعينات مع تصاعد نسبة التساقط حتى وصلت إلى ٩٠٪ ، إذ أن استمرار الهجرة اليهودية كان يعنى انتقال الجيب اليهودى من روسيا إلى أمريكا ، والصهاينة يعرفون عن حق أن من يدخل الجولدن مدنيا لا يخرج منها قط . وكانت توصف فرنسا فى القرن التاسع عشر بأنها البلد الذى يأكل اليهود ، أى تدمجهم تماما مما يؤدى إلى اختفائهم ، ويمكننا القول إن الولايات المتحدة هى البلد الذى يأمركهم تماما بحيث لا يبقى منهم إلا بعض الرموز الباهتة والشعارات الصاخبة ، ولذا مهما كان الحال فى الاتحاد السوفييتى ، فعلى الأقل يظل اليهود فيه يهودا ، ورغم تآكل هويتهم يظل عندهم الطموح فى الخروج ، ولذا آثرت المؤسسة الصهيونية الاحتفاظ بآخر المستودعات البشرية اليهودية إلى أن تأتى اللحظة المواتية . وهم يظنون أنها قد حانت وأنهم سيكون بوسعهم أن يحقنوا الجيب الاستيطانى بالمادة البشرية القتالية التى يحتاج إليها ، ولكننا لو تحركنا ونجحنا ، فإن هذا سيعنى تصفية آخر مصادر المادة القتالية للجيب الاستيطانى ، وبالتالى تتحول اللحظة التى كان يظن العدو فيها أنه ستتجدد فيها حياته وحيويته إلى لحظة النزال الأخير معه بإذن الله .

المصادر ولمزيد من الاطلاع

لا يوجد فى المكتبة العربية كتاب واحد عن اليهود السوفييت سوى كتاب سلافه حجاوى (اليهود السوفييت : دراسة فى الواقع الاجتماعى ، مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد ، ١٩٨٠) وهى دراسة جيدة للغاية ومتزنة ، وان كان قد مر على نشرها عشرة أعوام . ويوجد مقالات مختلفة نشرت فى مجلات مثل "شئون فلسطينية" و" مجلة الدراسات الفلسطينية" و"السياسة الدولية" . (أنظر خاصة دراسات كل من د . أحمد يوسف ود . أمين على محمود التى اعتمدنا عليها فى الجزء الخاص بعلاقة الدولة السوفييتية بالدولة الصهيونية) . كما توجد فى الوقت الحاضر مجلات تنشر ترجمات مستفيضة من الصحافة العبرية من أهمها "الملف" و"الأرض" و"نشرات دار الجليل" .

وقد تعرضت بعض الكتب لتاريخ يهود أوربا وخاصة يهود روسيا القيصرية ثم السوفييتية فى طى تناولها لتاريخ الصهيونية ، من أهمها : تاريخ الصهيونية لصبرى جريس (صدر منه جزآن ١٩٨٧ و١٩٨٦ ، وينشره ، مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية) ، والمشكلة اليهودية

والحركة الصهيونية لبديعة أمين (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٤) . وقد استفدنا كثيرا من دراسات هذين الكاتبين رغم اننا لم نقتبس من أعمالهما مباشرة ، وهذا أمر يحتاج للتنويه . اذ يظن البعض ان قائمة المراجع يجب ألا تضم سوى الكتب التى تم الاقتباس منها بالفعل ، مع أن المصادر التى لا نقتبس منها قد تفوق فى أهميتها وعمق اثرها بمراحل تلك التى نقتبس منها ، وذلك إن أثّرت فى صياغه النموذج التفسيرى ذاته ، بينما نجد ان كثيرا من الكتب التى نقتبس منها هى مجرد مصدر للحقائق - مادة أرشيفية وحسب !

ومن أهم الدراسات الموجودة باللغة العربية والتى تلقى كثيرا من الضوء على يهود اليديشيه دراسة ابراهام ليون : المفهوم المادى للمسألة اليهودية ، وهى دراسة تفوق فى أهميتها وعمقها درسا ماركس فى المسألة اليهودية وتتجاوزها : ولعل هذا يعود إلى حدود تجربة ماركس التاريخية ، وإلى عدم اكتراثه بالموضوع اليهودى ، وإلى جهله باليديشيه ويهود شرق أوروبا ، هذا على عكس ليون الذى كان يعرف تاريخ يهود روسيا وبولندا وكان مطلعا على المصادر اليديشيه .

وغنى عن القول إن المكتبة الانجليزية مكتظة بالكتب عن يهود الاتحاد السوفييتى بشكل مبالغ فيه ، ولذا نجد أن كثيرا من الكتب لا يأتى بجديد ويكرر نفس الآراء والمعلومات دون إضافة معرفية حقيقية . ولعل هذا يعود الى ان سوق الكتب عن اليهود السوفييت رائجة ، ولذا تسارع دور النشر باصدار الكتب لتحقيق الربح دون ابداء أى رحمة بالقراء خاصة

المتخصصين منهم الذين يجدون أن من واجبهم العلمى الاطلاع على ما جاء فيها .

وفيما يلى قائمة بأهم المراجع :

Altshuler, Mordechai. **Soviet Jewry since** the Second World war : Population and Social Structure. Green wood Press, New York, 1987.

Boron, Salo W. **The Russian Jew Under Tsars and Soviets.** Macmillan, New York, 1964.

Hirszowicz, Lukasz. Ed. **Proceedings of the Experts' Conference on Soviet Jewry Today.** London, 4–6 January 1983, Institute of Jewish Affairs, London, 1985.

Kochan, Lionel. Ed. The Jews in Soviet Russia since 1917. Oxford University Press, Oxford 1972.

Lerman, Antony **et al.** Eds. **The Jewish Communities of the World : A Contemporary Guide.** Institute of Jewish Affairs and Macmillan, London, 1989.

Levin, Nora. **The Jews in the Soviet Union Since 1917 : Paradox of Survival.** Two Volumes, New York University Press, New York, 1988.

Mahler, Raphael. **A History of Modern Jewry, 1780 - 1815.** Vallentine, Mitchel, London, 1971.

Pinkus, Benjamin. **The Jews of the Soviet Union : The History of a National Minority.** Cambridge University Press, Cambridge, 1988.

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة وغيرها على الموسوعات اليهودية المتخصصة واهمها فى تصورنا

Landman, Isaac. Ed. **The Universal Jewish Encyclopedia.** Kitav, New York, 1969.

فى عشرة اجزاء

وهذه طبعة طبق الاصل من الموسوعة التى صدرت عام ١٩٤١ . وتعود اهمية هذه الموسوعة الى انها كتبت قبل ان يهيمن الفكر الصهيونى تماما على الجماعات

اليهودية وعلى الدارسين ولذا تضم هذه الموسوعة قدرا من المعلومات تحرص المراجع الصهيونية على استبعاده . واستفدنا إيضا بالموسوعة التالية :

Wigoder, Geoffrey Ed. **The Encyclopedia of Judaism,** Macmillan, New York, 1989.

وتقع فى جزء واحد .
ومن أهم الأعمال الموسوعية

Roth, Cecil. Ed. **Encyclopedia Judaica.** Keter, Jerusalem, 1972.

وتقع فى سبعة عشر جزء .

وهى تعد أضخم عمل موسوعى عن الظواهر اليهودية والصهيونية ولكن رؤيتها صهيونية تماما . ومع هذا يمكن للقارىء المسلح بنموذج تفسيرى نقدى ان يستخلص منها قدرا من المعلومات الذى يتجاوز النموذج الصهيونى بل ويتحداه . وتصدر الموسوعة اليهودية كتابا سنويا صدر آخرها عام ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ ، يزود الباحث باخر المعلومات والاحصائيات ، ومن الغريب ان الكتاب السنوى اكثر توازنا

من الموسوعة ذاتها .

أما بالنسبة للجزء التاريخي فقد اعتمدنا على تواريخ الجماعات اليهودية خاصة كتاب سالو بارون S. Baron (١٩ جزء) وهاينريش جرايتز H. Graetz (خمسة أجزاء) وسيمون دبنوف S. Dubnow (أربعة أجزاء) والتاريخ الذى حرره بن ساسون Ben. Sasson والتواريخ التى ألفها كل من سيسل روث C. Roth وهوارد ساخار H. Aochar وهاليفى Helevi .

ويوجد حوليه متخصصة عن اليهود السوفييت تسمى Soviet Jewish Affairs وهى صهيونية المنحى ضعيفة المستوى ، ومع هذا هى أحسن مصدر لمتابعة الاصدارات الجديدة وكل ما يستجد من اشكاليات . ويصدر هذه الحوليه Institute of Jewish Affairs

وهى هيئة علمية صهيونية تصدر أيضا العديد من الدراسات من بينها سلسلة دراسات قصيرة (مونوجراف) عن أحوال يهود العالم .

وسيلاحظ القارىء أننا لم نشر إلى أى مرجع فى الفصول الثلاث الأولى وهذا يعود الى أننا اعتمدنا على « موسوعة الجماعات والعقائد اليهودية » وهى للمؤلف وستصدر هذا العام . ولا تذكر المراجع عادة بعد مداخل الموسوعات وإلا تضاعف حجمها ، ومصادر هذه المداخل هى أساسا مصادر هذا الكتاب ، وقد اعتمدنا فى بقية فصول الكتاب على الصحف والمجلات خاصة الجيروساليم بوست .

وغنى عن القول إن هناك عشرات المراجع الاخرى التى يمكن الاطلاع عليها (والتى استفدنا من بعضها) ولكن هذه ليست قائمة شاملة للمراجع والمصادر ، وانما هى قائمة جزئية للمراجع واقتراحات عامة لمن يود أن يتعمق فى الموضوع .

فهـــرس

صفحة

مقدمة ٧

الفصل الأول :

الجماعات اليهودية فى التاريخ ٢٩

الفصل الثانى :

تاريخ الجماعات اليهودية فى

روسيا القيصرية ٦١

الفصل الثالث :

الدولة السوفييتية والجماعات اليهودية ٩٩

الفصل الرابع :

اليهود السوفييت عشية الهجرة الجديدة ١٣٩

الفصل الخامس :

اليهود المتخفون وغيرهم ١٧٩

الفصل السادس :

المشكلة السكانية والاستيطانية ٢١٥

الفصل السابع :

البطالة والاسكان ٢٢٩

الفصل الثامن :

العداء للقادمين ٢٦١

الفصل التاسع :

برنامج التصدى ٢٨١

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدًا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

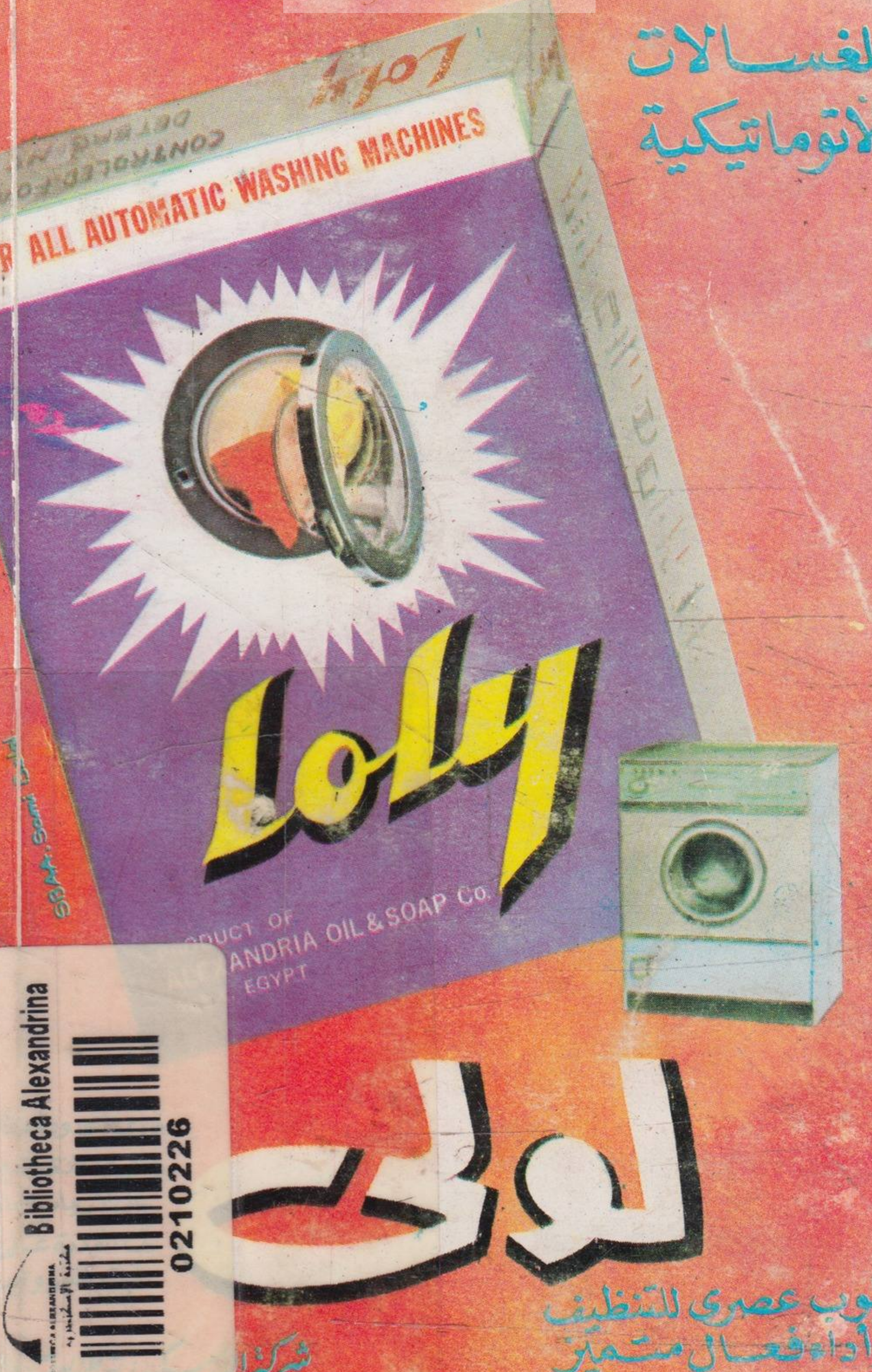
الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة – ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٨٩٢٧ / ١٩٩٠

I.S.B.N.
977 - 07 - 0038 - X

هذا الكتاب

لا تحاول هذه الدراسة أن تقدم أهم الحقائق والمعلومات عن هجرة اليهود السوفييت وحسب ، ولكنها تهدف أيضا ـ وبالدرجة الاولى ـ إلى تقديم منهج فى الرصد والتحليل والتفسير ينظر لهذه الواقعة باعتبارها جزءا من نمط متكرر ، ومن ثم تناولت الفصول الاولى من الكتاب انماط التطور السكانى للجماعات اليهودية وهجراتهم عبر التاريخ ، وكذلك تاريخهم فى الاتحاد السوفييتى منذ بداية استقرارهم فيه حتى الوقت الحاضر . وتناولت الفصول الأخيرة قضية اعداد المهاجرين السوفييت وبواعث هجرتهم ، وقضية اليهود المتخفين واشباه اليهود وغير اليهود ممن سيأتون مع المهاجرين ، وعوامل الطرد والجذب فى كل من الاتحاد السوفييتى واسرائيل ، ومشكلات الاستيعاب المختلفة ، والنتائج المتوقعة وغير المتوقعة للهجرة بما فى ذلك عداء المستوطنين الصهاينة القدامى ـ خاصة اليهود المتدينين والشرقيين ـ للوافدين الجدد . ويطرح الفصل الاخير تصورا شاملا لكيفية التصدى لهذه الهجرة .


لغسـالات
لاتوماتيكية
R ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
Loly
ODUCT OF
ANDRIA OIL & SOAP Co.
EGYPT
لولي
وب عصري للتنظيف
أداء فعال متميز